Agatha Christie®

أجاثا كريستي

العدو الخفي



بمقدمة جديدة

المهمة المشئومة

Agatha Christie®

The Secret Adversary





للتعرف على فروعنا في

المملكة العربية السعودية - قطر - الكويت - الإمارات العربية المتحدة

نرجو زيارة موقعنا على الإنترنت **www.jarirbookstore.com**

للمزيد من المعلومات الرجاء مراسلتنا على: **jbpublications@jarirbookstore.com**

الطبعة الأولى ٢٠١٤

المملكة العربية السعودية ص.ب. ٣١٩٦ الرياض ١١٤٧١ - تليفون ٤٦٢٦٠٠٠ ١١ ٩٦٦+ - فاكس ٤٦٥٦٣٦٣ ١١ ٩٦٦+

بسم الله الرحمن الرحيم

نبذة عن المؤلفة

تُعد أجاثا كريستي أكثر الروائيات نشرًا، حيث نُشرت أعمالها على نطاق واسع على مر العصور وبكل اللغات، ولم يتفوق عليها في المبيعات سوى مؤلفات شكسبير؛ فلقد بيعت أكثر من مليار نسخة من رواياتها باللغة الإنجليزية ومليار نسخة أخرى بمائة لغة أجنبية. كتبت أجاثا كريستي ثمانين رواية من أدب الجريمة ومجموعات قصصية قصيرة وتسع عشرة مسرحية وكتابيْ سيرة ذاتية وست روايات أخرى كتبتها تحت اسم مستعار، هو "ماري ويستماكوت".

حاولت في البداية تأليف القصص البوليسية في أثناء عملها في مستوصف طبي في أثناء الحرب العالمية الأولى، مبتكرة الشخصية الأسطورية "المحقق هيركيول بوارو" في روايتها الأولى *القضية الغامضة في مدينة ستايلز**. وفي رواية جريمة *قتل في المعبد*** التي تم نشرها في عام ١٩٣٠، قدمت محققة محبوبة هي الآنسة جين ماربل. ومن بين شخصيات سلسلة الروايات فريق مكافحة الجريمة المكون من الزوج والزوجة تومي وتوبينس بيريسفورد، والمحقق الخاص باركر باين، ومحققي سكوتلاند يارد: المراقب باتل والمفتش جاب.

والكثير من روايات كريستي وقصصها القصيرة تم تحويلها إلى مسرحيات وأفلام ومسلسلات تليفزيونية. ومن أشهر مسرحياتها على الإطلاق مسرحية *The Mousetrap* التي تمت بداية عرضها في عام ١٩٥٢، وقد استمر عرضها على خشبة المسرح لأطول فترة عرض في تاريخ المسرح. ومن بين أشهر الأفلام المأخوذة عن رواياتها جريمة في *قطار الشرق السريع**** (١٩٧٤) وجريمة *قتل على ضفاف النيل***** (١٩٧٨)؛ حيث لعب دور المحقق هيركيول بوارو الممثلان "ألبرت فيني" و"بيتر أوستينوف" في الفيلمين على التوالي. وعلى شاشة التليفزيون، لعب الممثل "ديفيد سوشيه" دور المحقق بوارو على نحو لا يمكن

---

* متوافرة لدى مكتبة جرير

** متوافرة لدى مكتبة جرير

*** متوافرة لدى مكتبة جرير

**** متوافرة لدى مكتبة جرير

نسيانه أبدًا، ولعبت الممثلة "جوان هيكسون" دور الآنسة ماربل، ثم تبعتها في تأدية هذا الدور كل من الممثلة "جيرالدين ماكإيوان" و"جوليا ماكنزي".

تزوجت كريستي لأول مرة من أرشيبالد كريستي، ثم تزوجت من عالم الآثار السير ماكس مالوان، الذي رافقته في رحلاته الاستكشافية إلى البلدان التي استعانت بها في أحداث العديد من رواياتها. وفي عام ١٩٧١، تسلمت كريستي واحدًا من أرفع الأوسمة البريطانية حين حصلت على لقب سيدة الإمبراطورية البريطانية. توفيت كريستي في عام ١٩٧٦ عن عمر يناهز الخامسة والثمانين. وتم الاحتفال بعيد ميلادها المائة والعشرين في مختلف أنحاء العالم في عام ٢٠١٠.

www.AgathaChristie.com

مجموعة روايات لأجاثا كريستي

- راكب إلى فرانكفورت
- إعلان عن جريمة
- أوراق لعب على الطاولة
- خطر في إند هاوس
- القتل السهل
- الموت على ضفاف النيل
- القضية الغامضة في مدينة ستايلز
- خداع المرايا
- الجواد الأشهب
- لغز القطار الأزرق
- الأفيال تستطيع أن تتذكر
- الموت يأتي في النهاية
- القتل السهل
- ثلاثة فئران عمياء وقصص أخرى
- السيد كوين الغامض
- تحريات باركرباين
- من الذى قتل السيد روجر أكرويد
- أبجدية القتلى
- جريمة وانتقام
- موت في السحاب
- بيت الرجل الميت
- شجرة السرو الحزينة
- واختفى كل شيء
- جريمة في بغداد

المحتويات

تومي وتوبينس: مقدمة

كتب: جون كوران

"تومي، صديقي العزيز".

"توبينس، رفيقتي الغالية".

يُعرِّف هذا الإصدار الجديد من رواية *العدو الغامض* - التي نُشرت للمرة الأولى عام ١٩٢٢ - قراء أجاثا كريستي على فريق المحققين المكون من تومي وتوبينس بيريسفورد. يسود حس الدعابة الخفيفة ليس هذه الرواية فقط، بل أيضًا الروايات والقصص القصيرة من السلسلة ذاتها التي ستصدر في المستقبل، على الرغم من أن كلمة سلسلة قد لا تكون معبرة، فعلى النقيض من روايات بوارو والآنسة ماربل والروايات الكثيرة التي قاما ببطولتها، لا توجد سوى خمس روايات فقط قام ببطولتها فريق تومي وتوبينس. كتبت كريستي تلك الروايات الخمس على مدى مسيرتها المهنية بالكامل، فقد كتبت اثنتين منها في العقدين الأول والأخير من مسيرتها المهنية، وواحدة في منتصفها. كانت رواية *العدو الخفي* هي روايتها الثانية التي تم نشرها، في حين كانت الرواية الأخيرة التي قامت بكتابتها هي رواية *Postern of Fate* عام ١٩٧٣، وكانت من بطولة تومي وتوبينس أيضًا. خلال تلك الفترة صدرت مجموعة قصصية قصيرة تحت عنوان *شركاء في الجريمة* عام ١٩٢٩، وقصة الجاسوسية تحت عنوان *إن أو إم* عام ١٩٤١، ثم تلتها فترة توقف طويلة حتى صدور الرواية البوليسية المشئومة

المليئة بجرائم القتل تحت عنوان *By the Pricking of My Thumbs* عام ١٩٦٨.

كانت فرق المحققين المكونة من زوج وزوجته نادرة في الروايات البوليسية الخيالية، فقد ابتكر داشيل هاميت شخصيتي نيك ونورا تشارلز في روايته *The Thin Man* عام ١٩٣٤، وهي المغامرة الوحيدة التي قاما ببطولتها، ناهيك عن نصف دستة من الأفلام التي أدى دوريهما الممثل ويليام باول (نيك) والممثلة ميرنا لوي (نورا). هناك أيضًا بام وجيري نورث، فريق المحققين المكون من زوج وزوجته الذي ابتكره كل من ريتشارد وفرانسيس لوكريدج - الفريق الذي قام ببطولة ست وعشرين رواية. على الرغم من أن الكثير من شخصيات المحققين الأخرى قد ظهرت متزوجة في الروايات - المحقق فرينش، جيديون فيل، المحقق ألين - فإن شخصيات زوجاتهم لم تكن شخصيات ضالعة في عملية التحقيق. أما بالنسبة لـ تومي وتوبينس بيريسفورد، فإنهما فريدان من نوعهما فيما يتعلق بلقائهما وزواجهما وشراكتهما وتقدمهما معًا في السن خلال فترة الخمسين عامًا، التي تمثل مسيرتهما المهنية في عالم حل خيوط الجرائم.

على العكس من شخصيات المحققين الأخرى التي ابتكرتها كريستي، فإن شخصيتي تومي وتوبينس تشيخان بالتدريج خلال سلسلة الأعمال التي ظهرا فيها، على الرغم من أنه يجب الاعتراف بأن تقسيم الفترات الزمنية بشكل رياضي لم يكن يتمتع بالكثير من الدقة. عندما قابلناهما للمرة الأولى في رواية *العدو الغامض*، كانا قد سُرحا للتو من الجيش بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، ثم أصبحا زوجين يديران وكالة للتحقيقات الخاصة في رواية *شركاء في الجريمة*، التي أعلنت توبينس في نهايتها أنها أصبحت حاملاً. في حين كان أطفالهما يقاتلان خلال الحرب العالمية الثانية، كان السيد والسيدة بيريسفورد يشاركان في الحرب من خلال مطاردة الجواسيس في رواية *إن أو إم*، ثم أصبحا جدين يحققان في حالة اختفاء غامضة بعد تقاعدهما في رواية *By Pricking of My Thumb*. أما في مغامرتهما الأخيرة، فيقوم العجوزان تومي وتوبينس باكتشاف السر التاريخي لمنزلهما الجديد في رواية *Postern of Fate*.

كانت توبينس حجر الأساس للكثير من بطلات الروايات اللواتي ابتكرتهن كريستي خلال مسيرتها: آن بيدينجفيلد في رواية *الرجل ذو السترة البنية* عام ١٩٢٤، والليدي إيلين (باندل) برنت في رواية سر جريمة *تشيمنز* عام ١٩٢٥، و*لغز المنبهات السبعة* عام ١٩٢٩، وشخصية إميلي تريفوسيس في رواية *The Sittaford Mystery* عام ١٩٣١، والليدي فرانسيس ديروينت في رواية *لماذا لم يسألوا إيفانز؟* عام ١٩٣٤، وفيكتوريا جونز في رواية جريمة في *بغداد* عام ١٩٥١. كانت جميع تلك الشخصيات النسائية تحمل سمات مشابهة لـ توبينس: الفضول الذي لا يكل، وسرعة البديهة، والولاء التام، وحس الدعابة، ولكن تميزت توبينس بكونها زوجة وبعد ذلك أمًا وجدة. على العكس من الشخصيات النسائية "الثانوية" الأخرى، تعتبر توبينس شريكًا في بطولة الرواية على قدر بطل الرواية الذكر نفسه، حيث إنها ليست تلك الأنثى العاجزة التي تنتظر البطل الذكر الأكثر شجاعة وذكاءً لينقذها من براثن الشخصية الشريرة في الرواية. كانت توبينس هي من أخذت بزمام المبادرة فيما يتعلق بنشر إعلان في الصحف كُتب فيه: "لن يتم رفض حتى العروض غير المعقولة". كانت رباطة جأش توبينس هي التي مكنتها هي وزوجها من النجاح في اللغز الأول الذي تورطا فيه، كما أن هدوءها قد خضع للكثير من الاختبارات القاسية لقوة أعصابها. خلال أحداث رواية *العدو الخفي*، شاركت توبينس زوجها تومي القدر نفسه من المخاطر.

في الفصل الأول من رواية *العدو الخفي* وُصفت توبينس بأنها: "ليست على قدر كبير من الجمال، ولكن يمكنك أن ترى قوة شخصيتها وسحرها يطلان من الخطوط الجميلة لوجهها الصغير، وذقنها الذي يحمل أمارات الإصرار وعينيها الرماديتين الواسعتين المتباعدتين اللتين تطلان من تحت حاجبيها الأسودين المستقيمين". أما وجه تومي فكان "قبيحًا بشكل غير منفر - لا يمكن وصفه بكونه وجه رجل نبيل أو رياضي". الأمر المثير للدهشة هو أنه قد وُصف على أنه يمتلك "شعرًا أحمرًا جميلاً مصففًا للخلف". بهذه الأوصاف، تجنبت كريستي تكرار بعض الأوصاف مثل الأكتاف العريضة والخصر النحيف وعظام الفك المنحوتة والوجه الشيطاني الذي لفحته الشمس (بالنسبة لأبطال الرواية)

والجسد الذي يشبه أجساد الكائنات الخرافية، والجدائل الذهبية، والجمال الذي لا مثيل له، والبراءة التامة (بالنسبة لبطلات الرواية)، هي الصفات التي كانت شائعة لوصف أبطال الروايات في ذلك الوقت.

قد نصدق شخصيات تومي وتوبينس لأنها شخصيات "عادية" للغاية. في الفصل الثاني والعشرين من رواية *العدو الخفي*، يقوم كل من رئيس الوزراء والسيد كارتر الغامض بمناقشة القضية والحديث عن بطلي الرواية، حيث يقوم السيد كارتر بتقديم الملخص البارع التالي عنهما، والذي يعمل كصورة دقيقة عن كل منهما: "ظاهريًا، يبدو تومي شابًا إنجليزيًا عاديًا متناسق الأعضاء ضيق الأفق، حيث يعمل عقله ببطء، ولكن من المستحيل أن يقوده خياله إلى الخروج بأية أفكار عظيمة. إنه لا يمتلك أي خيال - لذا فمن الصعب عليه أن يخدع أي أحد. إنه يفهم الأمور ببطء شديد، ولكن بمجرد أن تستحوذ عليه فكرة ما، فإنه لا يتخلى عنها أبدًا. أما السيدة توبينس فهي تختلف عنه تمامًا، حيث إنها تميل إلى الاعتماد على حدسها أكثر من تفكيرها المنطقي. إنهما يشكلان فريقًا رائعًا بعملهما معًا، من حيث السرعة وقوة الاحتمال".

الشخصية الأخرى من السلسلة التي ظهرت للمرة الأولى في رواية *العدو الخفي* هي ألبرت، الفتى الحمال المتواضع الذي يعمل في فندق ريتز، حيث تعرفنا عليه للمرة الأولى. قامت توبينس، من خلال تورطها الكبير في بعض الأمور الفظيعة، بمصادقته، حيث أثبتت أحداث المغامرة أنه حليف قيم للغاية. في المرة التالية التي سنقابله فيها في رواية *شركاء في الجريمة*، سنجد أنه أصبح ساعي المكتب في وكالة التحقيقات الخاصة، كما أنه سيصبح جزءًا لا يتجزأ من منزل عائلة بيريسفورد، حيث ظهر في جميع الروايات، ومن بينها رواية *Postern of Fate*. لن نعرف، حتى رواية *إن أو أم*، أن اسم عائلته هو بات، وأنه متزوج، على الرغم من أن دور زوجته في الرواية غير ظاهر. جاءت مشاركته في أحداث رواية *إن أو إم* بمحض المصادفة، ولكنه كان في رواية *By the Pricking of My Thumbs* جزءًا لا يتجزأ من منزل عائلة بيريسفورد؛ حيث كان يعمل طاهيًا ورئيس خدم وعاملًا يهتم بإصلاح كل شيء في المنزل.

عندما وقّعت أجاثا كريستي عقد نشر رواية *القضية الغامضة في مدينة ستايلز*، كانت قد وقعت أيضًا عقد كتابة خمس روايات أخرى لصالح دار نشر بودلي هيد. في شهر أكتوبر من عام ١٩٢٠، أرسلت خطابًا إلى ناشرها، جون لاين من دار نشر بودلي هيد، تسأل فيه عن تقدم مبيعات كتابها الأول، وذكرت في سياق خطابها ما يلي: "لقد أوشكت على الانتهاء من كتابة كتابي الثاني". لذا يدل هذا الخطاب على أن رواية *العدو الخفي* كانت جاهزة قبل ثلاثة أعوام من نشرها، الأمر الذي يتفق بدوره مع الحوار في الفصل الأول الذي يقول فيه تومي إنه قد سُرح من الجيش "منذ عشرة أشهر طويلة مرهقة". إن كان تومي قد خرج من الجيش في نهاية عام ١٩١٨، فإن عشرة أشهر تالية ستصل به إلى قرب انتهاء عام ١٩١٩.

تحدثت كريستي عن نشأة الكتاب المبكرة في سيرتها الذاتية، حيث وصفت كيف أنها سمعت، مثلما فعل تومي في الفصل الأول من الرواية المنتهية، حوارًا يدور في أحد المقاهي عن امرأة تُدعى جاين فيش، حيث قالت: "هذا، كما أعتقد، كان سيشكل بداية رائعة لقصة - اسم سمعته مصادفة في أحد المقاهي - اسم غير عادي لدرجة أنه أيًا كان من يسمعه، سيتذكره طوال حياته. اسم مثل جاين فيش أو ربما من الأفضل أن يكون جاين فين. لقد استقر قراري على جون فين وبدأت في الكتابة على الفور. أطلقت على الرواية في البداية عنوان *المغامرة المرحة* - ثم *شباب المغامرين* - وأخيرًا استقر رأيي على *العدو الخفي*". ظهرت تسمية "شباب المغامرين" مرة أخرى في الفصل الأول في إعلانات الصحف، والتي دلت بشكل ممتاز على روح الرواية وبطليها. قالت كريستي إن جون لاين لم تعجبه رواية *العدو الخفي* لأنها كانت تختلف تمامًا عن روايتها الأولى. كان جون خائفًا بدرجة كبيرة من انخفاض المبيعات لدرجة أنه قرر ألا ينشر الرواية، إلا أنه تراجع عن قراره، وحصلت كريستي على خمسين جنيهًا مقابل حقوق الملكية الفكرية للسلسلة.

تعود أصول أحداث رواية *العدو الخفي* إلى أربع سنوات سابقة لوقت كتابتها خلال أحداث حقيقية وقعت: غرق سفينة *لوزيتانيا* في شهر مايو من عام ١٩١٥. كانت السفينة قد أبحرت من ميناء نيويورك قبل حوالي أسبوع من غرقها وعلى

متنها حوالي ألفي راكب (مائة وستون منهم كانوا مواطنين أمريكيين)، وأصابها طوربيد ألماني على سواحل أيرلندا. غرق في تلك الحادثة ١٢٠٠ راكب من بينهم ١٢٠ أمريكيًا. على الرغم من الادعاءات الألمانية بأن السفينة كانت تحمل أسلحة، فإن العالم بأكمله قد شعر بغضب شديد من إغراق الجيش الألماني سفينة ركاب، وقد سرع هذا السخط الشديد من دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب (المفارقة أن التحقيقات البحرية الحديثة أثبتت وجود ذخائر على متن السفينة). في وقت نشر رواية *العدو الخفي*، كانت تلك المأساة الشهيرة لا تزال حية في الوجدان الشعبي، كما أن المشهد الافتتاحي القصير الذي تدور أحداثه على متن تلك السفينة سيئة الحظ قد استحوذ على انتباه القراء. قد يبدو هذا المشهد حدثًا غير مهم يحرك سلسلة من الأحداث التي تورط فيها بطل الرواية وبطلتها من دون أن يدركا ذلك.

تبدأ أحداث القصة الرئيسية، بعد عدة أعوام، بلقاء الآنسة برودنس كاولي والسيد توماس بيريسفورد خارج محطة قطار أنفاق دوفر التي لم تعد موجودة في الوقت الحالي. تجديدًا لمعرفتهما السابقة، نعرف أن كليهما قد تم تسريحه مؤخرًا من الجيش ولم يحصلا على عمل بعد. توجها بعد ذلك إلى مقهى ليونز كورنر هاوس (سلسلة مقاه شهيرة لم تعد موجودة هي الأخرى) وبدأ كل منهما يقص على الآخر قصة حياته. يتبادر إلى علمنا أنهما كانا يعرفان بعضهما بعضًا أثناء الطفولة وتقابلا مرة أخرى خلال الحرب عندما أصيب تومي وتلقى علاجه في المستشفى نفسه الذي كانت تعمل به توبينس.

توبينس هي الآنسة برودينس كاولي، ابنة رجل الدين كاولي (الذي يظهر ظهورًا محدودًا في نهاية رواية العدو الخفي)، وهي الابنة الخامسة بين سبعة أبناء. لم يعلم أحد مصدر اسمها الحركي، توبينس، ولا حتى هي. تركت منزل أسرتها في سافولك - ليس رغمًا عنها - للمساعدة في الجهود الحربية وعملت في عدد من الوظائف المتواضعة في أحد المستشفيات.

قبل تسريحها من الجيش، عملت توبينس سائقة وموظفة في أحد المكاتب. كانت قصة حياة تومي أكثر قصرًا من توبينس. بعيدًا عن عمه الغني الذي كان

يرغب بشدة في كفالته، لا نعلم الكثير عن أبويه الراحلين. ترقى تومي إلى رتبة ملازم في الجيش وأُصيب عدة مرات. كان كلاهما عاطلاً عن العمل ومفلسًا، الأمر الذي يعد من الحقائق التاريخية، فعندما ترك الآلاف الخدمة في الجيش بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، تسبب هذا في حدوث أزمة بطالة ضخمة، تحولت فيما بعد لتصبح مشكلة اجتماعية واقتصادية ضخمة.

بعيدًا عن الأسلوب الروائي السلسي، هناك سمة جذابة أخرى تتسم بها هذه الرواية، وهي روح الدعابة التي يتمتع بها بطلا الرواية. حدد الحوار الافتتاحي نغمة المرح التي تميز بطلي الرواية، الأمر الذي استمر في أغلب أجزائها، حتى في المواقف العصيبة التي وجدا نفسيهما متورطين فيها. كان حوار توبينس الماكر مع السيد ويتنجتون - "لقد سمعتني أمس أقول إنني سأعيش طبقًا لما يمليه عليّ ذكائي، ويبدو أنني قد أثبتُّ أنني أمتلك بعض الذكاء لأعيش طبقًا له". - يماثل هذا سلوك تومي الشيطاني - قال تومي برعونة: "دعونا نأمل ألا يكون القاضي قد ارتدى قبعته السوداء" - خلال الفترة التي قضاها في السجن. بعد ذلك، كان استحواذ توبينس على عقل وقلب ألبرت - همست قائلة: "المحقق الأمريكي فورس"، وأُعجب ألبرت بما قالته، وغمغم قائلاً: "يا إلهي" - أمر يدل على البراعة الشديدة في التمثيل والدراية التامة بعلم النفس.

تعتبر عناصر رواية *العدو الخفي* ملائمة تمامًا للعصر الذي صدرت فيه - المحقق الشجاع (أو في هذه الحالة، اثنان من المحققين الشجعان) الذي يصارع زعيمًا إجراميًا غامضًا يسعى للسيطرة على العالم، اختطافات خسيسة ومعارك إنقاذ جريئة، رسائل تلغرافية وخطابات مزيفة، تنكر وانتحال شخصيات. كما دخل إلى غمار الأحداث أيضًا مليونير وممرضة منزلية غريبة الأطوار وزوج من الأغراب اللذين من السهل الارتياب في أمرهما (الغريب هو أي شخص من خارج حدود بريطانيا)، وحالة وفاة غامضة. من هذه المكونات المكررة تمكنت كريستي من إنشاء قصة رائعة جديرة بالقراءة، مع تطور للأحداث جديد تمامًا وغير متوقع والكشف المفاجئ عن حل اللغز في الفصل الأخير على طريقة أجاثا كريستي. يلعب السيد براون الغامض في رواية التشويق هذه دور القاتل المجهول نفسه في بقية رواياتها - السيد/ السيدة/ الآنسة الغامضة التي تنتظر

ليتم الكشف عن هويتها في الفصل الأخير من الرواية. قامت كريستي أيضًا بإخفاء شخصية الزعيم الإجرامي الخطر قدر ما مكنتها إمكانياتها الفنية كما فعلت مع القاتل الأول في رواية *القضية الغامضة في مدينة ستايلز*.

تظهر بعض عناصر حبكة هذه الرواية في بعض روايات كريستي التالية؛ تسلل تومي من أحد التجمعات في ذلك المنزل في سوهو يُنبئ بمشهد مماثل، بعد سبع سنوات، في رواية *لغز المنبهات السبعة*؛ الممرضة المنزلية الشريرة، تظهر مرة أخرى في رواية تالية لـ تومي وتوبينس تحت عنوان *The Case of the Missing Lady*، وكذلك رواية *لماذا لم يسألوا إيفانز؟*، وكذلك الأوراق المهمة التي تدور حولها أحداث مسرحية *القهوة السوداء*، والقصة القصيرة تحت عنوان *The Incredible Theft*. هذا إلى جانب أن السمة العامة لتظاهر شخصيات الروايات بأنهم أشخاص آخرون ستظل تلازم روايات كريستي طوال الخمسين عامًا التالية. المفاجأة الأخرى التي ستذهل قراء كريستي المطلعين على أعمالها هو الذكر المقتضب للمحقق جاب في الفصل الخامس، وهو المحقق الذي يشارك هيركيول بوارو في حل خيوط الجرائم. كان المحقق جاب قد ظهر بالفعل في رواية *القضية الغامضة في مدينة ستايلز*، وسيستمر في كونه المعجب الحاسد للمحقق البلجيكي على مدار سنوات عدة، وقضايا عدة في المستقبل.

عندما نُشرت رواية *العدو الخفي* في شهر يناير من عام ١٩٢٢ في المملكة المتحدة وبعدها بعدة أشهر في الولايات المتحدة الأمريكية، حصلت على تغطية صحفية رائعة، حيث وجدتها جريدة *لندن تايمز* "فكرة جديدة تمامًا، حيث تمت تغطية هوية المجرم الرئيسي بمهارة حتى نهاية الرواية"، في حين اعتقدت جريدة *الدايلي نيوز* أن الرواية "ذات حبكة عبقرية ومثيرة... إنها تستحق القراءة". اعتبرت جريدة *ساترداي ريفيو* أن الرواية "قصة مغامرات مشوقة، مليئة بالحالات التي يهرب فيها الأبطال في اللحظة الأخيرة، وستفشل جميع محاولات القراء لحل خيوط اللغز قبل اللحظة التي يرغب الكاتب فيها في أن يمدهم بالدليل. قصة ممتازة". لخصت جريدة *الدايلي كرونيكل* الرواية بطريقة تكهنت من خلالها أن تلك ستكون حال جميع المراجعات الأدبية في

المستقبل؛ حيث كُتب عنها: "حبكة روائية ممتازة، وسيجد القارئ، مثلما فعلنا، أنه من المستحيل أن يتوقف عن القراءة حتى يتم حل خيوط اللغز".

كانت جميع هذه الآراء النقدية مشجعة، لأن رواية *العدو الخفي* تختلف تمامًا من حيث الأسلوب والسرعة عن رواية كريستي الأولى. حدد العقد الأول من المسيرة الأدبية لـ أجاثا كريستي المعادلات الأدبية التي يجب أن تبحث عنها لتتلاءم مع مواهبها. على الرغم من أن الروايات البوليسية كانت نوعية الكتب التي ستحصل من خلالها على الشهرة والمال، فإنها لم تؤلف سوى أربع روايات فقط من هذه النوعية ما بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٢٩ وهي: *القضية الغامضة في مدينة ستايلز*، *من الذى قتل السيد روجر أكورويد؟* *ولغز القطار الأزرق*؛ حيث قامت بإدراج التشويق داخل كل من هذه الروايات، الأمر الذي أعطى لها بعدًا واقعيًا إلى جانب البعد العقلي - *العدو الخفي*، *الرجل ذو البذلة البنية*، *لغز المنبهات السبعة* - والمجموعات القصصية القصيرة - تحريات *بوارو وشركاء في الجريمة*، إلى جانب رواية *العظماء الأربعة*، المكونة من عدة روايات منتقاة من قصص قصيرة سابقة.

كان سوق القصص القصيرة في ذلك الوقت ضخمًا ومربحًا للغاية، حيث كانت هناك الكثير من المجلات الخيالية تملأ أكشاك الكتب. كان الظهور المنتظم للقصص القصيرة أو المجموعات القصصية القصيرة يجعل اسم الكاتب متداولًا بشكل منتظم في الوجدان الشعبي، والأمر الأكثر أهمية بالنسبة للكاتب، أنها تمثل مصدرًا سريعًا للحصول على المال. ظهرت أسماء الكثير من كتّاب الروايات البوليسية بشكل منتظم على صفحات عدد كبير من المجلات المنشورة في ذلك الوقت - كونان دويل، شيرلوك هولمز، بايلي والسيد فورتشن، هورنانج ورافيلز - وفي الكثير من الحالات، يُعتبر ظهور قصة جديدة من تأليف أحد الأدباء المفضلين مساعدًا كبيرًا على زيادة مبيعاتها، مع ظهور اسم الكاتب وعنوان القصة على أغلفة المجلات. خلال هذا العقد من المسيرة الأدبية لـ كريستي، قامت بكتابة عدد هائل من القصص القصيرة لهذا السوق؛ وظهرت أغلب هذه القصص القصيرة فيما بعد في مجموعات قصصية نُشرت على مدار العشرين

عامًا التالية. لذا فإن مغامرات تومي وتوبينس استمرت على الفور بعد ظهور روايتهما الأولى في صورة قصص قصيرة.

نُشرت الرواية الثانية من بطولة تومي وتوبينس تحت عنوان *شركاء في الجريمة* عام ١٩٢٩، حيث ظهرا فيها زوجين سعيدين قاما - بناءً على طلب السيد كارتر الذي ظهر في رواية *العدو الخفي* - بإنشاء وكالة تحقيقات خاصة أطلقا عليها، بالتواضع المعروف عنهما، محققي بلانت اللامعين. في حقيقة الأمر، كانت الوكالة غطاءً لإفشاء بعض المعلومات السرية المهمة التي تقول إن صاحب الوكالة السابق، السيد تيودور بلانت، كان جاسوسًا. بعد أن تمكن كل من تومي وتوبينس من الاستحواذ على عمل بلانت، أصبح من الضروري أن يظلا حذرين وأن يخبرا السيد كارتر بكل ما يجري. على الرغم من أن هذه الحبكة الثانوية تظهر في أحداث الرواية من وقت لآخر في القضايا الفردية التي تكون الكتاب، فإنها لم تكن من الأسباب المهمة أو المقنعة التي جعلتهما يقومان بمغامراتهما. كانت أغلب المغامرات التي قام بها الزوجان مشوقة وممتعة، ولكن بالإضافة إلى ذلك، كانا يقومان بحل خيوط الألغاز على أنهما محققان شهيران (في الروايات التالية).

على الرغم من أن السلسلة قد نُشرت في المملكة المتحدة في شهر سبتمبر من عام ١٩٢٩، فإن القصص المستقلة كانت قد ظهرت قبل ذلك بست سنوات، خاصة في مجلة *ذا سكيتش*، المجلة ذاتها التي قام فيها هيركيول بوارو بإطلالته في القصص القصيرة. بخلاف قصة *The Unbreakable Alibi*، التي ظهرت عام ١٩٢٨، ظهرت جميع القصص الأخرى ما بين عام ١٩٢٣ و١٩٢٤، أي في العام التالي لظهور رواية *العدو الخفي*. تطلب جمع هذه القصص بعض أعمال إعادة الكتابة وإعادة الترتيب قبل إصدار الكتاب. لذا، على سبيل المثال، في الفصل الأول من الرواية، تقول توبينس: "تزوج تومي من توبينس... وبعد ست سنوات ما زالا يعيشان معًا"، يظهر هذا الإطار الزمني عند نشر الكتاب، ولكنه لا يظهر في القصة القصيرة الأصلية.

إن السمة الغالبة على رواية *شركاء في الجريمة*، هي انتشار عناصر السخرية والمعارضة الأدبية. عزز تومي هذه الفكرة، حيث كان يحاول أن يحاكي أبطال الروايات البوليسية العظام، وكان يحتفظ بمجموعة من الروايات البوليسية

وقرر أن يحل كل قضية بنفس أسلوب أحد أبطاله المفضلين. لذا فإن قضية *The Affair of the Pink Pearl* قد حُلت بطريقة شخصية الطبيب ثورندايك، التي ابتكرها آر. أوستن فريمان رائد مجال التحقيقات العلمية. رواية *The Case of the Missing Lady*، واحدة من الروايات الشبيهة بأسلوب شيرلوك هولمز وهناك أكثر من رواية اشترك فيها شرطي شارع بايكر تدور أحداثها حول البحث عن شخص مفقود. عند قراءة رواية *The Case of the Missing Lady*، لن تجدها تشبه إلى حد كبير رواية *The Disappearance of Lady Frances Carfax*، من روايات هولمز، حيث إنها أخف كثيرًا من حيث الأحداث، ولكنها تحتوي على لغز أكثر صعوبة. نسي القراء الجدد بعض شخصيات المعارضات الأدبية، ولكن أغلب معجبي الروايات البوليسية سيتذكرون إدجار والاس الذي ظهر في رواية *The Crackler*، ورجل الدين براون من رواية *The Man in the Mist* (أحد أدق المعارضات الأدبية في الرواية)، وروجر شيرينجهام من ابتكار أنتوني بيركيلي في رواية *The Clergyman's Daughter*، والمحقق فرينش الذي لا يمكن نسيانه، وويلز كروفتس الذي ابتكره الكاتب الأيرلندي فريمان في رواية *The Unbreakable Alibi*، وشخصية الرجل العجوز الجالس في أحد الأركان، والتي ابتكرتها البارونة أوركزي، والذي كان أسلوب عمله يقوم على دراسة الجرائم وحل خيوطها دون أن يغادر مقهى ABC الذي يملكه، والذي ظهر بشكل ماهر في رواية *The Sunningdale Mystery*. في تهجم ذاتي ماهر، كانت القصة الأخيرة من المجموعة القصصية التي تميزت بتشابهها مع أسلوب هيركيول بوارو العظيم في رواية *The Man Who Was No. 16*، والتي تعتبر إشارة ماكرة لرواية *العظماء الأربعة*.

نُشرت رواية *إن أو إم* عام ١٩٤١، وتعتبر تغيرًا كبيرًا في وقع أحداث روايات كريستي وروايات تومي وتوبينس. وقعت أحداث القصة أثناء الحرب العالمية الثانية وبدأت كتابتها خلال الأيام الأولى للحرب. كانت كريستي تكتب هذه الرواية بالتبادل مع روايتها البوليسية من نوعية الألغاز التقليدية تحت عنوان *جثة في المكتبة*، حيث تقول في سيرتها الذاتية: "قررت أن أؤلف روايتين في الوقت ذاته، حيث إن أحد مصاعب تأليف الروايات أنك تشعر فجأة بأن أفكارك

أصبحت قديمة الطراز". يبدو أن تأليف روايتين متناقضتين تمامًا قد ساعد على تجدد كل منها.

أصبحت حالة عائلة بيريسفورد سيئة، حيث دخل ابناهما الجيش للمشاركة في الحرب وانقطعت وسائل الاتصال بينهم. عندما طُلب من تومي (تومي وحده) أن يقوم بمهمة بناءً على طلب السيد جرانت، أحد حلفاء صديقهما القديم السيد كارتر، وافق تومي، ولكن اكتشفت توبينس، التي لم تنبهر كثيرًا بالمهمة، الأمر. وعندما وصل تومي إلى وجهته التي من المفترض أنها سرية، وجد توبينس قد استقرت هناك منتحلة شخصية جديدة تمامًا. كان المكان، الذي تدور فيه أحداث الرواية، فندقًا متاخمًا للبحر، من الأماكن المعتادة في روايات أجاثا كريستي، وعلى الرغم من التواجد الكثيف للجواسيس والعملاء السريين والشفرات والمخربين السريين في الرواية، فإن السؤال المطروح هنا ليس من ارتكب الجريمة، بل "من هو العقل المخطط لأعمال الجاسوسية"، وعلى الرغم من هذا، تمكنت كريستي بتحديثها الخلاق أن تُدرج جريمة قتل غامضة في أحداث الرواية، بل وأن تقدم إجابات ماهرة وغير متوقعة لكل مشكلة.

بعد فترة توقف دامت خمسة وعشرين عامًا، صدرت رواية الزوجين التالية تحت عنوان *By Pricking of My Thumbs*. عندما نلتقي بـ تومي وتوبينس في الفصل الافتتاحي من الرواية، نجدهما زوجين في منتصف العمر يتجاذبان أطراف الحديث في أثناء تناول وجبة الإفطار. ربما لأن كريستي كانت في وقت كتابة الرواية في نهاية العقد الثامن من عمرها، فقد كانت أغلب شخصيات الكتاب في مثل هذا العمر. دفع الخطاب الذي وصل إلى تومي من عمته الزوجين إلى الذهاب لزيارتها في دار المسنين التي تقيم بها، وهناك تلتقي توبينس بالسيدة لانكستر العجوز التي تتحدث معها عن بعض ما تتذكره عن حالات الوفاة الغريبة والمشئومة التي لحقت ببعض نزلاء الدار. بعد ذلك، في أثناء زيارتهما التالية للدار، وجدا أن السيدة لانكستر لم تعد نزيلة في تلك الدار، حيث قام بعض أقربائها الغامضون بنقلها، فزادت شكوكهما في الأمر وقررت توبينس أن تبدأ التحقيق في الأمر.

تحتوي المحادثة مع السيدة لانكستر أيضًا على تسلسل غير عادي، التسلسل الذي تكرر بالشكل ذاته تقريبًا في روايتين أخريين لـ كريستي لا تربطهما أية صلة. في الفصل الثاني من رواية *By Pricking of My Thumbs*، وفي الفصل العاشر من رواية *Sleeping Murder* التي نُشرت في عام ١٩٧٦، وفي الفصل الرابع من رواية *The Pale Horse* التي نُشرت في عام ١٩٦١، نجد سيدة عجوزًا ذات شعر أشيب ترتشف اللبن من كوب وتتجاذب أطراف الحديث عن وجود جثة طفل مقتول خلف المدفأة. يمكننا أن نجد عبارة "هل هو كان طفلك المسكين؟" ظاهرة في الأمثلة الثلاثة، ولكنها لا تتصل بالحبكة الروائية إلا في رواية *By Pricking of My Thumbs*. في الواقع كانت عبارة "هل كان طفلك المسكين؟" هي عنوان الفصل، أما في الحالتين الأخريين، فتقع أحداث المشهد في مصحة نفسية بدلاً من دار مسنين، ولجعل المحادثة أكثر غرابة، ذُكرت في كل حالة أيضًا أوقات مختلفة من اليوم (مختلفة في كل حالة عن الأخرى). لم تفسر كريستي أبدًا لغز استعانتها بهذا المشهد في ثلاث روايات غير متصلة (رواية من سلسلة الآنسة ماربل، ورواية من سلسلة تومي وتوبينس ورواية مستقلة بذاتها). قد نفترض أن تلك المحادثة، أو حدثًا شبيهًا بها، قد حدثت بالفعل لـ أجاثا كريستي، أو قُصت عليها، مما خلف لديها انطباعًا بأنه يجب أن تدرجه في رواياتها.

مثلها مثل الكثير من روايات كريستي في سنواتها الأخيرة، كانت أغلب أحداث رواية *By Pricking of My Thumbs* مكررة، وعلى الرغم من المشاهد الافتتاحية والختامية القوية، فقد نفترض أن الإهمال في تحريرها قد ساعد على الوصول إلى تلك النتيجة. على الرغم من هذا، فإن الإهداء في مقدمة الرواية الذي يقول: "إلى الكثير من القراء، داخل هذا البلد وخارجه، الذين يطلبون تومي وتوبينس"، ذكرنا بأنه من الجيد أن نقابل عائلة بيريسفورد مرة أخرى بعد غياب دام حوالي ربع قرن، ولكن "دون الكثير من الحماس".

لم تكن رواية *Postern of Fate* هي الرواية الأخيرة من سلسلة تومي وتوبينس فحسب، بل كانت الرواية الأخيرة التي ألفتها أجاثا كريستي على الإطلاق. كانت كريستي في وقت تأليف تلك الرواية قد بلغت الثالثة والثمانين من عمرها وكانت حالتها الصحية سيئة، ويُقال إن ناشرها لم يطلب منها رواية

أخرى، ولكن كانت أجاثا تكتب رواية في بداية كل عام على مدار خمسين عامًا وثمانين قصة ورواية، لذا كان من الضروري أن تبدأ في كتابة روايتها التالية بمجرد ظهور الرواية السابقة في الأسواق. في حقيقة الأمر، كانت مفكرتها تحتوي على النقاط الرئيسية لكتابها الذي كان سيلي رواية *Postern of Fate*، ولكن مع الأسف، لم يكن مقدرًا له أن يرى النور.

بدأت رواية *Postern of Fate* ، مثلها مثل الكثير من روايات كريستي في أيامها الأخيرة، بالتفاؤل: انتقل تومي وتوبينس إلى منزل جديد حيث وجدت توبينس، عندما كانت ترتب الكتب على أرفف المكتبة، رسالة مشفرة مخبأة في كتاب *جزيرة الكنز* للكاتب العظيم روبرت لويس ستيفنسون، وكانت الرسالة تتحدث عن وقوع جريمة قتل في ذلك المنزل منذ سنوات طويلة ماضية. "لم تمت ماري جوردان ميتة طبيعية... كان أحدنا من قتلها". كانت الأحداث تدور في القرى كعادة روايات كريستي جميعها، ولكن كانت الافتتاحية الآسرة هي السمة المميزة لها. وبغض النظر عن جريمة القتل التي حدثت فيما بعد ومحاولة قتل توبينس نفسها، فإن الكتاب في مجمله عبارة عن سلسلة من الحوارات المليئة بالحنين للماضي. فقد كانت الرواية، في الحقيقة، رحلة للماضي اصطحبت فيها الكاتبة قراءها. تظهر الكثير من عناصر طفولة كريستي السعيدة في منزل عائلتها في آشفيلد، في صورة مستترة إلى حدٍّ ما - الكتب التي تقرؤها، وحصانها الأعرج، وشجرة الأروكاريا في حديقة المنزل، والمشتل - ولكن لا يظهر تقسيم الأراضي المحيطة بالمنزل في تلك الفترة بوضوح. تمكنًا أخيرًا من لقاء أحفاد عائلة بيريسفورد، ولكن كان الترتيب الزمني للأجيال الثلاثة غير دقيق. أشار التدهور السريع في صحة أجاثا كريستي إلى أنه في الأعوام التالية لنشر رواية *Postern of Fate* كانت الروايات والقصص التي تم نشرها قد كُتبت في أعوام سابقة عندما كانت كريستي في أوجها - *Poirot's Early Case* في عام ١٩٧٤، و*Curtain: Poirot's Last Case* في عام ١٩٧٥، *الجريمة النائمة* في عام ١٩٧٦ - ونُشرت في ذلك الوقت من أجل إسعاد قرائها في جميع أنحاء العالم.

على الرغم من أن اسم أجاثا كريستي قد ارتبط بشكل معقد بالروايات البوليسية، فإن رواية *العدو الخفي*، التي تعتبر في الكثير من أوجهها قصة

استثنائية، هي الرواية الأولى التي تتم تهيئتها لتُعرض على شاشة السينما، ففي عام ١٩٢٨، عُرض فيلم صامت ألماني الجنسية مقتبس عنها. من غير المرجح أن تكون أجاثا كريستي قد شاهدت هذا الفيلم (أو حتى سمعت به) حيث إنه قد ظهرت بعض من نسخه خلال الأعوام العشرين الأخيرة. على الرغم من أن الفيلم ألماني فإن من قام ببطولته ممثلة إنجليزية وممثل إيطالي، وهما إيف فجراي وكارلو ألديني، حيث لعبا دوري المحققين الجريئين، وكان الفيلم، على الرغم من القيود الواضحة، أفضل مما قد تتخيل. تتبع الفيلم في أغلب أحداثه الحبكة الروائية للكتاب، ولكن في نهاية أحداث الفيلم تصبح العلاقة بين الشخصيتين أكثر فتورًا. ولكن يظل هذا الفيلم، كمثال على الاهتمام العالمي بأعمال كريستي، جزءًا رائعًا من تاريخ السينما.

بعد هذا الفيلم، ظلت سلسلة تومي وتوبينس خامدة لسنوات طويلة حتى اقتبس التليفزيون البريطاني مجموعة القصص القصيرة *شركاء في الجريمة* عام ١٩٨٣، كما قدمت في مقدمة المسلسل التليفزيوني فيلمًا تليفزيونيًّا مقتبسًا من رواية *العدو الخفي* مدته ساعتان. قام ببطولة هذا الاقتباس الغني والمطابق للرواية ممثلون عظام مثل جايمس وارويك وفرانسيسكا أنيس، كما أدى جورج بايكر شخصية السيد ويتنجتون. حقق هذا الممثل فيما بعد شهرة واسعة عندما أدى دور المحقق ويكسفورد الذي ابتكرته روث ريندل، ولكنه أدى قبل هذا دور المحقق آلين من ابتكار الكاتب ناجيو مارش، كما ظهر في نسخة فيلم *لغز فندق بيرترام* عام ١٩٨٧ التي قام ببطولتها جوان هيكسون، وكان أول من أدى دور نيفيل سترينج في الإنتاج الأول لمسرحية *Towards Zero* عام ١٩٥٦ في ويست إند. شارك في بطولة الفيلم أيضًا الممثلة أونور بلاكمان في دور ريتا فيندرماير الشريرة الفاتنة، وأليك ماكوان في دور بييل إدجرتون الأنيق. اقتبس المسلسل التليفزيوني، المكون من عشر حلقات، الذي تلا عرض الفيلم، تحت عنوان *Agatha Christie's Parnters in Crime* أغلب قصص المجموعة القصصية دون أي تغيير، ولكن، في أغلب الأحيان تمت إزالة، العناصر التي تشير إلى المعارضات الأدبية. القصص التي لم يتم اقتباسها في المسلسل هي:

The Adventure of the Sinister Stranger، و *Blindman's Buff*، و *The Man Who Was No. 16.* وقد تم عرض المسلسل على التليفزيون البريطاني في الفترة ما بين عامي ١٩٨٣ و١٩٨٤.

في حين اكتسب المسلسل التليفزيوني شهرة لا بأس بها بين قراء أجاثا كريستي، فإن أغلبهم لم يكن يدرك وجود مسلسل إذاعي من إنتاج هيئة الإذاعة البريطانية مقتبس من رواية *شركاء في الجريمة*، والذي تمت إذاعته في الفترة ما بين شهري أبريل ويوليو من عام ١٩٥٣. قام ببطولة هذا المسلسل الإذاعي ريتشارد أتينبورو وزوجته الحقيقية شيلا سيم، اللذان ظهرا أيضًا في مسرحية كريستي *مصيدة الفئران* التي تم عرضها في ويست إند. على الرغم من عدم معرفتنا بوجود أية نسخة من هذا المسلسل حتى الآن، فإن التفاصيل التي توافرت لنا تشير إلى اقتباس جميع قصص تلك المجموعة القصصية، مع إدخال بعض التغييرات على عناوينها.

عمومًا، لم يكن إنتاج كريستي من أعمال سلسلة تومي وتوبينس بنفس قدر غزارة سلسلتي ماربل وبوارو. لم تكن قضايا عائلة بيريسفورد تحتوي على الحبكة الروائية المعقدة أو خفة اليد المحيرة أو في بعض الأحيان حل اللغز في نهايتها، الأمور التي ميزت أدب كريستي البوليسي. أشك في أن أيًا من هذه الكتب الخمسة كان سيظل متواجدًا حتى الآن إلا إذا كانت من سلسلة البلجيكي الشهير ذي الشعر الأشيب أو العجوز التي تسكن بلدة سانت ماري ميد. ولكن كما يقترح عنوان رواية الزوجين، *العدو الخفي*، فإن مغامراتهما لا يجب أن تؤخذ على محمل الجد، ولكن يجب الاستمتاع بها كما هي - بعض الحكايات الخفيفة. كما كتبت كريستي في الإهداء في مقدمة الرواية: "إلى جميع الذين يعيشون حياة رتيبة، على أمل أن يجربوا متع المغامرة ومخاطرها".

تمهيد

كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر من يوم السابع من شهر مايو عام ١٩١٥، عندما ضُربت السفينة *لوزيتانيا* بطوربيدين متتاليين، وسرعان ما بدأت في الغرق، في الوقت الذي كان يتم فيه إطلاق زوارق النجاة بأسرع ما يمكن. كانت النساء والأطفال مصطفين في طابور منتظرين دورهم للهبوط إلى زوارق النجاة. كان بعضهن ما زلن ملتصقات بيأس بأزواجهن وآبائهن، في حين ضمت أخريات أطفالهن بشدة إلى صدورهن. كانت هناك فتاة تقف وحيدة بعيدة عن الباقين. كانت شابة صغيرة لا يزيد عمرها على ثمانية عشر عامًا. لم تكن تبدو عليها أمارات الخوف، وكانت عيناها السوداوان الحازمتان تنظران للأمام.

"أستميحك عذرًا".

أخرجها صوت رجل بجوارها من شرودها وجعلها تلتفت نحوه. كانت قد رأت الرجل الذي يتحدث إليها أكثر من مرة بين مسافري الدرجة الأولى. كانت هناك لمحة من الغموض تكتنفه، الأمر الذي أثار مخيلتها. لم يكن الرجل يتحدث إلى أي شخص كان، وإذا حاول أي شخص محادثته، كان الرجل يصده سريعًا منذ البداية. كما أنه كان دائمًا ما ينظر خلفه بعصبية نظرات مريبة خاطفة.

لاحظت في هذا الوقت أنه قلق للغاية، حيث كانت تظهر قطرات العرق على حاجبيه. كان من الجلي أن الخوف قد تملكه تمامًا، إلا أنه لم يبدأ حديثه معها بطريقة الرجل الذي يهاب الموت.

تلاقت عيناها السوداوان بعينيه في تساؤل قائلة: "ما الأمر؟".

وقف الرجل في مكانه تبدو عليه أمارات الحيرة اليائسة وغمغم قائلاً "يجب هذا، نعم - هذا هو الحل الوحيد"، ثم صاح بصوت عالٍ مفاجئ قائلاً "هل أنت أمريكية؟".

قالت الفتاة: "نعم".

قال الرجل: "هل أنت وطنية؟".

احمر وجه الفتاة في غضب وقالت: "لا أعتقد أنه يحق لك أن تطرح عليَّ مثل هذا السؤال! بالطبع أنا وطنية".

قال الرجل: "لا تشعري بالإهانة. لن تشعري بها إذا ما أدركت كم الأمور التي على المحك، ولكن يجب أن أثق في شخص ما - ويجب أن يكون امرأة".

قالت الفتاة: "لماذا؟".

نظر الرجل حوله وخفض صوته قائلاً: "لأن النساء والأطفال يهبطون إلى زوارق النجاة أولاً. إني أحمل بعض الوثائق - وثائق مهمة للغاية من شأنها أن تفيد قوات الحلفاء بشكل كبير في الحرب. هل تفهمين ما أقول؟ يجب *إنقاذ* تلك الوثائق، وقد تكون فرص إنقاذها معك أكبر من فرص إنقاذها معي. هل ستأخذينها؟".

شبكت الفتاة يديها.

فقال الرجل: "مهلاً - يجب أن أحذرك من أمر ما. قد يكون هناك خطر - إذا كان هناك من يتتبعني. أعتقد أنه لا يوجد من يتتبعني، ولكن الحذر واجب. إذا كان الأمر كذلك، فقد تتعرضين للخطر. هل تحتمل أعصابك أن تقومي بمثل هذه المهمة؟".

ابتسمت الفتاة وقالت: "سأقوم بالمهمة على الوجه الأكمل، كما أنني مسرورة لأنك اخترتني. ماذا سأفعل بتلك الوثائق بعد ذلك؟".

قال الرجل: "تابعي الصحف. سأنشر إعلانًا في العمود الشخصي بصحيفة *التايمز* يبدأ بكلمة "رفيق السفينة"، بعد مرور ثلاثة أيام، إذا لم تجدي الإعلان فاعلمي أن أمري قد انتهى، وخذي الوثائق إلى السفارة الأمريكية وسلميها إلى السفير يدًا بيد. هل هذا واضح؟".

قالت الفتاة: "واضح تمامًا".

أمسك الرجل بيدها وقال: "استعدي إذن - أستودعك الله"، ثم قال بصوت عالٍ: "إلى اللقاء، وحظًا سعيدًا".

أغلقت الفتاة قبضتها على لفافة من القماش المشمع كان يمسكها الرجل في يده.

نادى طاقم سفينة *لويزيانا* على بعض الأسماء من قائمة الركاب ليكوّنوا صفًا آخر على ميمنة السفينة. استجابت الفتاة إلى هذا الأمر السريع، وذهبت لتأخذ مكانها في زورق الإنقاذ.

الأول

شركة شباب المغامرين المحدودة

"تومي صديقي القديم".

"توبينس، صديقتي القديمة".

رحب الشابان بعضهما بالآخر بحرارة؛ حيث أغلقا بشكل مؤقت مخرج محطة شارع دوفر لقطار الأنفاق في أثناء ذلك. لم تكن كلمة "قديم" تعبر بحق عن حالهما، حيث إن مجموع عمريهما معًا لم يكن ليتجاوز الخامسة والأربعين.

قال الشاب: "لم أرك منذ زمن طويل. أين كنتِ؟ تعالي معي لنتناول كعكة معًا. لقد بدأ الناس ينزعجون منا هنا - إننا نعرقل حركة السير في الممر الرئيسي. دعينا نخرج من هنا".

وافقته الفتاة وبدآ في السير في شارع دوفر نحو شارع بيكاديللي.

قال تومي: "والآن، إلى أين نذهب؟".

لم تخف نبرة القلق الخفيفة التي تخللت صوته على أذني الآنسة برودنس كاولي الماهرة، التي يطلق عليها أصدقاؤها المقربون اسم توبينس لسبب لا يعلمه أحد. لذا أسرعت قائلة: "تومي، إنك مفلس".

قال تومي بشكل غير مقنع: "على الإطلاق، أنا غارق حتى أذنيّ في الأموال"

قالت توبينس بحدة: "لطالما كنت غير ماهر في الكذب، على الرغم من أنك
تمكنت من قبل من إقناع الممرضة جرينبانك بأن الطبيب قد وصف لك الشراب
كمنشط، ولكنه نسي أن يكتب هذا في جدول العقاقير. هل تذكر هذا؟".

أطلق تومي ضحكة خفيفة وقال: "لقد فعلت هذا بالفعل. هل رأيت كـ
كانت تلك السيدة العجوز غاضبة عندما اكتشفت الأمر؟ لكنها لم تكن سيئة
على الإطلاق - الأم جرينبانك العزيزة. كان مستشفى قديمًا جيدًا - أعتقد أنه
خرجت من الخدمة بالجيش مثل كل شيء آخر، أليس كذلك؟".

تنهدت توبينس.

وقالت: "نعم، هل سُرحت أنت أيضًا؟".

أومأ تومي برأسه موافقًا.

وقال: "منذ شهرين".

لمحت توبينس قائلة: "هل حصلت على مكافأة؟".

قال تومي: "أنفقتها كلها".

قالت توبينس: "تومي!".

قال تومي: "لا يا عزيزتي، لم أنفقها على الملذات، لم يحالفني الحظ، ولكن
المعيشة أصبحت باهظة - إن الحياة العادية أو الحياة في الحدائق هذه الأيام
أؤكد لك، إذا لم تكوني تعرفين ـــــ"

قاطعته توبينس قائلة: "فتاي العزيز، لا يوجد ما لا أعرفه عن تكاليف
المعيشة. لقد وصلنا إلى مقهى ليونز، وسيدفع كل منا حسابه لنفسه. حسنًا
إذن"، وصعدت توبينس الدرج قبل تومي.

كان المقهى مكتظًا بالزبائن، وجالا ببصرهما في المكان محاولين إيجاد
طاولة خالية وهما يتجاذبان أطراف الحديث.

قالت توبينس: "ثم - أتعلم، جلست وبكت عندما أخبرتها بأنها لن تحصل
على الشقة في النهاية. لقد كانت صفقة جيدة، مثل تلك التي أحضرها معه مابل
لويس من باريس ـــــ"

قال تومي: "غريبة تلك الأحاديث التي يسمعها المرء بدون قصد. لقد مررت
بشخصين في الشارع اليوم، وكانا يتحدثان عن امرأة تُدعى جاين فين. هل
سمعت مثل هذا الاسم من قبل؟".

ولكن في اللحظة ذاتها نهضت سيدتان مسنتان وجمعتا متعلقاتهما، فقامت
توبينس على الفور بالجلوس على أحد المقاعد الفارغة.

طلب تومي بعض الشاي والكعك، وطلبت توبينس بعض الشاي والخبز
المغطى بالزبد.

تابعت توبينس حديثها بحدة قائلة: "أرجو أن يأتي الشاي في إبريقين
منفصلين".

جلس تومي في المعقد المواجه لـ توبينس، وكشف رأسه الأصلع عن بعض
الشعر الأحمر المصفف للخلف بعناية. كانت ملامح وجهه قبيحة بشكل غير
منفر - وجه لا يدل على كونه رجلًا نبيلًا أو رياضيًا. كانت بذلته البنية أنيقة،
ولكن كان هناك عيب في خياطتها بالقرب من نطاق سرواله.

كانا يبدوان، وهما جالسان في المقهى، يشبهان أزواج العصر الحديث. لم تكن
توبينس بارعة الجمال، ولكن يمكنك أن ترى قوة شخصيتها وفتنتها باديتين من
خطوط وجهها الصغير الجميلة، مع ذقنها المدبب وعينيها الواسعتين اللتين
تطلان من تحت حاجبين أسودين مستقيمين. كانت ترتدي قبعة صغيرة خضراء
لامعة فوق شعرها الأسود القصير، وكشفت تنورتها القصيرة للغاية والبالية عن
كاحلين رائعين. كان مظهرها بأكمله يمثل محاولة جريئة لتبدو ذكية.

وصل الشاي أخيرًا، فنهضت توبينس من مجلسها وصبته.

قال تومي وهو يأخذ قضمة كبيرة من الكعكة: "والآن، دعينا نقص على بعضنا
الآخر ما حدث في الفترة الأخيرة. أتذكرين، لم أرك منذ كنت في المستشفى عام
١٩١٦".

وضعت توبينس بعض الزبد على الخبز وقالت: "حسنًا. السيرة الذات
المختصرة للآنسة برودينس كاولي، الابنة الخامسة لرجل الدين كاولي م
مدينة ليتل ميسندل بمقاطعة سافولك. تركت الآنسة كاولي رغد عيشه
(وشقاءه) في بيت عائلتها منذ بداية الحرب وانتقلت للعيش في لندن، حيث بدأ
العمل في مستشفى الضباط. في الشهر الأول من العمل: قمت بغسل ستمائ
وثمانية وأربعين طبقًا. "في الشهر الثالث: ترقيت لأعمل في تقشير البطاطس
في الشهر الخامس: ترقيت لأصعد للطابق العلوي لأعمل ممرضة في عناب
المرضى بدلو وممسحة. في الشهر السادس: ترقيت لأعمل في تقديم الطعا
للمرضى. في الشهر السابع: أهلني مظهري الجيد وطريقة تعاملي الجيدة لأكو
ممرضة بديلة. في الشهر الثامن: انحدار بسيط في مسيرتي المهنية. لقد أكل
الممرضة بوند بيض الممرضة ويستهيفن. يا له من حدث جلل! وتم إلقاء اللو
بأكمله على ممرضات العنابر، حيث إن الإهمال في مثل هذه الأمور المهمة لا
يمكن التهاون معها. لذا تسلمت من جديد الدلو والممسحة. في الشهر التاسع
ترقيت لأعمال كنس عنابر المرضى، عندما قابلت أحد أصدقاء طفولتي، وهو
الملازم توماس بيريسفورد (انحن يا تومي!)، الذي لم أكن قد رأيته منذ خمس
سنوات طوال، وكان اللقاء مؤثرًا. الشهر العاشر: وبختني رئيسة الممرضات على
ذهابي للسينما مع أحد المرضى: المذكور سابقًا، الملازم توماس بيريسفورد. في
الشهرين الحادي عشر والثاني عشر: تم استكمال مهام تقديم الطعام للمرضى
بنجاح تام. في نهاية العام، تركت العمل في المستشفى بانتصار باهر. بعد ذلك
بدأت الآنسة كاولي الموهوبة في قيادة سيارة توصيل تجارية بنجاح، ثم شاحنة
كبيرة، ثم السائقة الخاصة لأحد اللواءات. العمل الأخير كان الأفضل، فقد كان
اللواء صغيرًا في السن إلى حدٍ ما".

قال تومي: "يا له من أمر فظيع. إن قيادة سيارة من أجل توصيل هؤلاء الضباط الكبار من وزارة الحربية إلى قصر سافوي والعودة مرة أخرى إلى وزارة الحربية، أمر كريه للغاية".

اعترفت توبينس قائلة: "لقد نسيت اسم هذا اللواء، ولكن هذا العمل كان هو أفضل ما شغلته في مسيرتي المهنية. بعد ذلك، بدأت العمل في أحد المكاتب

الحكومية. كنا نقوم بالكثير من حفلات الشاي الممتعة. كنت أنوي أن أعمل في الخدمات الزراعية، وساعية بريد وقاطعة التذاكر في الحافلات، لأختتم مسيرتي الوطنية. ولقد تم توقيع الهدنة. كنت قد تعلقت بالمكتب مثل البطلينوس طوال شهور عديدة، ولكن، للأسف، تم تسريحي في النهاية من العمل، ومنذ ذلك الوقت وأنا أبحث عن عمل، والآن - دورك".

قال تومي بندم: "لم أترق كثيرًا خلال مسيرتي المهنية، وكذلك لم أتنقل كثيرًا بين الوظائف. عدت إلى فرنسا مرة أخرى كما تعلمين، ثم أرسلوني إلى ميزوبوتاميا حيث أصبت للمرة الثانية ودخلت المستشفى هناك. بعد ذلك، ظللت [illegible] في مصر حتى تم توقيع الهدنة، وأضعت الكثير من الوقت هناك عبثًا، وكما قلت لك، تم تسريحي في النهاية. ظللت طوال الأشهر العشرة الأخيرة الطويلة أسعى للحصول على عمل. لا توجد أية وظائف! وحتى إن كانت هناك أية وظائف شاغرة، فإنهم لن يعطوني إياها. ما مهاراتي؟ ما الذي أعرفه عن التجارة؟ لا شيء".

أومأت توبينس برأسها في عبوس وقالت: "ماذا عن المستعمرات؟".

هز تومي رأسه نفيًا وقال: "أنا لا أحب المستعمرات - وأثق بأنهم لن يحبوني هناك".

قالت توبينس: "هل هناك أحد ثري من أقربائك؟".

هز تومي رأسه مرة أخرى.

قالت توبينس: "ولا حتى واحدة من عمات والديك؟".

قال تومي: "أحد أعمامي يمتلك بعض المال، ولكنه ليس بالشخص الجيد".

قالت توبينس: "لماذا؟".

قال تومي: "لقد رغب في أن يكفلني من قبل".

قالت توبينس ببطء: "أعتقد أني سمعت هذه القصة من قبل، وقد رفضت لأن والدتك ــــ"

احمـر وجـه تومي وقال: "نعم، كان هذا سيصبح قسوة كبيرة مني عليها، ف
تعلمين، كنـت كل مـا تملك. كان عمـي يكرهها - كان يرغب فـي أن يحرمها من
لقد كان مملوءًا بالحقد".

قالت توبينس بلطف: "لقد توفيت والدتك، أليس كذلك؟".

أومـأ تومي برأسـه موافقًا، وزاغت عينا توبينس الرماديتـان وقالت: "لطال
كنت رجلاً طيبًا يا تومي. لطالما عرفت هذا".

قال تومي بسرعة: "هراء، حسنًا، هذا هو ما آلت إليه حالي. لقد أصبحت ع
أعتاب الإحباط".

قالـت توبينـس: "وأنـا كذلـك. لقد بحثت عن عمـل لأطول فتـرة ممكنة. ل
درت علـى جميـع المحال والشركات. وتقدمت بطلبـات للوظائف المعلن عنها
الصحـف. لقد جربـت جميع الطرق. ووقعت ضحية للاحتيـال والنشل والسر
ولكن لم يفلح مسعاي. ربما يجب أن أعود لمنزل عائلتي".

قال تومي: "هل ترغبين في هذا؟".

قالت توبينس: "لا أرغب في هذا بدون أدنى شك. بم ينفعنا أن نكون عاطفيين
إن أبـي رجـل طيب - وأنـا أحبه كثيرًا - ولكن لا يمكنك أن تتخيل مدى قلقه عل
إنـه لا يـزال يعتنـق أفكارًا من العصـر الفيكتوري التي تقـول إن التنانير القصير
والتدخيـن أمـور غير أخلاقية. لا يمكنك أن تتخيل كم القلق الذي أسببه له. ل
شعـر بكثير من الارتياح عندمـا بدأت الحرب وتم تجنيدي. هناك سبعة أشقاء
المنزل. إنه أمر فظيع أن تقوم بجميع أعمال المنزل واجتماعات الأمهات. لطال
كنـت أنـا الوحيدة المختلفة عن أشقائي. أنا لا أرغب في العودة إلى هناك، ولكن
تومي، ماذا يمكنني أن أفعل أكثر مما فعلت؟".

هـز تومي رأسه في حـزن، ثم خيم الصمت قليلاً حتى اندفعت توبينس قائلة
"المال، المال، المال! لا يمكنني أن أنفض المال عن فكري في الصباح والظهير
والمساء. يمكنني أن أقول إنه قد استحوذ على تفكيري تمامًا".

وافقها تومي قائلاً: "وأنا كذلك".

قالت توبينس: "لقـد فكرت في جميع طـرق الحصول على المـال، ولكني لم أجد سوى ثلاث طـرق فقط: أن ترثه أو أن تتزوج من شخص غني أو أن تكسبه. بالطبع، حذفت الطريقة الأولى من القائمة. لا يوجد من أقربائي كبار السن أي أحد غني، حيث إن جميع أقاربي يعملون خدمًا في منازل النبلاء. لطالما ساعدت السيدات المسنات في عبور الطرق، والتقطت للنبلاء المسنين ما يتساقط منهم في أثناء سيرهـم على أمـل أن يكـون أحدهم مليونيـرًا غريب الأطـوار، ولكن لم يسألني أي منهم حتى عن اسمي - والكثير منهم لم يقل لي حتى كلمة شكر".

ثم توقفت عـن الحديث لفترة قصيرة وتابعت حديثهـا قائلة: "لا شك في أن الزواج هـو أفضل فرصي. لقد عقـدت العزم على أن أتزوج من شخص غني عندما كنت صغيـرة. إن أيـة فتـاة ذكيـة ستفعل المثـل. أنا لسـت عاطفية كمـا تعلم"، ثم توقفت للحظة وأضافت بحدة: "ما الأمر؟ لا يمكنك أن تنعتني بالعاطفية".

وافقهـا تومـي بسرعة قائـلاً: "بالطبع لست عاطفية، لا يمكـن لأحد أن يفكر في العواطف في وجودك".

ردت عليـه توبينـس قائلـة: "لـم يكن ما قلته مهذبًـا، ولكني أعتقـد أنك تعنيه تمامًـا. حسنًـا، الأمر هو أنـي مستعدة وراغبة - ولكني لم أقابل أي رجل غني حتى الآن. إن جميع الشباب الذين قابلتهم حالتهم المادية مثل حالتي".

سألها تومي: "ماذا عن اللواء؟".

قالـت لـه توبينس: "أعتقد أنـه يمتلك متجـرًا للدراجات الهوائيـة في فترات السلم. لا، هذا هو ما في الأمر. يمكنك أنت أيضًا أن تتزوج من فتاة ثرية".

قال تومي: "أنا مثلك، لم أقابل أية فتاة ثرية".

قالـت توبينـس: "لا عليـك. يمكنـك دائمًا أن تقابـل واحدة. إذا مـا رأيت رجلاً يرتدي معطفًا من الفرو خارجًا من فندق ريتز، فإني لا أهرع نحوه قائلة: اسمع، أنت غني، وأنا أرغب في التعرف إليك".

قال تومي: "هل تقترحين أن أفعل المثل لأتعرف على فتاة غنية؟".

قالت توبينس: "لا تكن أحمق. يمكنك أن تدهس إصبع قدمها أو تلت[...] منديلها إذا ما سقط منها أو أمور من هذا القبيل. إذا ما أعتقدت أنك ترغب[...] التعرف عليها، فإنها ستشعر بالإطراء وستمكنك من هذا بطريقة أو بأخرى".

غمغم تومي قائلاً: "إنك تبالغين في سحري الرجولي".

تابعت توبينس قائلة: "من ناحية أخرى، من المرجح أن يفر المليونير ال[...] أرغب في الزواج منه بحياته! لا - إن الزواج محفوف بالمصاعب. يتبقى ل[...] كسب المال".

ذكرها تومي قائلاً: "لقد جربت وفشلت".

قالت توبينس: "لقد جربنا كل الطرق المعتادة، ولكن ماذا لو جربنا الط[...] غير المعتادة. تومي، دعنا نكن مغامرين".

رد عليها تومي مبتهجًا: "بالطبع، من أين سنبدأ؟".

قالت توبينس: "هذه هي المشكلة. إذا ما تمكنا من جعل الناس يعرفو[...] فربما يستأجروننا من أجل أن نرتكب جرائم بدلاً منهم".

علق تومي على ما قالته قائلاً: "أمر رائع، خاصة عندما تقوله ابنة ر[...] دين".

أوضحت توبينس الأمر قائلة: "سيكون الشعور بالذنب من نصيبهم - ول[...] من نصيبي. يجب أن تعترف بأن هناك فرقًا بين سرقة قلادة ماسية من أ[...] نفسك أو أن يتم استئجارك لسرقتها، أليس كذلك؟".

قال تومي: "لن يكون هناك فارق كبير إذا ما تم القبض عليك".

قالت توبينس: "ربما، ولكن لن يتم القبض عليَّ، أنا ماهرة للغاية".

قال تومي: "لطالما كان تواضعك هو عيبك الوحيد".

قالت توبينس: "لا تمزح. اسمع يا تومي، هل يجب أن - هل يجب علينا[...] نشترك في إنشاء شركة تجارية؟".

قال تومي: "أنكون شركاء في سرقة القلادات الماسية؟".

قالت توبينس: "لقد كان هذا مجرد مثال توضيحي. دعنا نقم - بما تطلق عليه إدارة الحسابات؟".

قال تومي: "لا أعلم، لم أعمل أبدًا في إدارة الحسابات".

قالت توبينس: "عملت أنا فيها - ولكني عادة ما يختلط عليَّ الأمر؛ حيث كنت أضع مُدخلات الدائن في خانات المدين، والعكس بالعكس - لذا طردوني من العمل. نعم، تذكرت - رأس مال مشترك. لقد تذكرتها فجأة كما لو كانت عبارة رومانسية ظهرت بين مجسمات عتيقة بالية. إن لهذه العبارة نكهة من عصر إليزابيث - إنها تجعل المرء يتذكر السفن الشراعية والعملات الذهبية. رأس مال مشترك".

قال تومي: "أي أنك تفكرين في إنشاء شركة تجارية نسميها شركة شباب المغامرين المحدودة، أليس كذلك؟ هل هذا ما تفكرين فيه يا توبينس؟".

قالت توبينس: "لا بأس من أن تسخر من الفكرة، ولكني أشعر بأنها ربما تكون ناجحة".

قال تومي: "كيف تعتقدين أنك ستتواصلين مع مَن سيقومون بتوظيفك في المستقبل؟".

ردت عليه توبينس على الفور: "عن طريق الإعلانات. هل معك قلم وورقة؟ إن الرجال عادة ما يحملون تلك الأشياء معهم، مثلما نحمل نحن دبابيس الشعر وأدوات التجميل".

أعطاها تومي مفكرة مهترئة خضراء اللون، وبدأت توبينس في الكتابة باهتمام، وهي تقول: "يمكننا أن نبدأ بكتابة: ضابط شاب، أصيب في الحرب مرتين ——"

قال تومي: "بالطبع لا".

قالت توبينس: "حسنًا، يا فتاي العزيز، ولكني أؤكد لك أن هذا الأمر قد يحرك مشاعر إحدى العوانس المسنات، وقد تقوم بكفالتك، وعندها لن تكون هناك حاجة لأن تكون مغامرًا شابًا على الإطلاق".

قال تومي: "لا أرغب في أن يكفلني أحد".

قالت توبينس: "نسيت أنك تعارض هذا الأمر. لقد كنت أمزح معك... الصحف مليئة عن آخرها بهذه الأمور. والآن، اسمع جيدًا - ماذا عن التا... مغامران شابان يعرضان خدماتهما للإيجار، على استعداد تام لفعل أي ش... والذهاب إلى أي مكان بمقابل مادي جيد (يجب علينا أن نؤكد هذا الأمر... البداية). ربما نضيف بعد ذلك: لا يمكننا رفض أي عرض منطقي - مثل إعلا... الشقق والأثاث".

قال تومي: "إنني أفكر في الوقت الحالي في شكل العرض غير المنط... الذي قد نحصل عليه".

قالت توبينس: "تومي، إنك عبقري. إن هذا سيكون أكثر أناقة. "لن نرفض... العروض غير المنطقية طالما كان المقابل المادي مناسبًا"، ما رأيك في هذا؟"

قال تومي: "لا يجب أن نذكر المقابل المادي مرة أخرى. إنه يبدو م... للغاية".

قالت توبينس: "لن يكون ملحًا أكثر من وضعنا الحالي، ولكن ربما كنت... حق، والآن، سأعيد قراءة الإعلان عليك مرة أخرى: "مغامران شابان يعرض... خدماتهما للإيجار، وعلى استعداد تام لفعل أي شيء، والذهاب إلى أي م... بمقابل مادي جيد. لن نرفض حتى العروض غير المنطقية". ما وقع كلمات... الإعلان عليك إذا ما كنت تقرؤه في الجريدة؟".

قال تومي: "سأعتقد أنه إما مزحة أو أن من كتبه مجنون".

قالت توبينس: "لن يقل جنونًا عن الإعلان الذي قرأته في الجريدة ص... اليوم، والذي بدأ بكلمة بيتونيا وموقع باسم الفتى الأفضل" - قطعت توبي... الورقة وسلمتها إلى تومي وقالت: "تفضل، جريدة *التايمز* على ما أعتقد. أتر... أن يكون سعر المربع الإعلاني وخلافه حوالي خمسة شلنات، وها هي حصتي... المبلغ - النصف".

كان تومي يمسك بالورقة وهو يفكر بعمق، وقد احمر وجهه بشدة.

وقال: "هل يجب علينا أن نجرب هذا الأمر بالفعل؟ هل علينا ذلك يا توبين... هل الأمر نابع من الشعور بالاستمتاع به؟".

قالت توبينس: "تومي، أنت سخيف، كنت أعلم أنك كذلك. دعنا نشرب نخب النجاح". قالتها وصبت بعض الشاي البارد في كلا الكوبين.

قالت توبينس: "من أجل رأس مالنا المشترك على أمل أن يزدهر".

قال تومي: "شركة شباب المغامرين المحدودة".

وضعا الكوبين على الطاولة وهما يضحكان، ونهضت توبينس وقالت: "عليّ أن أعود إلى جناحي الفاخر في الفندق".

رافقها تومي وهو يبتسم: "ربما حان الوقت لأعود إلى فندق الريتز. أين سيكون لقاؤنا التالي؟ ومتى؟".

قالت توبينس: "غدًا، الثانية عشرة ظهرًا، محطة قطار الأنفاق بشارع بيكاديللي، هل سيناسبك هذا؟".

قال تومي: "لا يوجد ما يشغلني".

قالت توبينس: "إلى اللقاء إذن".

قال تومي: "إلى اللقاء صديقتي العزيزة".

سار كل من الشابين في طريقه عكس الآخر. كان فندق توبينس يقع في المكان الذي كانت تُطلق عليه المؤسسات الخيرية بيلجرافيا الجنوبية، ولأسباب اقتصادية بحتة، لم تتمكن توبينس من ركوب الحافلة.

لم تكن قد وصلت إلى منتصف متنزه سانت جايمس عندما جعلها صوت رجل خلفها تجفل.

كان هذا الصوت يقول: "اعذريني، ولكن هل يمكن أن أتحدث معكِ قليلاً".

الثاني

عرض السيد ويتنجتو

استدارت توبينس بحدة لتواجه محدثها، ولكنها لم تستطع أن تنبس ببنت شف
حيث إن مظهر الرجل وطريقة تعامله لم تكن مطابقة لما افترضته توبينس
فترددت قليلاً، وكما لو كان الرجل قد قرأ افكارها، فتحدث بسرعة قائلاً:

"أؤكد لك أنني لم أقصد أن أقلل من احترامك".

صدقته توبينس. وعلى الرغم من أنها لم تعجب بالرجل أو تثق به غريزيًا
فإنها كانت تميل إلى أن تبرئه من الدافع الذي ظنت أنه يقصده. كان الرج
ضخم الجثة، حليق شعر الوجه، ذا فك عريض، وكانت عيناه صغيرتين وماكرتين
وقد نظرتا إلى مكان آخر تحت وطأة نظرات توبينس المباشرة.

سألته توبينس: "حسنًا، ما الأمر؟".

ابتسم الرجل.

وقال: "لقد تصادف أن سمعت جزءًا من حديثك مع ذلك الشاب في مقه
ليونز".

قالت توبينس: "حسنًا - هل هناك خطب ما؟".

قال الرجل: "على الإطلاق - عدا أنني أعتقد أني قد أستفيد من خدماتكما".

طرأت على عقل توبينس فكرة أخرى.

فقالت: "هل تبعتني إلى هنا؟".

قال الرجل: "نعم، لقد فعلت".

قالت توبينس: "وما الذي تعتقد أني قد أفيدك به؟".

أخرج الرجل بطاقة من جيبه وأعطاها إياها وهو ينحني.

أخذت توبينس البطاقة منه وقرأتها بعناية. كانت البطاقة تحمل كلمات: السيد إدوارد ويتنجتون. تحت الاسم كانت هناك كلمات: شركة إيستونيا جلاسواير، وعنوان لمكتب بالمدينة. تحدث السيد ويتنجتون مرة أخرى قائلاً:

"إذا ما اتصلت بي صباح الغد في الحادية عشرة، سأقدم لك تفاصيل عرضي".

قالت توبينس بشك: "الحادية عشرة؟".

قال ويتنجتون: "الحادية عشرة تمامًا".

فكرت توبينس في الأمر.

ثم قالت: "حسنًا، سأكون هناك".

قال ويتنجتون: "شكرًا لك، إلى اللقاء".

ثم رفع قبعته في أناقة وانصرف مبتعدًا. ظلت توبينس لبضع دقائق تحدق فيه وهو يبتعد، ثم هزت كتفيها بحركة غريبة كما لو كانت كلبًا يهز نفسه.

غمغمت توبينس في نفسها قائلة: "لقد بدأت شركة شباب المغامرين عملها. ما الذي يرغبه مني؟ هناك أمر غريب بشأنك يا سيد ويتنجتون، أمر لا يعجبني على الإطلاق. ولكن، من ناحية أخرى، أنا لا أشعر بالخوف منك على الإطلاق، وكما قلت من قبل، وسأقول مرة أخرى بدون أدنى شك، يمكن لـ توبينس الصغيرة أن تعتني بنفسها جيدًا، شكرًا لك".

وبإيماءة قصيرة وحادة من رأسها تابعت توبينس سيرها. بعد أن أدارت الأمر في رأسها، انحرفت توبينس عن طريقها ودخلت أحد مكاتب البريد، حيث توقفت لحظات، وهي تمسك نموذجًا للرسائل التلغرافية في يدها. كانت فكرة إنفاق

خمسة شلنات بدون ضرورة ملحة لذلك قد دفعتها للتصرف، فقررت أن تخاطر بفقدان تسعة بنسات.

أخرجت توبينس القلم الرصاص الذي أخذته من تومي، حيث إنها كانت عازفة عن استخدام القلم المدبب السميك الأسود الذي وفرته الحكومة في مكتب البريد، وكتبت بسرعة: "لا تنشر الإعلان في الجريدة. سأشرح لك الأمر غدًا"، ووجهت الرسالة إلى تومي في الفندق الذي يقيم به، والذي عليه أن يرحل منه في نهاية الشهر، إلا إذا حصل على بعض المال الذي سيسمح له بالاستمرار في الإقامة هناك.

غمغمت توبينس قائلة لنفسها: "قد يفاجئه الأمر. على أية حال، إن الأمر يستحق المحاولة".

بعد أن سلمت توبينس الرسالة إلى موظف البريد، توجهت على الفور نحو مكان سكنها، وتوقفت في طريقها عند مخبز. واشترت بما يساوي ثلاثة بنسات من الخبز المعد حديثًا.

بعد ذلك، جلست في غرفتها الضيقة فوق سطح المنزل تتناول الخبز وتفكر في المستقبل. ما هي شركة إيستونيا جلاسواير، وما الأمر الذي قد يرغب هذا الرجل في الحصول على خدماتها لتحقيقه؟ ارتعش جسد توبينس من فرط الإثارة، فقد تراجعت فكرة عودتها لمنزل والدها رجل الدين الريفي إلى مؤخرة عقلها. إن الغد يعد بالكثير من الاحتمالات.

مر وقت طويل قبل أن تتمكن توبينس من الخلود للنوم في هذه الليلة، وعندما نامت أخيرًا، حلمت بأن السيد ويتنجتون قد أسند لها مهمة غسل كمية كبيرة من الأدوات الزجاجية التي تنتجها شركة إيستونيا جلاسواير، والتي تشبه أطباق المستشفى إلى حدٍ كبير.

وصلت توبينس إلى المبنى الذي تقع به مكاتب شركة شركة إيستونيا جلاسواير في حوالي الحادية عشرة إلا خمس دقائق. كان الوصول قبل الموعد يدل على اللهفة الشديدة، لذا قررت توبينس أن تمشي حتى نهاية الشارع وأن تعود مرة أخرى؛ وفعلت ما قررته. عندما دقت الساعة تمام الحادية عشرة

صباحًا، دلفت توبينس إلى المبنى. كانت شركة إيستونيا جلاسواير تقع في الطابق الأخير من المبنى، وكان هناك مصعد ولكنها اختارت أن تصعد الدرج.

وصلت توبينس، وهي تحاول التقاط أنفاسها، إلى باب زجاجي مكتوب عليه: شركة إيستونيا جلاسواير.

طرقت توبينس الباب، وعندما سمعت صوتًا من الداخل يدعوها للدخول، أدارت مقبض الباب ودخلت مكتبًا صغيرًا ومتسخًا إلى حد ما.

نهض أحد الموظفين، وكان في منتصف العمر تقريبًا، من على مقعد مكتبه بجانب النافذة وتوجه نحوها متسائلاً.

فقالت توبينس: "لديَّ موعد مع السيد ويتنجتون".

قال الموظف: "تفضلي من هذا الطريق"، وتوجه نحو باب فاصل مكتوب عليه: خاص، وطرقه، ففُتح الباب، ووقف الموظف على أحد جانبيه ليسمح لها بالعبور.

كان السيد ويتنجتون جالسًا خلف مكتب ضخم مغطى بالأوراق. شعرت توبينس بأن حكمها الأوَّلي عليه كان في محله. هناك خطب ما بشأن السيد ويتنجتون، فقد كان مزيج رفاهيته الماكرة وعينيه المراوغتين لا يبعث على الارتياح.

نظر السيد ويتنجتون لأعلى وأومأ برأسه.

وقال: "لقد وصلت إذن؟ هذا جيد. اجلسي من فضلك".

جلست توبينس على المقعد المواجه له، كانت تبدو ضئيلة ووقورة في هذا الصباح بالذات، فجلست في هدوء وعيناها مثبتتان لأسفل، في حين كان السيد ويتنجتون يرتب أوراقه بصوت عال. في النهاية، أزاح جميع الأوراق جانبًا ومال فوق مكتبه، وقال: "والآن، أيتها الشابة العزيزة، دعينا نتحدث عن العمل"، وعلت وجهه الضخم ابتسامة عريضة، واستطرد قائلاً: "أنت بحاجة للعمل، أليس كذلك؟ حسنًا، سأعرض عليك عملاً. ما رأيك في راتب يصل إلى مائة جنيه، إلى جانب تحمل جميع المصروفات؟"، واضطجع السيد ويتنجتون في مقعده وقد أدخل إبهاميه داخل فتحتي الذراعين في صدريته.

نظرت له توبينس بقلق.

وقالت: "وما نوعية العمل الذي سأقوم به؟".

قال السيد ويتنجتون:

"عمل شكلي - شكلي تمامًا. رحلة ممتعة، ليس أكثر".

قالت توبينس: "إلى أين؟".

ابتسم السيد ويتنجتون مرة أخرى.

وقال: "باريس".

قالت توبينس باهتمام: "أوه"، ثم قالت لنفسها: "إذا سمع والدي هذا سيصاب بنوبة قلبية، ولكني لا أعتقد أن السيد ويتنجتون مخادع".

تابع السيد ويتنجتون حديثه قائلاً: "نعم، أليس هذا رائعًا؟ أن تعيدي الزمن للوراء لبضعة أعوام - أعوام قليلة، أنا على يقين من هذا - وأن تعودي للالتحاق بمدرسة *داخلية للفتيات* التي تزدحم بها باريس ـــــ"

قاطعته توبينس قائلة:

"*مدرسة داخلية*؟".

قال السيد ويتنجتون: "بالضبط. مدرسة السيدة كولومبييه في شارع دي نيويللي".

كانت توبينس تعلم هذا الاسم جيدًا. لا توجد مدرسة داخلية أفضل منها. كان هناك الكثير من أصدقائها الأمريكيين قد درسوا فيها، وشعرت توبينس بحيرة شديدة.

قالت توبينس: "أنت تريدني أن ألتحق بمدرسة السيدة كولومبييه، أليس كذلك؟ لكم من الوقت؟".

قال السيد ويتنجتون: "ربما، ثلاثة أشهر".

قالت توبينس: "هل هذا كل شيء؟ لا توجد أية شروط أخرى؟".

قال السيد ويتنجتون: "لا، ستذهبين إلى هناك على أنك ابنتي بالوصاية، كما أنك لن تقيمي أية صداقات مع زملائك. كما أطلب منك أن يظل هذا الأمر سرًا بيننا في الوقت الحالي. بالمناسبة، هل أنت إنجليزية؟".

قالت توبينس: "نعم".

قال السيد ويتنجتون: "ولكنك تتحدثين بلكنة أمريكية قليلاً، أليس كذلك؟".

قالت توبينس: "لقد كانت أعز صديقاتي في المستشفى أمريكية، ويمكنني القول إنني قد تأثرت بلكنتها. سرعان ما سأعود للكنتي الأصلية مرة أخرى".

قال السيد ويتنجتون: "على العكس، سيكون من الأسهل أن تنجحي في الأمر إذا ما انتحلت شخصية فتاة أمريكية، ربما كانت بعض التفاصيل عن حياتك الماضية في إنجلترا صعبة الإخفاء. نعم، أعتقد أنه سيكون من الأفضل أن تكوني أمريكية. ثم ـــــ"

قالت توبينس: "لحظة واحدة، سيد ويتنجتون. يبدو أنك قد أخذت موافقتي كشيء مسلم به".

ظهرت المفاجأة على وجه ويتنجتون وقال: "لا شك في أنك لا تفكرين في الرفض، أليس كذلك؟ أؤكد لك أن مدرسة السيدة كولومبييه مؤسسة متدينة للغاية ومخصصة للطبقات الراقية، كما أن شروط العمل متحررة للغاية".

قالت توبينس: "بالضبط، هذا ما في الأمر. شروط العمل متحررة للغاية يا سيد ويتنجتون. لا أرى سببًا يجعلك تنفق هذا الكم من الأموال عليَّ".

قال ويتنجتون بلطف: "حقًا؟ حسنًا، سأخبرك بالأمر. لا شك في أنه يمكنني أن أستعين بشخص آخر يكلفني مبلغًا أقل من المال. إن من أرغب في دفع هذا المال له يجب أن يكون شابة على قدر عال من الذكاء والحضور الذهني لتتمكن من أداء دورها ببراعة، وكذلك شابة تمتلك قدرًا من الفطنة يجعلها لا تطرح الكثير من الأسئلة".

علت ابتسامة خفيفة وجه توبينس، فقد شعرت بأن ويتنجتون قد تمكن من إقناعها.

فقالت: "هناك أمر آخر. إنك لم تذكر السيد بيريسفورد حتى الآن. متى سيحين دوره؟".

قال ويتنجتون: "السيد بيريسفورد؟".

قالت توبينس باعتداد: "شريكي. لقد رأيتنا معًا أمس".

قال ويتنجتون: "آه، نعم. أخشى أننا لسنا بحاجة لخدماته".

قالت توبينس وهي تنهض واقفة: "إذن، لن أقوم بالعمل. إما أن يعمل كلانا أو لا أحد منا. آسفة – ولكن هكذا يجري الأمر. إلى اللقاء سيد ويتنجتون".

قال ويتنجتون: "انتظري لدقيقة. دعينا نر ما إذا كان بمقدورنا القيام بأمر ما بهذا الشأن. اجلسي من فضلكِ يا آنسة –"، ثم توقف عن الحديث متسائلاً.

تذكرت توبينس فجأة والدها رجل الدين، لذا فقد قالت أول اسم مر بخلدها: "جاين فين"، ثم توقفت مفتوحة الفم لترى تأثير هاتين الكلمتين.

اختفى كل الود من وجه ويتنجتون وحل محله احمرار شديد بفعل الغضب، وبرزت عروق جبهته، وخلف كل هذا كانت هناك علامات فزع غير مفهومة. مال ويتنجتون نحو الأمام وقال بصوت كالفحيح وبقسوة شديدة:

"هل هذه لعبتكِ الصغيرة التي تمارسينها عليَّ إذن؟".

شعرت توبينس بالخوف قليلاً ولكنها حافظت على هدوئها. لم تكن لديها أدنى فكرة عما يقصده، ولكنها كانت سريعة البديهة، لذا فقد شعرت بأن عليها ألا تقول أي شيء آخر.

تابع ويتنجتون حديثه قائلاً:

"هل كنتِ تلعبين معي طوال هذا الوقت، مثل القط والفأر؟ هل كنتِ تعلمين طوال الوقت ما كنت أريدكِ من أجله، ولكنكِ واصلتِ التمثيل، أليس كذلك؟"، ثم بدأ يهدأ، وبدأ احمرار وجهه يخفت، ونظر لها بحدة وقال: "من كان يثرثر عن هذا الأمر؟ ريتا؟".

هزت توبينس رأسها نفيًا، حيث إنها لم تكن تعلم إلى متى ستكون قادرة على الاستمرار في خداعه، ولكنها أدركت أنه من المهم ألا تورط ريتا، التي لا تعرف من هي، في الأمر.

قالت توبينس: "لا، إن ريتا لا تعلم أي شيء عني".

كانت عيناه لا تزالان ترمقانها بشدة.

وقال بحدة: "ما الذي تعرفينه عن الأمر؟".

أجابته توبينس: "أقل القليل"، وكانت سعيدة بأن قلق ويتنجتون قد زاد ولم يقل، حيث إن قولها إنها تعلم الكثير سيزيد من شكوكه حولها.

قال ويتنجتون: "على أية حال، إنكِ تعلمين القدر الكافي الذي جعلكِ تأتين إلى هنا وتقولين هذا الاسم".

قالت توبينس: "ربما كان هذا اسمي الحقيقي".

قال ويتنجتون: "احتمال وارد أن تكون هناك فتاتان تحملان الاسم ذاته، أليس كذلك؟".

تابعت توبينس حديثها وهي منتشية بنجاح صدقها: "أو ربما أكون قد توصلت له بمحض المصادفة".

ضرب السيد ويتنجتون سطح مكتبه بقبضته بقوة.

وقال: "لا تخدعيني! ماذا تعرفين عن الأمر؟ وكم تريدين؟".

جعلت الكلمات الأخيرة خيال توبينس يجمح، خاصة بعد الإفطار الهزيل هذا الصباح والعشاء المكون من الخبز في الليلة السابقة. كان الجزء الأخير نابعًا من طبيعتها الأنثوية المغامرة، ولكنها لم تتجاهل جميع الاحتمالات. لذا اعتدلت في جلستها وابتسمت بطريقة من فكر في الأمر جيدًا.

وقالت: "عزيزي السيد ويتنجتون، دعنا نكشف جميع أوراقنا، وأن ندعو الله ألا تكون غاضبًا بشدة. لقد سمعتني أمس وأنا أقول إنه قد عُرض عليَّ أن أعيش طبقًا لما يهديني إليه تفكيري. يبدو أنني قد أثبت الآن أنني أمتلك بعضًا من

رجاحة التفكير لأعيش طبقًا لها. لقد اعترفت لك بأني أعرف اسمًا بعينه، ولكن ربما كانت معرفتي به تنتهي عند هذا الحد".

قال ويتنجتون: "نعم - وربما لا".

قالت توبينس وهي تتنهد تنهيدة خفيفة: "إنك تصر على إساءة الحكم عليَّ".

قال السيد ويتنجتون بغضب: "قلت من قبل إنك تحاولين خداعي، وأفشيت بمكنونات صدرك. لا يمكنك الآن أن تلعبي دور البريئة معي. إنك تعرفين عن الأمر أكثر مما تفصحين".

توقفت توبينس عن الحديث للحظة لتزيد من براعتها وقالت بلطف:

"أنا لا أحب أن أعارضك يا سيد ويتنجتون".

قال ويتنجتون: "إذن وصلنا إلى السؤال المعتاد - كم تريدين؟".

كانت توبينس متحيرة، لقد تمكنت، حتى هذه اللحظة، من خداع ويتنجتون بنجاح، ولكن إن قامت بطلب مبلغ من المال مبالغ فيه فقد يزيد ذلك من ارتيابه، ولكن طرأت عليها في تلك اللحظة فكرة مفاجئة.

فقالت: "ما رأيك في أن تدفع مبلغًا متواضعًا من المال الآن، ونتحدث عن المبلغ الكامل فيما بعد؟".

رمقها ويتنجتون بنظرة فظيعة.

وقال: "أنت تقومين بابتزازي، أليس كذلك؟".

ابتسمت توبينس بعذوبة وقالت: "لا، يمكنك أن تقول إنها مقدم أتعاب".

أصدر ويتنجتون صوتًا غير مفهوم.

فتابعت توبينس حديثها مفسرة: "كما ترى، أنا لست مغرمة كثيرًا بالمال".

صاح ويتنجتون بمقت شديد: "لقد تعديت حدودك. لقد خدعتني بمهارة. لقد اعتقدتُ أنك فتاة صغيرة وديعة تمتلك الذكاء الكافي لتحقيق الغرض الذي أسعى إليه".

قالت توبينس: "إن الحياة مليئة بالمفاجآت".

تابع ويتنجتون حديثه قائلاً: "حسنًا، هناك من تحدث عن الأمر، وأنت تقولين إنها ليست ريتا. هل هو؟، هيا".

طرق الموظف الباب طرقة خفيفة ودلف إلى الغرفة، ووضع ورقة على مرفق رب عمله.

وقال: "لقد وصلتك رسالة هاتفية للتو يا سيدي".

جذب ويتنجتون الورقة وبدأ في قراءتها، وقطب حاجبيه بشدة.

وقال: "شكرًا براون، يمكنك الذهاب".

خرج الموظف من الغرفة وأغلق الباب خلفه، فنظر ويتنجتون إلى توبينس.

وقال: "تعالي غدًا في الوقت ذاته. أنا مشغول في الوقت الحالي. خذي خمسين جنيهًا كدفعة مقدمة".

أخرج بسرعة بعض العملات الورقية ووضعها على الطاولة في اتجاه توبينس، ثم نهض واقفًا، وكان يبدو أنه يرغب بشدة في أن تنصرف.

أخذت الفتاة العملات وعدتها بطريقة رجال الأعمال، ووضعتها في حقيبتها ونهضت واقفة.

وقالت بأدب: "إلى اللقاء سيد ويتنجتون، أو ربما عليَّ أن أقول *أراك لا حقًا*".

بدا ويتنجتون ودودًا مرة أخرى، الأمر الذي جعل توبينس ترتاب قليلاً في الأمر، وهو يقول: "بالطبع، *أراك لا حقًا، أراك لا حقًا* أيتها الفتاة الماهرة الفاتنة".

أسرعت توبينس قليلاً في أثناء هبوطها الدرج. كانت مختالة بنفسها كثيرًا، وكانت إحدى الساعات تشير خلال هبوطها الدرج إلى الثانية عشرة إلا خمس دقائق.

غمغمت توبينس قائلة: "هيا نفاجئ تومي"، وأوقفت إحدى سيارات الأجرة.

خرجت توبينس من سيارة الأجرة خارج محطة قطار الأنفاق، وكان تومي قد وصل للتو إلى مدخلها. اتسعت عينا تومي عن آخرهما في دهشة واندفع ليساعد

توبينس على الهبوط من السيارة. ابتسمت له توبينس في حب وقالت بصوت خافت منفعل:

"ادفع أجرة السيارة، هل يمكنك هذا يا عزيزي؟ حيث إن أقل عملة أمتلكها هي خمسة جنيهات".

الثالث

العقبة

لم تكن اللحظة تحمل الكثير من مشاعر النصر كما كان من المفترض أن تكون. بادئ ذي بدء، لم يكن تومي يمتلك الكثير من المال. في النهاية تم دفع أجرة سيارة الأجرة، حيث أخرجت السيدة بنسين، وكان سائق السيارة الأجرة الذي كان لا يزال يحمل العملات في يده، يرغب في الرحيل، ورحل بالفعل بعدما أطلق صيحة بصوت أجش جعلت تومي يعتقد كما لو كان السائق هو من يعطيه الأجرة.

قالت توبينس: "أعتقد أنك أعطيته الكثير من المال يا تومي. أعتقد أنه يرغب في إعادة بعضه لك".

ربما كانت هذه المقولة هي ما دفع السائق للانصراف.

قال السيد بيريسفورد ليرضي فضوله: "حسنًا، ماذا بحق السماء دفعك لأن تستقلي سيارة أجرة؟".

قالت توبينس بلطف: "كنت أخشى أن أتأخر عن موعدنا وأجعلك تنتظرني لوقت طويل".

قـال السيـد بيريسفـورد: "تخشين مـن أن تتأخري عـن موعدنا، يـا إلهي! لا أصدق أذني".

تابعـت توبينـس حديثها وقد اتسعت عيناها عن آخرهما: "الحق يُقال، لم أكن أمتلك بالفعل عملة أقل من خمسة جنيهات في حقيبتي".

قـال تومـي: "لقـد أديـت دورك ببراعة يا عزيزتـي، ولكن الرجل لـم يستوعب الأمر على الإطلاق".

قالت توبينس: "لا، إنه لم يصدق ما قلت. هذا هو الأمر الغريب المتعلق بقول الصـدق. لا أحـد يصدق المرء عندما يقول الحقيقة. لقد اكتشفت هذا الأمر هذا الصباح. والآن، دعنا نذهب لنتناول الغداء. ما رأيك في مطعم سافوي؟".

ابتسم لها تومي.

وقال: "ماذا عن الريتز؟".

قالـت توبينـس: "بعد أن أعدت تفكيري، أفضل مطعم بيكاديللي. إنه أقرب. لا يجب علينا أن نستقل سيارة أجرة أخرى. تعال".

قال تومي: "هل هذا نوع جديد من المزاح؟ أم أنك أصبت بالجنون؟".

قالـت توبينـس: "فرضيتـك الثانية هـي الصحيحـة. لقد حصلـت على بعض المـال، وكانت الصدمة أكبـر مما يتحمل عقلي، وقد نصحني الطبيب بأنه عندما يصـاب بهـذا النـوع من الاختـلال العقلي يجـب أن أتناول كمية غيـر محدودة من المقبـلات وسرطـان البحـر بالطريقـة الأمريكيـة، والدجـاج بطريقـة نيوبـرج ومثلجات الفواكه، دعنا نذهب لنتناول بعضها".

قال تومي: "توبينس، عزيزتي، ماذا حدث لك حقيقة؟".

فتحـت توبينـس حقيبتها وقالـت: "حسنًا، أنـت لا تصدقني. انظـر هنا، وهنا، وهنا".

قال تومي: "عزيزتي، لا تلوحي بالجنيهات عاليًا هكذا".

قالـت توبينس: "إنهـا ليسـت عمـلات مـن فئة الجنيه، بـل إنهـا أفضل بخمس مرات، وهذه العملة أفضل بعشر مرات".

صاح تومي بغبطة:

"يبـدو أننـي كنـت أشرب بـدون أن أدرك هذا. هل أحلم يـا توبينس، أم أنني أمسك بيدي كمية كبيرة من ورقات العملة فئة الخمسة جنيهات؟".

قالت توبينس: "لست تحلم ياتومي، *والآن* هل ستأتي معي لتناول الغداء؟".

قـال تومـي: "سأذهب معك إلـى أي مكان، ولكن كيف حصلـت على هذا المال، هل سطوت على بنك؟".

قالـت توبينس: "سأخبـرك بكل شيء في حينه. إن سيرك بيكاديللي هذا مكان فظيع. هنـاك حافلة ضخمـة تتجه نحونـا. سيكون مـن الفظيع أن تدهـس أوراق العملة من فئة الخمسة جنيهات".

سألهـا تومـي عندمـا وصـلا إلى الرصيـف في الجهـة الأخرى مـن الطريق: "ماذا عن مطعم جريلرووم؟".

اعترضت توبينس قائلة: "أسعاره أعلى من المطعم الآخر".

قال تومي: "لا تبالغي في الأمر. دعينا ندخل".

قالـت توبينـس: "هل أنـت واثق من أنني سأتمكن مـن الحصول على ما أرغب فيه في هذا المطعم؟".

قـال تومـي: "هـل ترغبين في قائمـة الطعـام الشاملة تلك التـي ذكرتها منذ قليل؟ بالطبع يمكنك الحصول على ما تريدين - أو على الأقل ما يمكن لمعدتك استيعابه على أية حال".

قـال تومـي، وهو غير قادر على تمالك فضوله لفتـرة أطول، عندما جلسا إلى إحدى الطـاولات وتحيط بهما المقبلات التـي كانت تحلم بهـا توبينس: "والآن، أخبريني بما حدث".

أخبرته الآنسة كاولي بما حدث.

اختتمـت توبينـس حديثها قائلة: "الأمـر الغريب هو أنني ابتكـرت اسم جاين فين. لم أكن أرغب في أن أخبره باسمي الحقيقي بسبب والدي المسكين - إذا ما تورطت في أي عمل غير قانوني".

قال تومي ببطء: "ربما فعلت الصواب، ولكنك لم تبتكري هذا الاسم".

قالت توبينس: "ماذا؟".

قال تومي: "لا، لقد أخبرتك به. ألا تتذكرين، لقد قلت لك أمس إنني سمعت بمحض المصادفة شخصين يتحدثان عن امرأة تُدعى جاين فين؟ هذا ما جعل هذا الاسم يكون حاضرًا في ذهنك".

قالت توبينس: "نعم، لقد فعلت. لقد تذكرت الآن. يا له من أمر غريب"، ثم صمتت لبضع لحظات واستطردت قائلة: "تومي".

قال تومي: "نعم؟".

قالت توبينس: "ماذا كان شكل الرجلين اللذين سمعتهما يتحدثان عنها؟".

قطب تومي حاجبيه محاولاً التذكر وقال:

"كان أحدهما شابًا ضخمًا وبدينًا، حليق الوجه، وأعتقد أنه كان كئيب المظهر".

صاحت توبينس صيحة عالية مخالفة للقواعد قائلة: "هذا هو. هذا هو ويتنجتون. كيف كان يبدو الرجل الآخر؟".

قال تومي: "لا أذكر. لم أنظر له مطولاً. لقد كان الاسم الغريب هو ما لفت انتباهي".

قالت توبينس وهي تقلب في طبق *مثلجات الفواكه* أمامها بغبطة: "الناس يقولون إن المصادفات لا تحدث".

ولكن في ذلك الوقت، أصبح تومي أكثر جدية وهو يقول:

"اسمعي يا توبينس. إلى ماذا سيقودك هذا الأمر؟".

ردت عليه توبينس قائلة: "إلى الحصول على المزيد من المال".

قال تومي: "أعلم هذا. إنك لا تفكرين إلا في أمر واحد. ما أعنيه هو، ما خطوتك التالية؟ كيف ستتمكنين من مواصلة خداعه؟".

وضعت توبينس ملعقتها جانبًا وقالت: "أوه، إنك على حق يا تومي، يا له من أمر محير".

قال تومي: "إنك تعلمين أنك لست قادرة على خداعه للأبد، من المؤكد أنك ستخطئين إن آجلا أو عاجلاً. على أية حال، أنا لا أعتقد أن ما تفعلينه - الابتزاز - أمر قانوني".

قالت توبينس: "هراء، يعني الابتزاز أنك ستكشف الأمر إلا إذا حصلت على المال. والآن، لا يوجد لديَّ ما أكشفه، لأنني لا أعلم أي شيء".

قال تومي بشك: "همم، حسنًا، على أية حال، ما الذي سنفعله؟ كان ويتنجتون متعجلاً لتنصرفي هذا الصباح، ولكنه في المرة القادمة سيرغب في معرفة المزيد عما تعرفينه قبل أن يعطيك المزيد من المال. سيرغب في معرفة كم المعلومات التي تعرفينها، ومن أين حصلت عليها، والكثير من الأمور الأخرى التي لا يمكنك مجاراتها. ماذا ستفعلين حيال هذا الأمر؟".

قطبت توبينس حاجبيها بشدة، وقالت: "يجب أن نفكر فيما سنفعل. اطلب بعض القهوة التركية يا تومي، فإنها تحفز العقل. يا إلهي، لقد أتخمت بالطعام".

قال تومي: "لقد تناولت ما يزيد على طاقتك، وكذلك فعلت أنا، ولكني مسرور لأن اختياري الأطعمة التي تناولتها كان أكثر حكمة من اختيارك"، ثم قال للنادل: "قدحان من القهوة من فضلك، أحدهما قهوة تركية والآخر فرنسية".

رشفت توبينس القهوة من قدحها وهي تفكر بعمق، ووبخت تومي عندما تحدث معها قائلة:

"اصمت، أنا أفكر".

قال تومي: "ظلال تمارين الذاكرة"، ولاذ بالصمت التام.

قالت توبينس أخيرًا: "اسمع، لديَّ خطة. يبدو أنه لا طريق أمامنا سوى اكتشاف المزيد عن ذلك الأمر".

صفق لها تومي.

فقالت: "لا تسخر مني. السبيل الوحيد لمعرفة المزيد هو من خلال ويتنجتون نفسه. يجب أن نكتشف أين يسكن، وماذا يفعل - أي أن نتجسس عليه. لا يمكنني أنا أن أقوم بهذه المهمة لأنه يعرفني، ولكنه لم يرك سوى لدقيقة أو

دقيقتين في مقهى ليونز، ومن غير المرجح أن يتذكرك. إن الشباب يشبهون بعضهم بعضًا كثيرًا".

قال تومي: "أنا لا أتفق معك على الإطلاق، حيث إن ملامحي الوسيمة ومظهري المتميز سيجعلانني أظهر بوضوح من بين أي مجموعة كانت".

تابعت توبينس حديثها في هدوء قائلة: "خطتي كالتالي، سأذهب لمقابلته بمفردي غدًا، وسأخدعه كما فعلت اليوم. لا يهم إذا لم أحصل على المزيد من المال في تلك المرة. إن الخمسين جنيهًا ستكفينا لبضعة أيام".

قال تومي: "وربما أكثر".

قالت توبينس: "سأظل أتسكع على مقربة منك خارج المبنى، وعندما أخرج لن أتحدث معك خشية أن يكون يراقبني، ولكني سأختفي في مكان قريب، وعندما يخرج هو من المبنى سألقي بمنديلي أو أي شيء آخر على الأرض، فتنطلق أنت".

قال تومي: "أنطلق إلى أين؟".

قالت توبينس: "تنطلق خلفه بالطبع أيها الأحمق. ما رأيك في هذه الفكرة؟".

قال تومي: "تشبه الأفكار التي نقرؤها في الروايات. أعتقد أنه في الحياة الواقعية، قد يظل المرء واقفًا في الشارع كالأحمق لساعات بدون أن يفعل أي شيء، وسيتساءل الناس عما أرغب في القيام به".

قالت توبينس: "ليس في المدينة. إن الناس في عجلة من أمرهم، ربما لن يلحظ أي شخص وجودك".

قال تومي: "هذه هي المرة الثانية التي تقولين فيها مثل هذا الأمر. لا عليك، أنا أسامحك. على أية حال إنها مزحة. ماذا ستفعلين اليوم في فترة ما بعد الظهر؟".

قالت توبينس وهي تفكر: "حسنًا، كنت أفكر في شراء بعض القبعات أو الجوارب الحريرية، أو ربما ــــ".

قاطعها تومي قائلاً: "مهلاً مهلاً، إن كل ما معنا خمسون جنيهًا فقط، ولكن دعينا نتناول العشاء ونر ما تقدمه المدينة الليلة من أحداث".

قالت توبينس: "حسنًا".

مر اليوم بشكل رائع، وكانت الأمسية أكثر من رائعة، وقاما بإنفاق اثنتين من الأوراق المالية فئة الخمسة جنيهات.

تقابلا في الصباح التالي كما اتفقا وتوجها نحو المدينة. ظل تومي واقفًا في الجهة المقابلة من الطريق، في حين دلفت توبينس إلى المبنى.

سار تومي ببطء نحو نهاية الشارع وعاد مرة أخرى. بمجرد أن اقترب من المبنى، وجد توبينس تخرج مسرعة من المبنى وتعبر الطريق قائلة:

"تومي".

قال تومي: "نعم، ما الأمر؟".

قالت توبينس: "المكتب مغلق، ولا يمكنني سماع أي شخص بالداخل".

قال تومي: "هذا أمر غريب".

قالت توبينس: "أليس كذلك؟ اصعد معي لأعلى ودعنا نحاول مرة أخرى معًا".

تبعها تومي، وعندما عبرا الطابق الثالث كان هناك أحد الموظفين الشباب يخرج من أحد المكاتب. تردد للحظة ثم توجه إلى توبينس قائلاً:

"هل تريدين شركة إيستونيا جلاسواير؟".

قالت توبينس: "نعم، من فضلك".

قال الموظف: "لقد أُغلقت، منذ عصر أمس. يُقال إنه قد تمت تصفية الشركة، ولكني لم أسمع بهذا الأمر بنفسي، ولكن على أية حال، لقد قاموا بعرض المكتب للإيجار".

قالت توبينس: "شكرًا لك. أعتقد أنك لا تعرف عنوان منزل السيد ويتنجتون، أليس كذلك؟".

قال الموظف: "أخشى أنني لا أعرفه. لقد رحلوا بشكل مفاجئ".

قال تومي: "شكرًا جزيلاً لك. هيا بنا يا توبينس".

هبطا الدرج إلى الطابق السفلي مرة أخرى، حيث حدق كل منهما في الآخر بنظرات زائغة.

قال تومي أخيرًا: "هذا ينهي الأمر".

قالت توبينس: "أنا لم أتوقع حدوث هذا على الإطلاق".

قال تومي: "لا عليك، إن الأمر ليس بيدك".

برز ذقن توبينس الصغير في تحدٍّ وقالت: "ليس الأمر بيدي بالفعل، ولكن هل تعتقد أن هذه نهاية المطاف؟ إذا كنت تعتقد هذا، فأنت مخطئ. إنها البداية".

قال تومي: "بداية ماذا؟".

قالت توبينس: "بداية مغامرتنا. تومي، ألا ترى أنهم كانوا خائفين للغاية ليهربوا بتلك الطريقة، مما يؤكد أن هناك الكثير لا نعلمه بشأن موضوع جاين فين. حسنًا، سنكتشف الأمر بأكمله، وسنوقع بهم. سنكون جواسيس بكل ما تحمله الكلمة من معنى".

قال تومي: "نعم، ولكن لا يوجد من نتجسس عليه".

قالت توبينس: "نعم، ولهذا السبب علينا أن نبدأ من جديد. أقرضني قلمك الرصاص. شكرًا لك. انتظر قليلاً - لا تقاطعني. تفضل". أعطته توبينس قلمه الرصاص مرة أخرى، ومسحت الورقة التي خطت عليها الكلمات للتو بنظرات راضية.

فقال تومي: "ما هذا؟".

قالت توبينس: "إعلان".

قال تومي: "أمازلت مصرة على نشر ذلك الإعلان؟".

قالت توبينس: "لا، إنه إعلان مختلف تمامًا"، وأعطته الورقة.

قرأ تومي الكلمات بصوت عالٍ قائلاً:

"مطلوب أية معلومات تخص جاين فين، أرسلوا الخطابات إلى واي.إيه."

الرابع

من هي جاين فين؟

مر اليوم التالي ببطء شديد، فقد كان من الضروري أن يرشد بطلانا مصروفاتهما، فمع الاقتصاد الجيد، يمكن لمبلغ الأربعين جنيهًا الذي معهما أن يبقى لوقت طويل. لحسن الحظ كان الجو رائعًا، وكان "السير رخيص الثمن"، كما أمرت توبينس، وكانا قد قاما بقضاء الأمسية في أحد دور السينما النائية.

كان اليوم الذي خاب فيه أملهما هو يوم الأربعاء، وفي يوم الخميس، ظهر إعلانهما في الصحيفة. في يوم الجمعة، كانا يتوقعان أن تصلهما الخطابات على مقر إقامة تومي.

كان تومي قد قطع على نفسه عهدًا بألا يفتح أيًا من تلك الخطابات إذا ما وصلت، بل سيقوم بالتوجه إلى صالة عرض اللوحات القومية حيث ستقابله شريكته في تمام العاشرة.

وصلت توبينس أولاً إلى مكان اللقاء، وجلست على مقعد مخملي أحمر اللون وبدأت في مشاهدة لوحات تيرنر بعينين زائغتين حتى رأت شخصًا تعرفه يدخل الغرفة فقالت:

"ما الأمر؟".

قال تومي باستفزاز: "حسنًا، ما هي لوحتك المفضلة؟".

قالت توبينس: "لا تكن سخيفًا. هل وصلتك أية خطابات؟".

هز تومي رأسه بحزن عميق مبالغ فيه وقال:

"لم أكن أرغب في إحباطك يا عزيزتي بأن أقول لك ما حدث على الفور إن الأمر سيئ للغاية. لقد أضعنا مالنا هباءً"، ثم تنهد بعمق وقال: "ولكن واقع الأمر أن إعلاننا ظهر في الصحيفة ولم يصلنا سوى خطابين".

كادت توبينس تصرخ من فرط الانفعال وقالت: "تومي، يا لك من ماكر أعطني إياهما. كيف يمكن أن تكون على هذا القدر من الدناءة!".

قال تومي: "حقائبك يا توبينس، حقائبك. إنها لا تناسب معرض اللوحات القومي على الإطلاق. إنه معرض حكومي كما تعلمين. وتذكري، كما قلت لك من قبل، أن ابنة رجل الدين يجب أن ـــــ"

أكملت توبينس جملته فجأة قائلة: "أن تكون على المنصة".

قال تومي: "ليس هذا ما كنت أنوي قوله، ولكن إن كنت واثقة من أنك استمتعت تمامًا بالشعور بالسعادة بعد اليأس، الشعور الذي أعطيته إياك عن طيب خاطر بدون مقابل، فدعينا نعد إلى رسائلنا".

خطفت توبينس الخطابين الغاليين من يده بدون تكلف وفحصتهما بدقة وقالت:

"هذا الخطاب مكتوب على ورق سميك. يبدو أنه من شخص ثري. سنتركه جانبًا وسنفتح الخطاب الآخر أولاً".

قال تومي: "كما ترغبين. واحد، اثنان، ثلاثة، افتحي".

فتحت توبينس ظرف الخطاب بإبهامها الصغير وأخرجت محتوياته، وقرأت الخطاب الذي كان يقول:

سيدي العزيز،

بالإشارة إلى الإعلان المنشور في الصحيفة صباح اليوم، قد أفيدك ببعض المعلومات. ربما يمكنك أن تحضر لمقابلتي في العنوان على ظرف الخطاب في تمام الحادية عشرة من صباح الغد.

المخلص،

إيه. كارتر

قالت توبينس وهي تشير إلى العنوان المكتوب على ظرف الخطاب: "المنزل رقم ٢٧ في مجمع كارشالتون السكني. إن هذا المجمع يقع في طريق جلوسيستر. سيستغرق وقتًا طويلاً للوصول إلى هناك إذا ما ركبنا قطار الأنفاق".

قال تومي: "سأعرض عليك خطتي لما سنفعل. إنه دوري لأخطط للتعامل معه. عندما أذهب للقاء السيد كارتر، سنحيي بعضنا الآخر كالعادة. بعد ذلك يقول: تفضل بالجلوس يا سيد -؟، فأرد عليه على الفور: إدوارد ويتنجتون، عندها يبدأ وجه السيد كارتر في الاحمرار ويقول لي: كم تريد؟ ويخرج المبلغ المعتاد، خمسين جنيهًا، ثم أخرج لأقابلك في الخارج لنذهب إلى العنوان التالي ونكرر العملية".

قالت توبينس: "لا تكن أحمق يا تومي. دعنا نفتح الخطاب الثاني. أوه، إنه مرسل من فندق الريتز".

قال تومي: "سنحصل على مائة جنيه بدلاً من خمسين".

قالت توبينس: "سأقرأ الخطاب:

"*سيدي العزيز،*

بخصوص الإعلان المنشور في الصحيفة، سأكون مسرورًا إذا ما جئت لمقابلتي على الغداء.

المخلص،

جوليوس بي. هيرشايمر".

قال تومي: "هل هذا الاسم ألماني، أم مجرد مليونير أمريكي من أصول ألمانية؟ على أية حال، سنذهب إليه في موعد الغداء. إنه وقت مناسب - حيث إنه يؤدي عادة إلى الحصول على وجبة مجانية من أجل شخصين".

أومأت توبينس برأسها موافقة وقالت:

"والآن، فلنذهب للقاء كارتر. هيا، علينا أن نسرع".

كان مجمع كارشالتون السكني عبارة عن صف، على حد تعبير توبينس، من المنازل الأنيقة". قرعا جرس باب المنزل رقم ٢٧، وفتحت الباب خادمة أنيقة. كانت الخادمة تبدو محترمة للغاية مما جعل قلب توبينس يهبط في قدميها. عندما سأل تومي عن السيد كارتر، أشارت لهما الخادمة بدخول غرفة مكتب صغيرة في الطابق الأرضي، حيث تركتهما. لم تمر دقيقة حتى فُتح الباب ودخل رجل طويل القامة ذو وجه نحيف يشبه وجه الصقر، وكان يبدو مرهقًا.

قال الرجل وهو يبتسم ابتسامة بدت جذابة للغاية: "السيد واي. إيه. اجلسا من فضلكما".

أطاعاه، وجلس هو الآخر في المقعد المقابل لـ توبينس وابتسم لها مشجعًا. كان في ابتسامته شيء ما جعل استعداد الفتاة المعتاد يخذلها.

عندما بدا أن الرجل لن يبدأ بالحديث عن الموضوع، شعرت توبينس بأنها مجبرة على أن تفعل، فقالت:

"كنا نرغب في معرفة، أعني، هل تتكرم وتخبرنا بأي شيء تعرفه عن جاين فين؟".

بدا أن السيد كارتر يفكر في الأمر وقال: "جاين فين؟ نعم. حسنًا، السؤال هو، ما الذي تعرفانه عن جاين فين؟".

اعتدلت توبينس في جلستها وقالت:

"لا أعتقد أن هذا ما جئنا من أجله".

ابتسم كارتر مرة أخرى بطريقته المنهكة وتابع حديثه قائلاً: "حقًا؟ بل هو كذلك في حقيقة الأمر. لذا فإن هذا يعود بنا إلى السؤال المطروح مرة أخرى، ما الذي *تعرفانه* عن جاين فين؟".

ثم قال عندما لاذت توبينس بالصمت: "هيا. يجب أن تكوني على علم *بأمر* ما من جاين فين حتى تنشري إعلانًا بالصحيفة مثلما فعلت، أليس كذلك؟"، ثم مال للأمام، وحمل صوته نبرة مقنعة وهو يقول: "افترضي أنك أخبرتني ——"

كان هناك شيء جذاب بشأن شخصية السيد كارتر، وبدا أن توبينس تحاول التحرر من تلك الجاذبية بصعوبة وهي تقول:

"لا يمكننا فعل هذا، أليس كذلك يا تومي؟".

ولكن لدهشتها، لم يساندها تومي، فقد كانت عيناه مثبتتين على السيد كارتر، وحمل صوته نبرة الإذعان وهو يقول:

"يمكنني أن أقول إن المعلومات القليلة التي نعرفها لن تفيدك كثيرًا يا سيدي، ولكن لأنك ترغب في أن تعرفها، فسنخبرك بها عن طيب خاطر".

صرخت توبينس في دهشة قائلة: "تومي".

استدار السيد كارتر في مقعده ونظر بعينين متسائلتين. تومي أومأ برأسه وقال:

"نعم يا سيدي، لقد عرفتك على الفور. لقد رأيتك في فرنسا عندما كنت أخدم مع جهاز الاستخبارات. بمجرد أن رأيتك تدخل الغرفة، عرفت على الفور أنك ——"

أمسك السيد كارتر بيده وقال:

"لا أسماء من فضلك. أنا أُعرف هنا باسم السيد كارتر. بالمناسبة، هذا منزل إحدى بنات عمومتي. إنها على استعداد تام لأن تقرضني إياه في بعض الأحيان عندما أعمل بصورة غير رسمية. حسنًا، والآن" - ونقل بصره بينهما وقال: "من منكما سيخبرني بالقصة؟".

قال تومي: "هيا يا توبينس، إنها قصتك".

قال السيد كارتر: "نعم، أيتها الشابة، قصي عليَّ الأمر".

أطاعتهما توبينس وقصت القصة بأكملها منذ تكوين شركة شباب المغامرين المحدودة وحتى النهاية.

استمع السيد كارتر للقصة في صمت وقد استعاد هيئته المرهقة، ومن حين لآخر كان يضع يده على فمه كما لو كان يحاول أن يخفي ابتسامته. عندما انتهت توبينس من قصتها أومأ برأسه برزانة وقال:

"ليست بالقصة الطويلة، ولكنها توحي بالكثير. اعذراني فيما سأقول، إنكما زوج من الشباب مثير للاهتمام. لا أعلم إن كنتما ستنجحان فيما فشل فيه الآخرون... إنني أؤمن بالحظ، ولطالما فعلت..."

ثم صمت للحظة وتابع قائلاً:

"حسنًا، ماذا عن الآتي؟ إنكما بصدد القيام بمغامرة. ما رأيكما أن تعملا معي؟ بشكل غير رسمي، كما تعلمان. وسأتحمل جميع المصروفات بالإضافة إلى راتب معقول؟".

حدقت به توبينس وفغرت فاها، وقد اتسعت عيناها عن آخرهما، وقالت: "وما الذي علينا أن نفعله؟".

ابتسم السيد كارتر وقال:

"أن تستمرا في فعل ما تفعلانه في الوقت الحالي، *أن تجدا جاين فين*".

قالت توبينس: "حسنًا، ولكن من هي جاين فين؟".

أومأ السيد كارتر برأسه في رزانة وقال: "نعم، أعتقد أنه من حقكما أن تعرفا من هي".

اضطجع السيد كارتر في جلسته ووضع ساقًا فوق الأخرى، وشبك أصابع يديه وقال في صوت خفيض:

"إن السياسة السرية (التي، بالمناسبة، عادة ما تكون سياسة سيئة) لا تهمكما كثيرًا. سيكفي أن أقول إنه في بداية عام ١٩١٥، ظهرت وثائق معينة كانت عبارة عن مسودة لاتفاق سري - معاهدة - أيًا كان ما ستطلقانه عليها، وكانت

جاهزة ليتم التوقيع عليها من عدد من ممثلي الدول، تمت صياغتها في أمريكا التي كانت في ذلك الوقت دولة محايدة. تم إرسالها بعد ذلك إلى إنجلترا مع مبعوث اختير خصيصًا لهذا الغرض، شاب يُدعى دانفرز. كنا نأمل أن يظل الأمر سريًا حتى لا تتسرب أية معلومات عن هذه الوثائق، ولكن هذا النوع من الآمال عادة ما يخيب، حيث إن هناك دائمًا من يُفشي السر.

أبحر دانفرز إلى إنجلترا على متن السفينة *لوزيتانيا*، وكان يحمل الوثائق الثمينة في لفافة من القماش المشمع تحت ملابسه، وكانت تلك الرحلة التي ضربت فيها السفينة *لوزيتانيا* بالطوربيد وأُغرقت. كان دانفرز من بين قائمة الركاب المفقودين، وفي النهاية انجرفت جثته إلى أحد الشواطئ، وتم التأكد من هويته، ولكن لفافة القماش المشمع كانت مفقودة.

السؤال هو: هل أُخذت اللفافة منه، أم أعطاها شخصًا آخر ليحتفظ بها؟ وقعت بعض الأحداث التي تؤكد صحة النظرية الثانية. بعد ضرب الطوربيد السفينة، وفي خلال اللحظات القليلة التي سبقت إطلاق زوارق النجاة، شوهد دانفرز يتحدث مع شابة أمريكية. لم يره أحد وهو يعطيها أي شيء، ولكن من المرجح أنه فعل. يبدو لي أنه قد أعطى الأوراق لتلك الفتاة، إيمانًا منه بأنها، كامرأة، لديها فرصة أكبر للوصول بها إلى بر الأمان.

ولكن، إن كان هذا صحيحًا، فأين هي تلك الفتاة، وماذا فعلت بتلك الوثائق؟ أخبرتنا السلطات الأمريكية فيما بعد بأنه من المرجح أن دانفرز قد تم تعقبه طوال رحلته. هل كانت الفتاة من الأعداء؟ أم تم تعقبها هي الأخرى وتم خداعها أو إجبارها على تسليم تلك الوثائق الثمينة للأعداء؟

"بدأنا العمل من أجل تعقبها، ولكننا واجهنا صعوبات كثيرة غير متوقعة. كان اسم الفتاة جاين فين، قد ظهر بين قائمة الركاب الذين نجوا من الحادث، ولكن الفتاة نفسها اختفت من دون أثر. عند الاستفسار عن أقاربها لم نتوصل إلى الكثير من المعلومات عنها، فقد كانت يتيمة، وكانت تعمل في الوظيفة التي نطلق عليها هنا مدرسة روضة في مدرسة صغيرة في الغرب الأمريكي. كان مثبتًا في جواز سفرها أنها متوجهة إلى باريس، حيث كانت ستعمل ضمن طاقم عمل

إحدى المستشفيات. كانت الفتاة قد تطوعت للعمل في المستشفى، وبعد عدد من المراسلات، تم قبولها للعمل. بعدما رأى طاقم العمل في المستشفى اسمها بين قوائم الناجين من حادث السفينة لوزيتانيا، شعروا جميعًا بالدهشة لأنها لم تتوجه للمستشفى لتتسلم عملها التطوعي، ولم يعرفوا عنها أي شيء منذ ذلك الحين.

حسنًا، لقد بذلنا أقصى ما بوسعنا لتعقب هذه الفتاة - ولكن من دون طائل تعقبناها وصولاً إلى أيرلندا ولكن لم يسمع بها أحد منذ وطئت قدماها أرض إنجلترا. لم يتم استخدام مسودة المعاهدة - كما كان من المفترض أن يحدث لذا فقد توصلنا في النهاية إلى استنتاج أن دانفرز قد لجأ إلى تدميرها. بعد ذلك انتقلت الحرب إلى مرحلة جديدة، وتغيرت الهيئة الدبلوماسية طبقًا لذلك، ولم يتم إعداد مسودة أخرى للمعاهدة. تم إنكار جميع الشائعات عن وجود مثل هذه المعاهدة، وتم نسيان اختفاء جاين فين وذهب الأمر بأكمله طي النسيان".

توقف السيد كارتر عن الحديث، فقالت توبينس في نفاد صبر:

"ولكن، لماذا تمت إثارة هذا الأمر مرة أخرى؟ لقد انتهت الحرب".

بدا السيد كارتر أكثر انتباهًا من ذي قبل وهو يقول: "لأنه يبدو أن الأوراق لم يتم تدميرها، وظهورها مرة أخرى في الوقت الحالي قد يكون له معنى جديد وخطير".

اتسعت عينا توبينس، فأومأ السيد كارتر برأسه وقال:

"نعم، منذ خمس سنوات، كانت تلك المعاهدة سلاحًا بين أيدينا، ولكنها الآن سلاح مسلط علينا. لقد كانت خطأً فادحًا. إذا ما تمت إذاعة شروطها على العامة ستحل الكارثة... ومن المحتمل أن تنشب حرب جديدة، ولكن ليس ضد ألمانيا هذه المرة. هذا احتمال بعيد، وأنا عن نفسي لا أعتقد بحدوثه، ولكن هذه الوثائق تمس بعضًا من رجال دولتنا الذين لا يمكننا التخلي عنهم بأية حال من الأحوال في الوقت الحالي. عندما تدعو جماعة إلى فوز حزب العمال فإن هذا الأمر لا يمكن مقاومته، ولكن حكومة من حزب العمال في هذه المرحلة، في رأيي، من

شأنها أن تضر التجارة البريطانية بشكل كبير، ولكن هذا لا يُعتبر شيئًا يُذكر بالمقارنة بالخطر *الحقيقي*".

صمت للحظة ثم قال بهدوء:

"ربما تكونان قد سمعتما أو قرأتما عن وجود أيد بلشفية تعمل على زيادة احتجاجات العمال، أليس كذلك؟".

أومأت توبينس برأسها.

فتابع السيد كارتر حديثه قائلاً: "هذه هي الحقيقة، إن البلشفيين يضخون أموالاً طائلة داخل البلاد بغرض إثارة ثورة. كما أن هناك رجلاً بعينه، رجلاً لا نعرف اسمه، يعمل في الخفاء من أجل الوصول لهذا الغرض. إن البلشفيين هم من يثير احتجاجات العمال - ولكن هذا الرجل هو *من يثير البلشفيين*. من هو هذا الرجل؟ لا نعلم من هو. عادة ما يتم الحديث عنه بمسمى السيد براون، ولكن هناك أمرًا واحدًا مؤكدًا، إنه أبرع مجرمي هذا العصر. إنه يرأس مؤسسة ضخمة، لقد كانت أغلب الدعاية من أجل السلام خلال الحرب من طرفه وممولة من أمواله. إن جواسيسه منتشرون في كل مكان".

سأله تومي: "هل هو ألماني؟".

قال السيد كارتر: "على العكس، إن لديَّ الكثير من الأسباب التي تدفعني للاعتقاد بأنه إنجليزي، ولكنه موالٍ للألمان، كما كان مواليًا للهولنديين. إن ما يسعى لتحقيقه أمر لا نعرفه - ربما كان يسعى للحصول على السلطة لنفسه، وهذا أمر فريد من نوعه في التاريخ. لا نمتلك أي دليل يدلنا على هويته، وقد وردتنا تقارير تنص على أنه حتى تابعوه لا يعلمون من هو. كلما اعترضنا طريقه، كان دائمًا ما يلعب دور أحد التابعين، ويتظاهر شخص آخر بأنه هو الزعيم، ولكننا سرعان ما نكتشف أنه شخص تافه - خادم أو موظف ظل يعمل في الخفاء بدون أن نلحظه، ويتمكن السيد براون المراوغ من الهرب منا مرة أخرى".

قفزت توبينس قائلة: "أوه، إني أتساءل ـــــ"

قال كارتر: "ماذا؟".

قالت توبينس: "لقد تذكرت. في مكتب السيد ويتنجتون كان الموظف يُدعى براون. ألا تعتقد أن ـــــ"

أومأ كارتر برأسه مفكرًا وقال: "من المحتمل جدًا أن يكون هو. هناك أمر غريب، وهو أن الاسم عادة ما يُذكر. إنها سمة مميزة للعباقرة. هل يمكنك أن تصفيه لي؟".

قالت توبينس: "لا يمكنني هذا، لقد بدا شخصًا عاديًا - يشبه أي شخص آخر".

تنهد السيد كارتر بطريقته المرهقة وقال:

"هذا هو الوصف الثابت للسيد براون، وقد أحضر رسالة هاتفية لـ ويتنجتون أليس كذلك؟، هل لاحظت وجود أي هاتف في المكتب الخارجي؟".

فكرت توبينس ثم قالت:

"لا، لا أعتقد هذا".

قال كارتر: "بالضبط. هذه الرسالة هي طريقة السيد براون لتوجيه الأوامر لمرءوسه. لقد سمع المحادثة التي دارت بينكما بأكملها. بعد ذلك أعطاك ويتنجتون المال وأخبرك أن تأتي في اليوم التالي، أليس كذلك؟".

أومأت توبينس برأسها موافقة.

قال السيد كارتر: "لا شك في أن هذا هو أسلوب السيد براون"، ثم توقف عن الحديث للحظة واستمر قائلاً: "حسنًا، هذا ما في الأمر، لقد رأيت ما قد تندمين عليه في المستقبل، ربما رأيت أذكى العقول الإجرامية في هذا العصر. أنا لا أحب هذا، ولكنكما ما زلتما شابين يافعين، ولا أرغب في أن يقع لكما مكروه".

طمأنته توبينس قائلة: "لن يحدث لنا شيء".

قال تومي: "سأعتني بها يا سيدي".

قالت توبينس معترضة على الثقة الرجولية لـ تومي: "أنا من سيعتني بك".

قال السيد كارتر وهو يبتسم: "حسنًا، اعتنيا بعضكما بالآخر، والآن دعونا نعد للعمل. هناك أمر غريب بشأن مسودة المعاهدة تلك لم نكتشفه بعد. لقد تم

تهديدنا بها - كانت هناك شروط واضحة وصريحة. لقد أعلنت العناصر الثورية أنها تمتلك مسودة المعاهدة، وأعلنت أنها بصدد نشرها في لحظة محددة. من ناحية أخرى، أخطأت العناصر الثورية في ذكر الكثير من بنودها. تعتقد الحكومة أن هذا الأمر مجرد خداع من جانبهم، والتزمت بسياسة الإنكار التام، سواء كانت صحيحة أم خاطئة. أنا لست واثقًا من هذا. هناك بعض التلميحات والإشارات المتسربة التي تشير إلى أن الأمر حقيقي. إن الوضع يشبه كما لو كنت تمتلك وثائق تدين شخصًا ما، ولكنك لم تستطع قراءتها لأنها مشفرة - ولكننا نعلم أن مسودة المعاهدة لم تكن مشفرة - لم تكن هناك حاجة لذلك - لذا لم ينطل الأمر علينا. ولكن هناك أمرًا ما، قد تكون جاين فين قد توفيت - ولكني لا أعتقد ذلك. الأمر الغريب هو أنهم *يحاولون أن يحصلوا على معلومات عن الفتاة منا*".

قالت توبينس: "ماذا؟".

قال كارتر: "نعم، فقد طرأ أمر أو اثنان، وكذلك قصتك تؤكد الأمر. إنهم يعلمون أننا نبحث عن جاين فين. حسنًا، سيحاولون أن يوجدوا جاين فين خاصة بهم - ربما في مدرسة داخلية في باريس"، شهقت توبينس وابتسم السيد كارتر وقال: "لا أحد يعلم كيف تبدو تلك الفتاة، لذا فلا بأس من هذا. ستكون مسلحة بقصة بطولية، ولكن غرضها الحقيقي هو الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات منا. هل فهمت؟".

توقفت توبينس للحظات لتستوعب الأمر بأكمله ثم قالت: "هل تعتقد أنهم كانوا سيرسلونني إلى باريس على أنني جاين فين؟".

كانت ابتسامة السيد كارتر تبدو مرهقة أكثر من ذي قبل وهو يقول:

"أنا أؤمن بالمصادفات، كما تعلمين".

الخامس

السيد جوليوس بي. هيرشايمر

قالت توبينس وهي تجمع شتات نفسها: "حسنًا، يبدو أن القدر قد وضعنا على هذا الطريق".

أومأ كارتر برأسه موافقًا وقال:

"أعلم ما تقصدينه، إنني أؤمن بالقدر أنا أيضًا - الحظ وأمور من هذا القبيل. يبدو أن القدر قد اختاركما لتتورطا في هذا الأمر".

غرق تومي في الضحك وقال:

"يا إلهي، لا أتعجب من ثورة ويتنجتون الشديدة عندما سمع توبينس تتلفظ بالاسم، كنت سأفعل المثل لو كنت في مكانه، ولكن اسمع يا سيدي، إننا نضيع الكثير من وقتك، هل توجد أية تعليمات ترغب في توجيهها إلينا قبل أن نغادر؟"

قال كارتر: "لا أعتقد هذا. إن الخبراء الذين يعملون معي، والذين يعملون بطريقة مكررة، فشلوا في تحقيق أي نجاح. ربما يمكنكما أن تتعاملا مع تلك المهمة بسعة الخيال والانفتاح. لا تشعرا بالإحباط إذا لم تحققا النجاح أننا أيضًا، حيث إن هناك احتمال أن تُجبرا على مواكبة سرعة الأحداث".

قطبت توبينس حاجبيها في عدم فهم.

فتابع كارتر حديثه قائلاً: "عندما التقيت بهذا المدعو ويتنجتون، كان أمامهم الكثير من الوقت ليتمكنوا من التصرف. لقد وصلتني بعض المعلومات عن حدوث *انقلاب* كبير مخطط له أن يحدث في وقت مبكر من العام الجديد، ولكن الحكومة فكرت مليًا في أعمال تشريعية من شأنها أن تتعامل بفاعلية مع التهديدات بالإضرابات، مما سيمكنهم من اكتشاف ما يحدث، إن لم يكونوا قد فعلوا بالفعل، ومن المحتمل أن يوصلهم هذا إلى العقل المدبر. آمل هذا. كلما قل الوقت المستغرق لتنفيذ مخططاتهم، كان ذلك أفضل. إنني أنبهكما فقط إلى أنكما لا تمتلكان الكثير من الوقت، وألا تشعرا بالإحباط إذا ما فشلتما. إنه ليس بالأمر السهل على أية حال".

نهضت توبينس واقفة وقالت:

"أعتقد أنه يجب علينا أن نتصرف بطريقة عملية. ما الذي يمكننا الاعتماد عليك فيه يا سيد كارتر؟".

ارتعشت شفتا السيد كارتر قليلاً ولكنه قال باقتضاب:

"تمويل في حدود المعقول، معلومات مفصلة عن أية نقطة ترغبونها، ولكن بدون أي *إقرار رسمي* بعملكما معي، بمعنى أنه إذا ما تورطتما في مشكلات مع الشرطة، فلن يمكنني مساعدتكما بشكل رسمي. إنكما بمفردكما في هذا الأمر".

أومأت توبينس برأسها وقالت:

"أنا أتفهم هذا. سأدون قائمة بالأمور التي أرغب في معرفتها إذا ما توافر لي وقت للتفكير، والآن، بالنسبة للمال ——"

قال السيد كارتر: "نعم، آنسة توبينس. هل ترغبين في تحديد مبلغ معين؟".

قالت توبينس: "ليس بالتحديد. إننا نمتلك بعض المال الذي سيكفينا في الوقت الحالي، ولكن إذا ما احتجنا إلى المزيد ——"

قال السيد كارتر: "سأكون في انتظاركما".

قالت توبينس: "نعم، ولكن - لا أرغب في أن أتحدث بوقاحة عن الحكومة أمامك، ولكنك تعلم أن المرء يقضي الكثير من الوقت حتى يحصل على أي شيء منها، وإذا ما كان علينا أن نملأ استمارة زرقاء ونرسلها للموظف المختص الذي سيرسل لنا واحدة أخرى خضراء بعد ثلاثة أشهر، وهكذا دواليك - حسنًا، فإن هذا لن يفيدنا كثيرًا، أليس كذلك؟".

ضحك السيد كارتر وقال:

"لا تقلقي يا آنسة توبينس. سترسلين طلبًا شخصيًا إليَّ هنا، وسيُرسل لكما المال نقدًا عبر البريد. أما بالنسبة للراتب، ما رأيكما في ثلاثمائة جنيه كل عام؟ والمبلغ ذاته للسيد بيريسفورد بالطبع".

ابتسمت له توبينس وقالت:

"هذا رائع، يا لك من رجل كريم. أنا أحب المال! سأدون جميع مصروفاتنا - الدائن والمدين، والفرق بينهما على الجانب الأيمن، وسأرسم خطًا أحمر في اتجاهين مع وضع المجموع في الأسفل. أنا أعلم كيف يمكنني القيام بهذا عندما أفكر فيه".

قال السيد كارتر: "أنا على ثقة من ذلك. حسنًا، إلى اللقاء، وحظًا سعيدًا".

ثم صافحهما، وفي الدقيقة التالية، كانا يهبطان الدرج خارجين من المنزل رقم ٢٧ في مجمع كارشالتون السكني وكانا يبدوان كما لو كانا مصابين بالدوار.

قالت توبينس: "تومي، أخبرني على الفور، مَن يكون السيد كارتر؟".

همس لها تومي بالاسم في أذنها.

فقالت توبينس مبهورة: "يا إلهي".

قال تومي: "ويمكنني أن أقول لكِ يا عزيزتي إنه ــــ"

قالت توبينس مرة أخرى: "يا إلهي، إنه يعجبني، وأنت أيضًا، أليس كذلك؟ إنه يبدو مرهقًا ومتململاً للغاية، ولكنك تشعر بأنه تحت هذا المظهر هناك رجل صلب، وصارم وحاد الذكاء"، ثم وثبت وهي تقول: "الكزني يا تومي، الكزني، لا يمكنني أن أصدق أنني لا أحلم".

أطاعها السيد بيريسفورد.

فقالت: "آه، هذا يكفي. نعم، إننا لا نحلم. لقد حصلنا على عمل".

قال تومي: "ويا له من عمل! إن المغامرة المشتركة قد بدأت بالفعل".

قالت توبينس: "إنه عمل محترم أكثر مما كنت أتخيل".

قال تومي: "لحسن الحظ، لم تنتقل لي عدوى اشتياقكِ لارتكاب الجرائم. ما الساعة الآن؟ دعينا نتناول الغداء - أوه".

خطرت الفكرة ذاتها على عقليهما، فقال تومي أولاً: "جوليوس بي. هيرشايمر".

قالت توبينس: "إننا لم نخبر السيد كارتر به".

قال تومي: "حسنًا، لا نعلم الكثير عنه لنخبر به السيد كارتر - ليس حتى نقابله. هيا، من الأفضل أن نستقل سيارة أجرة".

قالت توبينس: "من المسرف الآن؟".

قال تومي: "أتذكرين؟ هناك من يتحمل جميع مصروفاتنا. هيا اركبي".

قالت توبينس وهي تضطجع للخلف في أناقة: "على أية حال، من الأفضل أن نصل إلى هناك بهذه الطريقة. أنا واثقة من أن المبتزين لا يستقلون الحافلات".

وضح لها تومي الأمر قائلاً: "إننا لم نعد مبتزين".

قالت توبينس بغموض: "لا أعتقد هذا".

عندما سألا عن السيد هيرشايمر، تم اصطحابهما على الفور إلى جناحه، وسمعا صوتًا غير صبور يقول: "تفضلا بالدخول"، عندما طرق الساعي الباب، والذي تنحى جانبًا ليسمح لهما بالدخول.

كان السيد جوليوس بي. هيرشايمر أصغر سنًا بكثير من الصورة التي رسمها كل من تومي وتوبينس في مخيلتهما، فقد قدرت توبينس عمره بأنه في الخامسة والثلاثين تقريبًا. كان رجلاً متوسط الطول عريض المنكبين بما يتناسب مع فكه العريض. كانت ملامحه تحمل بعض العدوانية ولكنها تحمل قدرًا من الوسامة. كان يبدو أنه من المؤكد أن يكون أمريكيًا، على الرغم من تحدثه بلكنة ضعيفة، حين قال: "هل وصلتكما رسالتي؟ أخبراني بكل ما تعرفانه عن ابنة

عمتي".

قالت توبينس: "ابنة عمتك؟".

قال جوليوس: "نعم، جاين فين".

قالت توبينس: "هل هي ابنة عمتك؟".

وضح لها السيد هيرشايمر الأمر قائلاً: "والدي ووالدتها كانا أخوين".

صاحت توبينس قائلة: "أوه، إذن، هل تعرف أين هي؟".

قال السيد هيرشايمر وهو يضرب سطح الطاولة بقبضته: "لا، اللعنة عليَّ إن كنت أعرف مكانها، أليس كذلك؟".

قالت توبينس بحدة: "لقد نشرنا إعلاننا بغرض الحصول على المعلومات وليس من أجل تقديمها".

قال السيد هيرشايمر: "أعتقد أنني أدرك هذا، فأنا أعرف القراءة، ولكني أعتقدت أنه ربما كنتما تبحثان في تاريخها الماضي، وأنكما تعرفان أين هي الآن".

قالت توبينس بحذر: "حسنًا، ربما لا يكون لديك مانع في إخبارنا بتاريخها الماضي".

ولكن بدا أن ارتياب السيد هيرشايمر قد تزايد بشكل مفاجئ فقال:

"اسمعي. إننا لسنا في صقلية، لا توجد أية فدية أو تهديد بقطع أذنيها إذا ما رفضت دفعها. إننا هنا في الجزر البريطانية، لذا توقفي عن العبث معي، وإلا سأطلب رجل الشرطة البريطاني الوسيم هذا الذي يسير في شارع بيكاديللي".

أسرع تومي بشرح الأمر له قائلاً:

"إننا لم نختطف ابنة عمتك، بل على النقيض، إننا نحاول إيجادها. لقد تم إسناد هذا العمل لنا".

اتكأ السيد هيرشايمر في جلسته.

وقال باقتضاب: "أخبرني بالأمر".

لم يتمكن تومي من التملص من هذا الطلب، لذا أعطاه نسخة منمقة من قضية اختفاء جاين فين، واحتمالية أن تكون قد تورطت، بدون وعي منها، في "بعض الصراعات السياسية". قدم نفسه وتوبينس على أنهما "وكلاء تحقيقات خاصة" تم إسناد مهمة العثور عليها إليهما، وأضاف بأنهما سيكونان سعيدين بأية معلومات قد يقدمها لهما السيد هيرشايمر.

أومأ الرجل النبيل برأسه موافقًا.

وقال: "أعتقد أن الخطأ خطئي، لقد كنت متسرعًا في الحكم عليكما، ولكن لندن تضايقني كثيرًا، فأنا لم أغادر نيويورك من قبل. اطرحا أسئلتكما وسأجيب عليها".

في تلك اللحظة تجمد المغامران الشابان، ولكن جمعت توبينس رباطة جأشها، وبدأت بطرح الأسئلة بجرأة اكتسبتها من قراءة الروايات البوليسية:

"متى كانت آخر مرة رأيت فيها القتيلة - أقصد ابنة عمتك؟".

أجابها السيد هيرشايمر: "أنا لم أرها في حياتي".

قال تومي بدهشة شديدة: "ماذا؟".

نظر السيد هيرشايمر إليه وقال:

"لا يا سيدي، كما قلت من قبل كان والدي ووالدتها أخوين، كما يمكن أن يحدث في عائلتك" - لم يحاول تومي تصحيح هيئة علاقتهم - "ولكنهما لم يكونا على وفاق دائمًا. عندما قررت عمتي أن تتزوج من آموس فين، الذي كان مجرد مدرس فقير من الغرب، جن جنون أبي، وقال إنه إن كون ثروة كبيرة، فإنها لن تحصل على سنت منها، وكانت النتيجة أن عمتي جاين ذهبت للغرب ولم نعرف شيئًا عنها منذ ذلك الحين.

وبالفعل، تمكن والدي من تكوين ثروة ضخمة، فقد بدأ العمل في مجال البترول والحديد والصلب وعمل قليلاً في السكك الحديدية، ويمكنني أن أقول لك أنه من أقام شارع وال ستريت"، ثم توقف عن الحديث قليلاً وعاد ليقول: "ثم مات - الخريف الماضي - وورثت أنا كل ثروته، ولكن، استيقظ ضميري، فقد ظل يؤرقني ويقول: ماذا عن عمتك جاين التي تعيش في الغرب؟ لقد أرقني

ذلك كثيرًا. أعتقدت أن آموس فين لم يتمكن قط من تكوين ثروة، حيث إنه لم يكن من هذه النوعية من الناس. في النهاية استأجرت رجلًا ليبحث عنها، وعلم أنها ماتت، وأن آموس فين قد مات، ولكنهما تركا خلفهما ابنة - جاين - التي تم إطلاق الطوربيد على السفينة لوزيتانيا التي كانت تستقلها في طريقها إلى باريس. لقد تم إنقاذها، ولكن لم يعرف أي شخص أي شيء عنها منذ ذلك الحين. اعتقدت أن السلطات هنا لم تبذل الجهد الكافي لإيجادها، لذا فكرت في الحضور وأحاول أن أسرع من الأمور. لقد اتصلت بشرطة سكوتلانديارد وديوان البحرية الملكية في البداية. ردني ديوان البحرية الملكية خائبًا، في حين كانت شرطة سكوتلانديارد متحضرة للغاية - قالوا إنهم سيقومون بالتحقيق في الأمر، حتى إنهم أرسلوا لي رجلًا هذا الصباح ليحصل على صورتها. سأسافر إلى باريس غدًا لأرى ما تفعله السلطات هناك بهذا الشأن، فأنا أعتقد أنني إن ذهبت إلى هناك وتعجلتهم فربما يهتمون بالأمر".

كانت حيوية السيد هيرشايمر هائلة مما زاد من احترامهما إياه.

اختتم السيد هيرشايمر حديثه قائلاً: "يجدر بي القول الآن، إنكما لا تحاولان العثور عليها من أجل شيء محدد، أليس كذلك؟ من أجل أمر فعلته مخالف للقانون أو أمر لا يفهمه سوى البريطانيين؟ إن الفتاة الأمريكية الفخورة بذاتها قد تجد قواعدكم وقوانينكم في حالة الحرب مزعجة، وربما تنهض لتتحداها. إذا كان الأمر على هذا المنوال، وكان هناك أمر ما مثل الرشوة في هذه البلاد، فسأقوم بدفعها عن طيب خاطر".

طمأنته توبينس قائلة:

"هذا جيد، يمكننا إذن أن نعمل معًا. ماذا عن تقديم الغداء لنا؟ هل يمكننا تناوله هنا في جناحك أم نهبط لتناوله في المطعم؟".

لمحت توبينس لتفضيلها للخيار الثاني واتفق معها جوليوس في القرار الذي اتخذته.

كان طبق المحار قد أخذ مكانه بجانب طبق صوص سول كولبرت على الطاولة عندما وصلت بطاقة تعريف إلى السيد هيرشايمر الذي قال:

"المحقق جاب، كبير محققين آخر من سكوتلانديارد. رجل مختلف هذه المرة. ماذا قد يتوقع هذا الشخص أن أقول له ولم أقله للرجل الأول؟ آمل ألا يكونوا قد أضاعوا تلك الصورة. إن أستوديو التصوير الذي اُلتقطت فيه الصورة في الغرب الأمريكي قد أُحرق ودُمرت جميع الأفلام السلبية التي كان يحتويها - إنها الصورة الوحيدة التي أملكها. لقد حصلت عليها من رئيس الكلية التي كانت تدرس بها هناك".

شعرت توبينس بشعور مبهم بالقلق فقالت:

"هل تعلم اسم الرجل الذي حضر هذا الصباح؟".

قال السيد هيرشايمر: "نعم، أعلمه. لا، لا أعلمه. أمهليني ثانية. لقد كان الاسم مكتوبًا على بطاقته. آه، لقد تذكرت. المحقق براون. شاب بسيط للغاية".

السادس

التخطيط للمهمة

كشفت أحداث نصف الساعة التالية النقاب عن الكثير من الحقائق. يكفي القول إنه لم يكن هناك شخص يُدعى المحقق براون في شرطة سكوتلانديارد، وأن صورة جاين فين التي كانت ستفيد الشرطة كثيرًا في مهمة البحث عنها قد فُقدت دون رجعة. لقد انتصر السيد براون مرة أخرى.

كان لهذه العقبة تأثير إيجابي فوري على التقارب بين السيد هيرشايمر والمغامرين الشابين، فقد سقطت جميع الحواجز التي كانت تفصل بينهم، وشعر كل من تومي وتوبينس بأنهما يعرفان هذا الشاب الأمريكي طوال عمريهما، لذا فقد تخليا عن انتحال شخصية "وكلاء التحقيقات الخاصة"، وأماطا اللثام عن القصة الكاملة للمغامرة المشتركة، حيث أعلن الشاب أنه قد "يضحك حتى الموت".

في نهاية الحديث، التفت الشاب نحو توبينس وقال:

"لطالما راودتني فكرة أن الفتيات الإنجليزيات مكسوات بالطحالب - محافظات وفاتنات، ولكنهن يخفن من التحرك بمفردهن بدون اصطحاب أحد الخدم أو عمة عانس. أعتقد أن هذا الوقت قد ولى".

كانت نتيجة هذه العلاقات الجديدة أن تومي وتوبينس اتخذا من فندق الريتز على الفور مكان إقامة لهما لكي - كما قالت توبينس - يظلوا على اتصال مع آخر معارف جاين فين الأحياء، حيث أضافت لـ تومي قائلة في صوت منخفض: "بهذه الطريقة لن يناقشنا أحد في المصروفات".

ولم يفعل أحد، الأمر الذي كان رائعًا.

قالت الفتاة الشابة في الليلة التالية لتعيينهما: "والآن، إلى العمل".

نحى السيد بيريسفورد جريدة *الدايلي ميل* التي كان يقرؤها، وصفق بحبور غير ضروري، فطلبت منه زميلته بأدب ألا يكون أحمق، حيث قالت:

"دعك من كل هذا يا تومي، يجب أن نفعل شيئًا ما مقابل ما نحصل عليه من أموال".

تنهد تومي وقال:

"نعم، أخشى أنه حتى الحكومة العزيزة لن ترضى ببقائنا في فندق الريتز للأبد".

قالت توبينس: "لهذا السبب أقول لك إنه علينا أن *نفعل* شيئًا ما".

قال تومي وهو يمسك بجريدة *الدايلي ميل* مرة أخرى: "حسنًا، هيا، لن أمنعك".

تابعت توبينس حديثها قائلة: "اسمع، لقد كنت أفكر ——"

قطع حديثها وصلة جديدة من التصفيق.

فقالت: "إنك مسرور بجلوسك ها هنا لتتصرف بشكل فكاهي يا تومي. لن يضرك أن تفكر في الأمر قليلاً".

قال تومي: "نقابتي يا توبينس هي السبب. إن النقابة لا تسمح لنا بالعمل قبل الحادية عشرة صباحًا".

قالت توبينس: "تومي، هل تريد أن أقذف عليك شيئًا ما؟ من الضروري، ودون أي احتمال للتأخير، أن نضع خطة محكمة لأداء مهمتنا".

قال تومي: "حسنًا".

قالت توبينس: "لنبدأ في وضعها إذن".

وضع تومي الجريدة جانبًا أخيرًا وقال: "إنك تتمتعين بقدر كبير من الذكاء يا توبينس، هيا، كلي آذان مصغية".

قالت توبينس: "بادئ ذي بدء. ماذا نملك في الوقت الحالي؟".

قال تومي: "لا شيء على الإطلاق".

قالت توبينس وهي تلوح بإصبعها: "خطأ. إننا نملك دليلين مختلفين".

قال تومي: "وما هما؟".

قالت توبينس: "الدليل الأول هو أننا نعرف أحد أفراد العصابة".

قال تومي: "ويتنجتون؟".

قالت توبينس: "نعم، يمكنني أن أعرفه إذا رأيته".

قال تومي متشككًا: "لا يمكنني أن أطلق على هذا الأمر دليلاً. إنك لا تعرفين أين تبحثين عنه، وهناك احتمال ضئيل للغاية أن تلتقيه بالمصادفة".

قالت توبينس: "لست واثقة من هذا، لطالما لاحظت أنه بمجرد أن تبدأ المصادفات في الحدوث، فإنها تستمر بالحدوث بطرق استثنائية. أعتقد أن هذا أحد مبادئ علم الطبيعيات التي لم نكتشفها بعد. ولكن، كما قلت، لا يمكننا الاعتماد على هذا الأمر كدليل، ولكن هناك بعض الأماكن في لندن يجب أن يظهر فيها الجميع إن آجلاً أو عاجلاً - سيرك بكاديللي على سبيل المثال. فكرتي هي أنني سأقف هناك كل يوم حاملة بعض الأعلام".

سألها تومي: "وماذا عن الطعام؟".

قالت توبينس: "يا لك من رجل! فيم يهمنا الطعام حاليًا؟".

قال تومي: "يهمنا كثيرًا. لقد تناولت الكثير من الطعام على الإفطار. لا يوجد على وجه الأرض من يمتلك مثل شهيتك للطعام يا توبينس، وبحلول وقت الشاي ستكونين قد التهمت الأعلام والدبابيس وكل شيء، ولكن، صراحة، لا تعجبني هذه الفكرة، فربما يكون ويتنجتون قد رحل عن لندن".

قالت توبينس: "هذا صحيح. على أية حال، أعتقد أن الدليل الثاني سيكون أفضل".

قال تومي: "أخبريني به".

قالت توبينس: "إنه ليس بالأمر الصعب، مجرد اسم - ريتا. لقد ذكر ويتنجتون هذا الاسم في أثناء لقائنا".

قال تومي: "هل ترغبين في نشر إعلان آخر يقول: مطلوب محتالة اسمها ريتا؟".

قالت توبينس: "بالطبع لا، بل أحاول أن أفكر في الأمر بطريقة منطقية. هذا الرجل دانفرز، تم تتبعه طوال رحلته، أليس كذلك؟ ومن الأكثر ترجيحًا أن يكون من تتبعه امرأة وليس رجلاً ——".

قال تومي: "لا يمكنني تأكيد هذا".

قالت توبينس: "أنا واثقة من أن مَن تتبعه امرأة، وامرأة جميلة أيضًا".

قال تومي: "في مثل هذه الأمور التقنية، لا يسعني سوى الانحناء لك احترامًا".

قالت توبينس: "يبدو أن هذه المرأة، أيًا كانت، قد نجت من الحادثة".

قال تومي: "كيف تثقين في هذا؟".

قالت توبينس: "إن لم تكن قد نجت، فكيف عرفوا أن جاين فين قد حصلت على الوثائق؟".

قال تومي: "صحيح، أكملي يا شيرلوك".

قالت توبينس: "أعتقد أن هناك فرصة، مجرد فرصة، أن تكون هذه المرأة هي ريتا".

قال تومي: "وماذا لو كانت هي؟".

قالت توبينس: "إذا كانت هي، فعلينا أن نبحث في قوائم الناجين من *لوزيتانيا* حتى نعثر عليها".

قال تومي: "إذن، علينا أولاً أن نحصل على قائمة الناجين من السفينة الغارقة".

قالت توبينس: "لقد حصلت عليها. لقد كتبت لائحة طويلة بالأمور التي أرغب في معرفتها وأرسلتها للسيد كارتر، وقد وصلني رده هذا الصباح، ومن بينها القائمة الرسمية بأسماء الناجين من السفينة *لوزيتانيا*. ما رأيك في توبينس الماهرة؟".

قال تومي: "أعطيك الدرجة النهائية في الحرفية وصفرًا في التواضع، ولكن الأمر المهم هو، هل يوجد اسم ريتا بين قوائم الناجين؟".

أقرت توبينس قائلة: "هذا ما لا أعلمه".

قال تومي: "لا تعلمين؟".

قالت توبينس: "نعم، انظر"، وانحنى كلاهما على القائمة وقالت توبينس: "هناك عدد قليل من الأسماء الأولى هنا، جميعها تقريبًا أسماء عائلات".

أومأ تومي برأسه موافقًا.

وقال: "لقد زاد الأمر تعقيدًا".

هزت توبينس رأسها بطريقتها المعتادة التي تشبه طريقة الكلاب وقالت: "حسنًا، سيكون علينا أن نعرف من هي، هذا كل ما في الأمر. حدد فقط جميع عناوين النساء اللواتي يسكن في لندن أو حولها بينما أرتدي أنا قبعتي".

بعد خمس دقائق كان الشابان قد خرجا إلى شارع بيكاديللي، وبعد لحظات كانا قد استقلا سيارة أجرة متوجهين نحو منزل لوريلز رقم ٧ بشارع جليندور، حيث تسكن السيدة إدجار كيث التي حل اسمها على رأس القائمة المكونة من سبعة أسماء دوّنها تومي في مفكرته.

كان منزل لوريلز منزلاً قديمًا، وكانت تحيط به بعض الشجيرات المتسخة تعطي مظهر الحديقة الأمامية. دفع تومي أجرة السيارة، وسار بجانب توبينس وصولاً إلى جرس الباب، وبينما كانت على وشك قرع الجرس، أمسك تومي بيدها قائلاً: "بم ستخبرينها؟".

قالت توبينس: "بم سأخبرها؟ سأقول - يا إلهي، لا أعلم. يا له من أمر مزعج".

قال تومي برضا: "لقد فكرت في الأمر. يا لك من امرأة! إنك لا تمتلكين بعد نظر على الإطلاق. تنحي جانبًا، وشاهدي كيف يتعامل الرجال في مثل هذه المواقف"، ثم قرع جرس الباب، وتنحت توبينس جانبًا.

فتحت الباب خادمة قذرة ذات وجه قذر وكانت حولاء.

أخرج تومي مفكرة وقلمًا.

وقال: "صباح الخير، نحن من مجلس مقاطعة هامبستيد، ونعمل على سجلات التصويت الجديدة. هل تسكن السيدة إدجار كيث هنا؟".

قالت الخادمة: "نعم".

قال تومي وهو يبرز قلمه الرصاص: "ما هو اسمها الأول من فضلك؟".

قالت الخادمة: "السيدة؟ إليانور جاين".

قال تومي: "إليانور. هل هناك أي أبناء قد تخطوا العشرين عامًا؟".

قالت الخادمة: "لا".

أغلق تومي مفكرته بصوت عال وقال: "شكرًا لك، عمت صباحًا".

عبرت الخادمة عن أول تعليق لها وقالت:

"لقد اعتقدت أنكما قد أتيتما من أجل الغاز"، ثم أغلقت الباب.

عاد تومي إلى زميلته وقال:

"هل رأيت كيف يبلي الرجال عندما يفكرون في الأمر".

قالت توبينس: "لا أمانع في الاعتراف بأنك قد تصرفت على نحو رائع. إنني لم أفكر في هذا أبدًا".

قال تومي: "تمثيلية جيدة، أليس كذلك؟ ويمكننا تكرارها مرارًا وتكرارًا".

بحلول وقت الغداء، كان الشابان يلتهمان شرائح اللحم والبطاطس المقلية بشراهة في أحد المطاعم، وكانا قد استعلما عن كل من جلاديس ماري ومارجوري، ولكن حيرهما أن إحداهما كانت قد انتقلت من مسكنها، واضطرا

إلـى الاستمـاع إلى محاضرة طويلة عن نظام الاقتـراع الشامل من امرأة أمريكية مفعمة بالنشاط، التي كان اسمها الأول سادي.

قال تومي وهو يرتشف رشفة طويلة من شرابه: "أشعر بأنني في حال أفضل. إلى أين سنذهب بعد ذلك؟".

كانت المفكرة موضوعة على الطاولة بينهما، فالتقطتها توبينس وقالت: "السيدة فينديماير، المنزل رقم ٢٠ عمارات ساوث أودلي السكنية. الآنسة ويلر، المنزل رقم ٤٣ شارع كلابينجتون، حي باتريسيا. إنها خادمة على ما أتذكر، لذا ربما لا تكون متواجدة في هذا العنوان، على أية حال من غير المرجح أن تكون هي".

قال تومي: "إذن فإن السيدة الأنيقة هي محطتنا التالية".

قالت توبينس: "تومي، لقد بدأت أشعر بالإحباط".

قال تومي: "تشجعي يا عزيزتي. لطالما عرفنا أن فرصنا في النجاح ضئيلة. وعلى أية حال، لقد بدأنا للتو. إذا لم يحالفنا الحظ في لندن، فهناك الكثير من الأسماء التي تعيش في أنحاء أخرى من إنجلترا، وكذلك إسكتلندا وأيرلندا".

قالت توبينس وهي تستعيد معنويتها العالية: "هذا صحيح. كما أن هناك من يتحمل جميع مصروفاتنا، ولكني يا تومي أحب أن أحصل على نتائج سريعة. حتى الآن، نجحت المغامرة في أن تكون مغامرة، ولكن هذا الصباح كان كئيبًا للغاية".

قال تومي: "يجب أن تكبتي لهفتك السوقية تلك، تذكري أن السيد براون رجل خطير للغاية، ومن العجيب أنه لم يقتلنا حتى الآن. إنها جملة جميلة، بها حس أدبي جيد".

قالت توبينس: "إنك أكثر مني غرورًا - ولكن بدون مهارة تُذكر. ولكن الأمر الغريب بالفعل هو أن السيد براون لم ينتقم منا حتى الآن (أترى، يمكنني أن أكوّن جملة جميلة مثلما فعلت). إننا نواصل طريقنا دون أن نصاب بأذى".

قال تومي: "ربما كان يعتقد أننا لا نشكل أية خطورة".

اعترضت توبينس على عبارته بشدة قائلة:

"يا لك من مزعج، يا تومي، كما لو أننا لسنا في حسبان أحد".

قال تومي: "آسف يا توبينس، ولكن ما كنت أعنيه هو أننا نعمل في الخفاء وأنه لا يرتاب فيما نفعله، هاها".

حاكت توبينس كلماته الأخيرة وهى تنهض واقفة: "ها، ها".

كانت عمارات ساوث أودلي السكنية عمارات فخمة بالقرب من طريق المتنزه، وكانت الشقة رقم ٢٠ تقع في الطابق الثاني.

كان تومي في تلك اللحظة قد أصبح متمرسًا في لعب دوره، حيث كان يتحدث بثقة مع امرأة مسنة كانت تبدو مديرة منزل أكثر من كونها خادمة، والتي كانت قد فتحت الباب له، حيث قال:

"الاسم الأول من فضلك؟".

قالت السيدة: "مارجريت".

بدأ تومي في تهجئة الاسم عندما أوقفته السيدة قائلة:

"مارجريت".

قال تومي: "مارجريت، بالنطق الفرنسي، لقد فهمت". ثم توقف قليلاً عن الحديث، وتابع حديثه بجرأة قائلاً: "لقد دوّن هنا أن اسمها ريتا فاندرماير، ولكني أعتقد أن هذا صحيح؟".

قالت السيدة: "إنها عادة ما يُطلق عليها هذا الاسم، ولكن مارجريت هو اسمها الحقيقي".

قال تومي: "شكرًا جزيلاً، هذا كل شيء، وداعًا".

تمالك تومي نفسه بصعوبة، وهبط الدرج مسرعًا ووصل إلى حيث كانت توبينس تنتظره على حافة الدرج وقال:

"هل سمعت؟".

قالت توبينس: "نعم يا تومي".

ضغط تومي على ذراعها في شفقة وقال:

"أنا أعلم يا عزيزتي، فأنا أشعر بمثل ما تشعرين".

صاحت توبينس بحماس: "من الجيد أن تفكر في الأمر - ثم يتحقق ما خططت له تمامًا".

كانت يدها لا تزال في يد تومي إلى أن وصلا إلى مدخل المبنى، وكان هناك صوت خطوات وأصوات تأتي على الدرج من الطابق الذي يعلوهما.

فجأة، ولدهشة تومي، جذبته توبينس داخل فراغ صغير مظلم بجانب المصعد، فقال تومي:

"ما الأمر ــــ"

قالت توبينس: "صه!".

هبط رجلان الدرج ومرا من أمامهما وخرجا من مدخل المبنى، وضغطت توبينس بيدها على ذراع تومي بشدة وهي تقول:

"أسرع - اتبعهما. أنا لا يمكنني هذا، فربما يعرفني. أنا لا أعرف من الرجل الآخر، ولكن الرجل الأضخم هو ويتنجتون".

السابع

منزل في سوهو

كان ويتنجتون والرجل الذي معه يسيران بسرعة. بدأ تومي في تتبعهما على الفور، حيث رآهما في ذلك الوقت يدوران حول ناصية الشارع. سرعان ما مكنته خطواته النشطة من أن يلحق بهما، وفي اللحظة التي وصل فيها إلى ناصية الشارع، كانت المسافة بينهما قد تقلصت إلى حد كبير. كانت الشوارع الصغيرة لحي مايفاير خالية من المارة، وقرر أن يحتفظ بمسافة معقولة بينه وبينهما.

كان الأمر جديدًا على تومي، فعلى الرغم من أنه قد اطلع على بعض تقنيات التتبع من الروايات البوليسية، إلا أنه لم يحاول من قبل أن "يتتبع" شخصًا ما على أرض الواقع، وبدا له الأمر على الفور، عند ممارسته على أرض الواقع، محفوفًا بالصعوبات. ماذا لو استقلا سيارة أجرة بشكل مفاجئ؟ في الروايات، كل ما على البطل فعله هو أن يقفز في سيارة أجرة أخرى، وأن يعد السائق بجنيه ذهبي - أو ما يعادله في العصر الحديث - وتبدأ الملاحقة. على أرض الواقع، توقع تومي أنه من غير المرجح أن يتمكن من العثور على سيارة أجرة أخرى، لذا سيكون عليه أن يعدو خلف سيارتهما. ماذا قد يحدث على أرض الواقع إذا ما قام شاب بالعدو في شوارع لندن بمثابرة بدون انقطاع؟ قد يأمل أن يترك انطباعًا،

في الشوارع الرئيسية، بأنه يعدو للحاق بالحافلة، ولكن في هذه الشوارع الجانبية الأرستقراطية، من المتوقع أن يوقفه أحد رجال الشرطة ليستطلع سبب عدوه.

عندما راودته هذه الأفكار، رأى تومي سيارة أجرة رافعة العلم الذي يدل على أنها خالية من الركاب تدور حول ناصية الشارع أمامه، فحبس تومي أنفاسه وفكر في نفسه، هل سيوقفانها؟

تنهد تومي في راحة عندما لم يلتفت الرجلان لها. كان مسارهما المتعرج مصممًا لأن يوصلهما بسرعة إلى شارع أوكسفورد. عندما رآهما من بعيد يستديران للدخول إلى شارع أوكسفورد ويتوجهان نحو الشرق، زاد تومي من سرعته ليلحق بهما. على الرصيف المزدحم، كان من غير المرجح أن يلفت وجود تومي انتباههما، وكان يسعى لأن يسمع بعضًا من كلمات محادثتهما، ولكنه لم يتمكن من هذا: فقد كانا يتحدثان بصوت منخفض، كما أن ضوضاء السيارات كانت أعلى كثيرًا من صوتهما.

قبل أن يصلا إلى محطة قطار الأنفاق بشارع بوند، عبرا الطريق إلى الجهة الأخرى، وعبر تومي هو الآخر الطريق بدون أن يلاحظاه، ودخل مقهى ليونز الكبير، حيث كان الرجلان قد صعدا إلى الطابق الأول وجلسا إلى إحدى الطاولات الصغيرة بجوار النافذة. كان الوقت متأخرًا وكان المقهى مزدحمًا عن آخره. جلس تومي إلى إحدى الطاولات المجاورة لهما واتخذ المقعد الذي يقع خلف ويتنجتون مباشرة ليقلل من فرص ملاحظته له. مكن له موقعه من أن يفحص الرجل الآخر بدقة. كان الرجل أشقر ذا وجه ضعيف وقبيح، وقد توقع تومي أن يكون إما روسيًا أو بولنديًا. كان الرجل يبلغ من العمر خمسين عامًا تقريبًا، وكانت كتفاه تنكمشان قليلاً عندما يتحدث، وكانت عيناه صغيرتين وماكرتين وكانتا تتحركان في جميع الاتجاهات بدون توقف.

كان تومي قد تناول غداءً جيدًا، لذا فقد طلب طبقًا من الجبن الأيرلندي المذاب وقدحًا من القهوة. طلب ويتنجتون غداءً ضخمًا لنفسه ومن معه، وبعد أن انصرفت النادلة، قام ويتنجتون بسحب مقعده بالقرب من الطاولة وبدأ في التحدث مع الرجل الآخر بجدية وبصوت منخفض، وانخرط الرجل الآخر معه

في الحديث. لم يتمكن تومي من أن يلتقط من حديثهما سوى بضع كلمات متفرقة استخلص منها تومي أن الرجل الضخم كان يحاول إقناع الرجل الآخر بأمر ما كان يبدو الرجل الآخر من وقت لآخر غير موافق عليه. كان ويتنجتون ينادي الرجل باسم بوريس.

التقطت أذنا تومي كلمة "أيرلندا" بضع مرات، وكذلك كلمة "دعاية"، ولكنهما لم يذكرا جاين فين على الإطلاق. فجأة، هدأت الضوضاء في الغرفة فتمكن تومي من سماع عبارة كاملة قالها ويتنجتون: "آه، ولكنك لا تعرف فلوسي، إنها رائعة لدرجة أن رجل الدين قد يُقسم إنها والدته، إنها قادرة على تقليد الأصوات بدقة في كل مرة، وهذا أمر لا يمكن تجاهله".

لم يتمكن تومي من سماع رد بوريس، ولكن كان رد ويتنجتون على ما قاله بوريس أن قال: "بالطبع - عند الطوارئ فقط..."

ثم فقد تومي مسار الحديث مرة أخرى، ولكن بدأت العبارات تتضح مرة أخرى، إما بسبب أن الرجلين قد بدأ صوتهما يعلو بدون إدراك منهما، أو لأن أذني تومي قد بدأتا في الاعتياد على استراق السمع، ولكنه لم يتمكن من تحديد السبب بدقة. كانت هناك كلمتان قد أثارتا كل حواسه، وكان قد قالهما بوريس: "السيد براون".

كان يبدو أن ويتنجتون يعترض عليه، ولكنه ضحك بدون اهتمام وقال:

"ولم لا يا صديقي؟ إنه اسم يحظى بالكثير من الاحترام - كما أنه شائع للغاية. ألم يقم باختياره لهذا السبب؟ آه، كما أنني أرغب في لقاء السيد براون".

كانت هناك نبرة حادة في صوت ويتنجتون وهو يقول:

"من يعلم؟ ربما تكون قد قابلته بالفعل".

أجابه بوريس بالنبرة ذاتها قائلاً: "هراء، هذا كلام أطفال! إنها قصة قد صدقها الشرطة. هل تعلم ما أخبر به نفسي في بعض الأحيان؟ أنه مجرد قصة ابتكرتها الجماعة الداخلية - وحش ليخيفنا. ربما يكون كذلك بالفعل".

قال ويتنجتون: "وربما لا".

قال بوريس: "إني أتساءل... هل هو موجود بالفعل معنا وبيننا، وأن لا أحد يعرفه سوى قلة مختارة؟ إذا كان الأمر كذلك، فهو بارع في إخفاء سره، كما أن الفكرة جيدة، نعم. لن نعرف هذا أبدًا. إننا ننظر لبعضنا ونقول - *أحدنا هو السيد براون* - من هو؟ إنه يأمر - ولكنه يخدم أيضًا. بيننا - وسطنا، ولا يعلم أحد من هو..."

تمكن الرجل الروسي من أن ينزع نفسه من أوهامه بصعوبة، ونظر إلى ساعته.

فقال ويتنجتون: "نعم، علينا أن ننصرف الآن".

استدعى ويتنجتون النادلة وطلب منها الحساب، وفعل تومي المثل، وبعد لحظات كان يتبع الرجلين هابطًا على الدرج.

في الخارج، أوقف ويتنجتون سيارة أجرى، وأخبر السائق بأن يتوجه إلى واترلو.

كانت سيارات الأجرة كثيرة في هذه المنطقة، وقبل أن تبدأ السيارة التي استقلها ويتنجتون في الحركة، كان تومي قد أوقف سيارة أخرى وقفز داخلها.

قال تومي للسائق: "اتبع سيارة الأجرة تلك، ولا تجعلها تغيب عن ناظريك".

لم يبدُ الاهتمام على السائق المسن، فكل ما فعله هو أن أطلق صوتًا غير مفهوم وقام بإنزال علمه. كانت الرحلة بالسيارة هادئة للغاية، فقد وصلت سيارة الأجرة التي يستقلها تومي إلى محطة القطار بعد سيارة ويتنجتون مباشرة. كان تومي يقف خلف ويتنجتون أمام شباك حجز التذاكر. قام ويتنجتون بحجز تذكرة إلى بورتسموث، ففعل تومي مثلما فعل، وعندما خرج من الطابور، قال بوريس وهو ينظر إلى ساعته: "لقد وصلنا مبكرًا، ما زال أمامنا نصف الساعة على موعد القطار".

أيقظت كلمات بوريس سلسلة من الأفكار في عقل تومي، كان من المؤكد أن ويتنجتون سيقوم بالرحلة بمفرده، في حين سيبقى الرجل الآخر في لندن. لذا، فقد أصبح أمام خيارين. من الواضح أنه لن يتمكن من ملاحقة الرجلين في الوقت ذاته، إلا إذا - فعل في ذلك الوقت مثلما فعل بوريس، حيث نظر إلى

ساعته، ثم نظر إلى لوحة مواعيد القطارات. كان القطار المتجه إلى بورتسموث سيغادر في تمام الثالثة والنصف، وكانت الساعة الآن تشير إلى الثالثة إلا عشر دقائق. كان ويتنجتون وبوريس يتحركان جيئة وذهابًا بجانب كشك الكتب. ألقى نظرة خاطفة عليهما ثم أسرع إلى داخل كشك أحد الهواتف العمومية القريبة. لم يغامر بإضاعة الوقت في محاولة العثور على توبينس، فربما كانت لا تزال في الحي الذي تقع فيه عمارات ساوث أودلي السكنية، ولكن كان هناك حليف آخر، لذلك اتصل هاتفيًا بفندق الريتز وطلب التحدث مع السيد جوليوس هيرشايمر. بعد ذلك سمع صوت طقطقة ثم صوت طنين. آه لو كان الأمريكي الشاب في غرفته. سمع بعد ذلك صوت طقطقة أخرى، ثم صوتًا يقول: "مرحبًا"، وكانت لغة الصوت مألوفة على أذني تومي.

قال تومي: "هل أنت هيرشايمر؟، أنا بيريسفورد. أنا في محطة قطار واترلو. لقد كنت أتبع ويتنجتون وشخصًا آخر. لا يوجد وقت للشرح. سيغادر ويتنجتون إلى بورتسموث في الثالثة والنصف. هل يمكنك أن تأتي إلى هنا على الفور؟".

كان رد هيرشايمر مطمئنًا حيث قال:

"سآتي على الفور".

وضع تومي سماعة الهاتف مكانها وهو يتنهد في راحة، فقد كان واثقًا من قدرة جوليوس على الحضور بسرعة معقولة. كان يشعر بأن الأمريكي سيصل في الوقت المناسب.

كان ويتنجتون وبوريس لا يزالان في المكان نفسه الذي تركهما فيه تومي منذ قليل. إذا ما انتظر بوريس ليودع صديقه، فإن كل شيء سيسير على خير ما يرام. وضع تومي يده في جيبه بعد ذلك. على الرغم من التصريح المالي المفتوح الذي أعطي له، إلا أنه لم يعتد بعد التجول وهو يحمل مبالغ معقولة من المال. إن شراء تذكرة الدرجة الأولى إلى بورتسموث لم تترك معه سوى بضعة شلنات. بدأ يأمل في أن يصل جوليوس وهو يحمل بعض المال.

في الوقت ذاته، كانت الساعة تقترب من: الثالثة والربع، الثالثة والثلث، الثالثة والنصف إلا خمس دقائق، الثالثة والنصف إلا ثلاث دقائق. ماذا لو لم

يصل جوليوس إلى هنا في الوقت المحدد. الثالثة والنصف إلا دقيقة واحدة بدأت أبواب القطار في التخبط استعدادًا لتُغلق، وشعر تومي بموجة باردة من الإحباط تجتاح جسده حين شعر بيد توضع على كتفه.

قال جوليوس: "ها أنا ذا. إن ازدحام المرور في لندن يفوق الوصف. أخبرني بالمحتالين اللذين كنت تتحدث عنهما".

قال تومي: "هذا ويتنجتون - هناك، الذي يصعد للقطار الآن، والآخر هو الرجل الأجنبي الذي يتحدث معه".

قال جوليوس: "لقد رأيتهما، مَن منهما سأتبع؟".

كان تومي قد قرر ما سيفعله إجابة على هذا السؤال.

فقال لـ جوليوس: "هل معك بعض المال؟".

هز جوليوس رأسه نفيًا، فامتقع وجه تومي بشدة.

فقال الأمريكي: "أعتقد أنني لا أحمل سوى ثلاثمائة أو أربعمائة دولار أمريكي في الوقت الحالي".

تنهد تومي في ارتياح وقال:

"يا إلهي، أنت مليونير، إنك لا تتحدث لغتي. اصعد إلى القطار، ها هي تذكرتك. ستتبع ويتنجتون".

قال جوليوس بحزن وقد بدأ القطار في التحرك بمجرد أن صعد إليه: "أنا سأتبع ويتنجتون، إلى اللقاء يا تومي"، ثم غادر القطار المحطة.

تنهد تومي بعمق. كان بوريس يتوجه نحوه على رصيف محطة القطار، فتركه تومي يمر ثم بدأ في ملاحقته مرة أخرى.

من محطة واترلو، استقل بوريس قطار الأنفاق حتى شارع سيرك بيكاديللي، ثم توجه سيرًا على الأقدام نحو شارع شافتسبيري، ثم دخل متاهة من الشوارع الجانبية التي تحيط بـ سوهو. كان تومي يتبعه من مسافة معقولة.

وصلا بعد ذلك إلى ميدان متهدم، وكانت المباني في تلك المنطقة تحمل مظهرًا شريرًا من فرط القذارة والقدم. نظر بوريس حوله، فاختفى تومي داخل

الأروقة القريبة التي كانت مقفرة، فقد كانت عبارة عن شارع ضيق مسدود، فلم يكن هناك من يسير فيه. كانت الطريقة المتسللة التي نظر بها بوريس حوله قد أثارت مخيلة تومي. عندما وصل تومي إلى مدخل المنزل، كان بوريس يصعد درجات منزل قبيح الشكل ويطرق بشدة، وبنغمات محددة، على الباب. فُتح الباب على الفور، وقال كلمة أو كلمتين إلى حارس الباب، ثم دخل، وأُغلق الباب من خلفه مرة أخرى.

في تلك اللحظة شعر تومي بالحيرة. ما الذي عليه أن يفعله الآن، ما الذي سيفعله أي رجل عاقل في هذا الموقف، هل ينتظر بصبر حتى يخرج الرجل الذي يتبعه مرة أخرى. كان ما فعله تومي مخالفًا رزانة التفكير التي كان يتمتع بها، فقد كانت هناك فكرة ما تلح على عقله. بدون أن ينتظر للحظة ليفكر في الأمر، صعد هو الآخر درجات السلم، وطرق الباب بالنغمات نفسها التي طرقه بها بوريس.

انفتح الباب على الفور مثلما حدث في المرة الأولى، وكان هناك رجل يبدو على وجهه الشر ذا شعر قصير يقف على عتبته.

قال الرجل: "نعم؟".

في تلك اللحظة انتبه تومي إلى الخطأ الفظيع الذي ارتكبه، ولكنه لم يجرؤ على التردد، فقال الكلمات الأولى التي خطرت على عقله:

"السيد براون من فضلك؟".

لدهشته الشديدة قال الرجل وهو يشير بإبهامه للخلف:

"في الطابق العلوي، الباب الثاني على اليسار".

الثامن

مغامرات تومي

على الرغم من الدهشة التي شعر بها تومي من كلمات الرجل، لم يتردد للحظة. إذا كانت جرأته قد أوصلته إلى هنا، فمن المرجح أن تساعده على المواصلة. دخل تومي المنزل في هدوء وبدأ في صعود الدرج المتداعي. كان كل شيء في المنزل يوحي بالقذارة الشديدة. ورق الحائط القذر، الذي يحمل رسومات لم يعد من الممكن تمييزها، كانت أطرافه متدلية، وكانت خيوط العنكبوت تتدلى من جميع أركان المنزل.

واصل تومي صعوده الدرج بتروٍّ، وفي اللحظة التي وصل فيها إلى منحنى الدرج، سمع الرجل في الطابق السفلي يدخل الحجرة الخلفية. يبدو أن أحدًا لم يرتب أمره بعد. يبدو أن الحضور إلى المنزل والسؤال عن السيد براون أمر معتاد الحدوث.

عندما وصل تومي إلى قمة الدرج، توقف ليفكر في الخطوة التالية. كان يوجد أمامه ممر ضيق، وكان هناك عدد من الأبواب المفتوحة على جانبيه. صدر من الباب الأقرب له من ناحية اليسار، أصوات خافتة تتحدث. كانت هي الغرفة ذاتها التي وجهه الرجل في الطابق السفلي بدخولها، ولكن ما لفت انتباهه في

تلك اللحظة هو وجود مخبأ صغير على يمينه مباشرة، وكانت تخفيه ستارة مخملية ممزقة. كان المخبأ يواجه الغرفة التي على اليسار وكان يسمح بالنظر داخلها، كما أنه يسمح برؤية جيدة للجزء العلوي من الدرج. كان المخبأ واسعًا لدرجة أنه كان يتسع لرجلين، لقد كان مثاليًا، فقد كان بعمق قدمين وبعرض ثلاثة أقدام. جذب هذا المخبأ انتباه تومي بشدة. توقف تومي ليفكر في الأمور بطريقته البطيئة المنظمة، وتوصل إلى أن ذكر السيد براون لم يكن يعني طلب رؤية شخص ما، بل كان كلمة السر التي تستعملها العصابة. لقد سمح له ذكرها بمحض المصادفة بأن يدخل المنزل، ولم يثر ريبة أي أحد حتى الآن، ولكن يجب عليه أن يقرر بسرعة خطوته التالية.

ماذا لو دخل بجرأة الغرفة التي على يسار الممر. هل تعتبر حقيقة تمكنه من دخول المنزل كافية لعدم إثارة الشبهات حوله؟ ماذا لو كانت هناك كلمة سر أخرى مطلوبة لدخول الغرفة، أو على الأقل أي إثبات للهوية. من الطبيعي أن حارس الباب لا يعرف أشكال جميع أفراد العصابة، وربما كانت هناك أدوار أخرى في الأعلى. في المجمل، أعتقد تومي أن الحظ قد خدمه جيدًا حتى الآن، ولكن كان هناك أمر واحد يثق به، وهو أن دخول هذه الغرفة يعد مخاطرة كبيرة. لم يكن يعتقد أنه سيتمكن من حبك دوره بشكل جيد، فعاجلاً أو آجلاً سيكشف نفسه بطريقة أو بأخرى، وحينها سيكون قد أضاع فرصة ذهبية برعونته.

سمع تومي صوت الطرق المنغوم على الباب بالأسفل، فقرر على الفور أن يتسلل إلى داخل المخبأ، وأن يسحب الستارة بحذر لتخفي جسده بالكامل عن الأنظار. كانت هناك ثقوب كثيرة منتشرة في القماش القديم مكنته من أن يرى ما حوله بشكل جيد. يمكنه الآن أن يشاهد ما يحدث، وفي أي وقت يختاره يمكنه أن ينضم للمجموعة متظاهرًا بما لو كان وافدًا جديدًا.

لم يكن تومي يعرف الرجل الذي صعد الدرج بخطوات صامتة ناعمة، وكان يبدو عليه من دون شك أنه من حثالة المجتمع. لم يكن تومي قد رأى من قبل مثل هذين الحاجبين الكثين، والفك الإجرامي والمظهر العام الذي يدل على الوحشية، ولكنه كان من النوعية التي يميزها رجال سكوتلاند يارد على الفور.

مر الرجل من أمام المخبأ وهو يتنفس بصوت عال، ثم توقف أمام باب الغرفة وطرقه بالطريقة ذاتها. دعاه صوت من داخل الغرفة للدخول، ففتح الباب ودخل، مما سمح لـ تومي بإلقاء نظرة خاطفة عليها من الداخل. اعتقد أنه رأى أربعة أو خمسة رجال يجلسون حول طاولة تشغل أغلب مساحة الغرفة، ولكن ما لفت انتباهه هو ذلك الرجل الطويل ذو الشعر القصير واللحية القصيرة المدببة المحددة بطريقة البحارة، والذي كان يجلس على رأس الطاولة وأمامه كمية من الأوراق. عندما دخل الوافد الجديد الغرفة، نظر الرجل الطويل لأعلى وقال بلغة صحيحة ولكنها غريبة اللكنة، الأمر الذي لفت انتباه تومي: "ما رقمك أيها الرفيق؟".

قال الرجل: "أربعة عشر أيها الحاكم".

قال الرجل الطويل: "صحيح".

وانغلق الباب مرة أخرى.

قال تومي لنفسه: "إن لم تكن هذه اللكنة هولندية فأنا لست إنجليزيًا، سأكون هولنديًا. إنه يدير الأمر بطريقة منظمة - كما يفعلون دائمًا. إنني محظوظ لأنني لم أحاول دخول الغرفة. ربما كنت سأخبره برقم خاطئ، وربما كنت تورطت في عراك عنيف معهم. لا، هذا هو المكان المناسب، مهلاً، هناك شخص آخر يطرق الباب".

كان الوافد الجديد مختلفًا تمام الاختلاف عمن سبقه، فقد لاحظ تومي أنه قد يكون تابعًا لحزب شين فين الأيرلندي. من المؤكد أن منظمة السيد براون تسعى لتوسيع نشاطها، فقد كانت تتكون من معتادي الإجرام والرجل الأيرلندي النبيل والروسي الشاحب والسيد الألماني زعيم المراسم. يا له من تجمع غريب وشرير. من الرجل الذي يمسك بين يديه بجميع الخيوط التي تتحكم في تلك الحلقة المبهمة؟

هذه المرة، كانت خطوات الدخول للغرفة تماثل سابقتها - طريقة الطرق ذاتها على الباب، والسؤال عن الرقم، والإجابة بكلمة "صحيح".

بعد ذلك، كان هناك رجلان قاما بالطرق، بالتتابع، على الباب السفلي. لم يكن تومي يعرف الرجل الأول، والذي اعتقد تومي أنه موظف حكومي، فقد كان رجلاً تبدو عليه أمارات الذكاء، على الرغم من ملابسه الرثة. كان الرجل الثاني من الطبقة العاملة، وكان وجهه مألوفًا لـ تومي.

بعد ثلاث دقائق وصل رجل آخر، رجل يبدو قيادي الهيئة، يرتدي ملابس أنيقة، ويبدو أنه من عائلة نبيلة، وكان وجهه هو أيضًا مألوفًا لـ تومي، ولكنه لم يتمكن للوهلة الأولى من أن يتذكر اسمه.

بعد وصول الرجل الأخير، كانت هناك فترة طويلة من الانتظار، فاستنتج تومي أن التجمع قد اكتمل، وكان على وشك أن يتسلل خارجًا من مخبئه عندما أعادته طرقات أخرى على الباب السفلي إليه مرة أخرى.

صعد الوافد الجديد درجات السلم بهدوء شديد، لدرجة أنه أصبح أمام تومي قبل أن يدرك الأخير وجوده.

كان رجلاً ضئيل الحجم، شاحبًا لدرجة كبيرة، وكان شعره أملس كما لو كان شعر امرأة. دل شكل ذقنه على أصوله السلوفانية، ولم تكن هناك أية دلالة أخرى على جنسيته. بعدما عبر الرجل المكان الذي يختبئ فيه تومي، استدار للخلف ببطء، وكانت عيناه تبدوان كما لو كانتا تخترقان الستارة التي تحجب المخبأ. كاد تومي يصدق أن الرجل يعلم بوجوده، واقشعر بدنه رغمًا عنه. لم يكن تومي يمتلك خيالاً جامحًا يزيد عن أقرانه من الشباب الإنجليز، ولكنه لم يستطع أن يتخلص من فكرة أن هناك نوعًا من الطاقة يشع من هذا الرجل الذي ذكره بالأفاعي السامة.

بعد لحظات، أثبت انطباعه صحته، فقد طرق الرجل الباب مثلما يفعل الجميع، ولكن استقباله كان يختلف عن الجميع، فقد نهض الرجل ذو اللحية واقفًا على قدميه وفعل الآخرون مثله، وتقدم الرجل الألماني وصافح الرجل وضرب كعبي حذائه أحدهما بالآخر، وقال:

"لقد شرفتنا بحضورك، شرفتنا بشدة بحضورك. كنت أخشى ألا تأتي".

أجابه الرجل الآخر بصوت يشبه الفحيح:

"كانت هناك بعض التعقيدات. وأخشى أنه لن يكون من الممكن أن أحضر مرة أخرى، ولكن كان يجب أن ألتقي بكم لمرة واحدة لتحديد سياستي في العمل. لا يمكنني أن أقوم بأي شيء دون السيد براون. هل هو هنا؟".

تغيرت حالة الرجل الألماني بوضوح وهو يجيبه في تردد:

"لقد بعث لنا برسالة. كان من المستحيل أن يأتي بنفسه"، ثم توقف عن الحديث ليثير فضول الموجودين بجملته التي لم تنته.

ابتسم الرجل الآخر ببطء ونظر حوله إلى الوجوه غير المريحة وقال:

"نعم، لقد فهمت. لقد قرأت عن أساليبه. إنه يعمل في الخفاء ولا يثق بأحد. ولكن من المحتمل أن يكون بيننا في هذه اللحظة". قالها ونظر حوله مرة أخرى، ومرة أخرى ظهر تعبير الخوف على أوجه الحاضرين، فقد كان كل رجل ينظر لمن يجاوره بريبة.

ضرب الرجل الروسي وجنته وقال:

"حسنًا، دعونا نواصل العمل".

بدا أن الرجل الألماني يحاول أن يجمع شتات نفسه، فقد أشار للرجل الروسي بأن يجلس مكانه على رأس الطاولة، ولكن الرجل الروسي رفض هذا، فزاد إصرار الألماني أكثر، وقال:

"إنه المكان الوحيد الذي يلائم الرقم واحد. ربما سيقوم رقم أربعة عشر بإغلاق الباب".

ومرة أخرى، أصبح تومي يحدق في الباب الخشبي، وخفتت الأصوات في الداخل مرة أخرى لتصبح مجرد غمغمة غير مفهومة. شعر تومي بالاضطراب فقد أثار الحديث الذي سمعه فضوله، وشعر بأنه يجب أن يستمع لما يجري في الداخل بطريقة أو بأخرى.

لم يكن هناك أي صوت يصدر من الطابق السفلي، ولم يكن من المرجح أن يصعد الحارس في الطابق السفلي إلى أعلى. بعد أن تسمع تومي ما حوله

لدقيقة أو دقيقتين، أخرج رأسه من خلف الستارة، وكان الممر خاليًا. انحنى تومي وخلع حذاءه وتركه خلف الستارة وسار متسللاً بقدميه اللتين لا يكسوهما سوى جوربيه، وانحنى خلف الباب المغلق ووضع أذنه على فتحة المفتاح. كان ما سبب له الضيق هو أنه لم يتمكن من سماع الكثير، فقط بضع كلمات متفرقة إذا ما تصادف وتحدث أحد الحاضرين في الداخل بصوت عالٍ، الأمر الذي استثار فضوله أكثر فأكثر.

نظر إلى مقبض الباب بفضول وفكر، هل يمكنه أن يديرها بضع درجات بهدوء بحيث لا يمكن لأي من المتواجدين في الداخل ملاحظتها؟ قرر أنه يمكنه هذا إذا ما قام به بحذر شديد. بدأ تومي يدير مقبض الباب ببطء شديد، جزء من البوصة في كل مرة، وكان يحبس أنفاسه من فرط الانفعال. هناك القليل بعد - ثم القليل - ألن ينتهي هذا الأمر؟ نعم، لقد وصل المقبض لنهايته.

انتظر تومي لدقيقة أو دقيقتين، ثم سحب نفسًا عميقًا، ثم ضغط على مقبض الباب بحذر شديد، ولم يتزحزح الباب من مكانه، وشعر تومي بالضيق. إذا ما استخدم الكثير من القوة فقد يُصدر صوتًا يدل على مكانه. انتظر تومي حتى علت الأصوات قليلاً، ثم حاول مرة أخرى، ولكن شيئًا لم يحدث. ضغط تومي بقوة أكبر. هل انحشر الباب؟ وأخيرًا، ضغط على مقبض الباب بكل ما أوتي من قوة، ولكن الباب لم يتزحزح عن مكانه، ثم أدرك الحقيقة: لا بد أن الباب مغلق من الداخل.

تملك تومي السخط لدقيقة أو دقيقتين، فقال:

"حسنًا، أنا سيئ الحظ. يا لها من خدعة سيئة".

بعدما هدأ سخطه، استعد تومي ليواجه الموقف. كان أول شيء عليه فعله هو أن يعيد مقبض الباب إلى حالته الأولى. إذا تركه على هذه الحال، فقد يتمكن الرجال في الداخل من ملاحظته. لذا قام بإعادته إلى حالته الأولى بالقدر نفسه من الحذر. مر كل شيء بسلام، فنهض تومي واقفًا على قدميه وهو يتنهد في راحة. كان تومي يتمتع بقدر كبير من العناد، الأمر الذي منعه من أن يقر بالفشل. بعدما شعر باليأس للحظات، عاد مرة أخرى ليفكر في طريقة أخرى.

كان لا يزال مصرًا على سماع ما يدور داخل الغرفة المغلقة. بعدما فشلت خطة الأولى، أصر على أن يفكر في خطة بديلة.

نظر تومي حوله فرأى بابًا آخر على يسار الممر ليس ببعيد عن الباب الأول فتحرك بخفة متوجهًا نحوه، ثم أصاغ السمع لدقيقة أو اثنتين، ثم جرب أن يدير مقبضه، فانفتح الباب ودخل تومي الغرفة.

كانت الغرفة عبارة عن غرفة نوم خالية إلا من الأثاث. كانت الغرفة، مثلها مثل كل ما في المنزل، مهترئة الأثاث وكان هناك الكثير من الأتربة.

ولكن كان ما يثير اهتمام تومي هو الشيء الذي كان يأمل في العثور عليه باب يصل بين الغرفتين والذي كان يقع على اليسار بجانب النافذة. أغلق تومي باب الغرفة بحذر خلفه وعبر الغرفة نحو الباب الآخر وبدأ يفحصه. كان الباب مغلقًا بمزلاج صدئ بدا أنه لم يستخدم منذ فترة طويلة. بدأ تومي في خلخلة المزلاج للأمام والخلف بحذر حتى تمكن من فتحه بدون إحداث الكثير من الضوضاء، ثم كرر ما فعله مع مقبض باب الغرفة الأولى مرة أخرى - ولكنه نجح هذه المرة. فتح تومي الباب فتحة صغيرة للغاية، ولكنها كانت كافية ليتمكن من سماع ما يدور في الداخل. كانت هناك ستارة مخملية موضوعة على الجانب الداخلي من الباب منعته من رؤية أي شيء، ولكنه كان قادرًا على تمييز الأصوات بدقة معقولة.

كان الرجل الأيرلندي يتحدث، فقد كان صوته الأيرلندي مميزًا:

"هذا كل شيء، ولكننا بحاجة للمزيد من المال. بدون أموال - لن توجد نتائج".

قال صوت آخر اعتقد تومي أنه صوت بوريس:

"هل تضمن التوصل إلى نتائج؟".

قال الأيرلندي: "بعد شهر من الآن - وربما أكثر أو أقل - سأضمن لك حدوث فوضى عارمة في أيرلندا من شأنها أن تزلزل قواعد الإمبراطورية البريطانية بأكملها".

خيم بعض الصمت، ثم قال الرقم واحد بصوته الناعم الذي يشبه الفحيح:

"حسنًا، ستحصل على المال. بوريس، اهتم بهذا الأمر".

سأله بوريس: "عبر الأيرلنديين الأمريكيين، والسيد بوتر كالعادة؟".

قال صوت جديد بلكنة أمريكية: "أعتقد أن هذا سيكون جيدًا، إلا أنني أرغب في توضيح أمر ما، هنا والآن، وهو أن الأمور قد زادت صعوبتها. لم يعد هناك القدر نفسه من التعاطف الذي كان موجودًا من قبل، وأصبح هناك ميل لأن ندع الأيرلنديين يهتمون بشئونهم دون تدخل من أمريكا".

شعر تومي بأن بوريس لابد أن يكون قد هز كتفيه وهو يجيب:

"هل يهم هذا، حيث إن الأموال تأتي من أمريكا في الظاهر فقط؟".

قال الأيرلندي: "إن الصعوبة الكبرى تكمن في الحصول على الذخيرة. إن الأموال تصل لنا بسهولة كبيرة - بفضل أصدقائنا هنا".

قال صوت آخر، اعتقد تومي أنه صوت الرجل الطويل الأنيق الذي بدا وجهه مألوفًا لـ تومي:

"فكر في مشاعر الناس في بلفاست إذا ما سمعوا ما تقول".

قال الصوت الذي يشبه الفحيح: "قضي الأمر إذن. والآن، فيما يخص القرض الذي طلبته الصحيفة الإنجليزية، هل أعددت التفاصيل بشكل مرضٍ يا بوريس؟".

قال بوريس: "أعتقد هذا".

قال رقم واحد: "جيد. سيأتي إنكار رسمي من موسكو إذا كانت هناك حاجة لذلك".

خيم الصمت قليلاً، ثم كسر صوت الرجل الألماني الواضح الصمت قائلاً:

"لقد أخبرني السيد براون بأن أضع ملخصات تقارير الاتحادات المختلفة بين يديك. إن التقارير التي قدمها عمال المناجم هي الأكثر إرضاءً. يجب علينا أن نستحوذ على السكك الحديدية، ولكننا قد نواجه بعض الصعوبات مع المؤسسة المسئولة عن إشارات المرور".

خيم الصمت لفترة طويلة، لم يسمع تومي خلالها سوى صوت الأوراق وبعض الكلمات التوضيحية المتفرقة التي كان يقولها الرجل الألماني. ثم سمع تومي طرقات خفيفة بالأصابع على سطح الطاولة.

وكان صوت رقم واحد يقول: "متى يا صديقي؟".

قال الألماني: "في التاسع والعشرين".

قال الرجل الروسي الذي بدا وكأنه يفكر:

"لقد اقترب الموعد".

قال الألماني: "أعلم هذا، ولكن تم تحديد هذا الموعد من قبل قادة حزب العمال، ولا يمكننا أن نتدخل في الأمر. يجب أن يعتقدوا أن ما سيحدث من فعل أيديهم هم".

ضحك الروسي بسعادة وقال:

"نعم، نعم. هذا صحيح. يجب ألا يرتابوا في أننا نستخدمهم لتحقيق مصالحنا الخاصة. إنهم رجال شرفاء - وهذه هي قيمتهم بالنسبة لنا. هذا أمر غريب - ولكن لا يمكنك أن تقوم بثورة بدون رجال شرفاء. إن غريزة العامة مؤكدة النجاح"، ثم توقف عن الحديث قليلاً كما لو كانت العبارة قد أعجبته واستطرد قائلاً: "كل الثورات كان بها رجال شرفاء، ثم يتم فضحهم بعد ذلك".

كانت هناك نبرة خبيثة في صوته.

أكمل الألماني حديثه قائلاً:

"يجب أن يذهب كلايمس أيضًا. إنه يتمتع ببصيرة رائعة. سيهتم رقم أربعة عشر بالأمر".

سمع تومي صوتًا عاليًا يقول:

"حسنًا أيها الحاكم"، ثم بعد لحظات عاد ليقول: "ماذا لو تم القبض عليّ؟".

أجابه الألماني بهدوء: "ستحصل على أفضل المحامين ليدافعوا عنك، ولكن على أية حال سترتدي قفازات تحمل بصمات أحد لصوص المنازل المشهورين. لا تخف".

قال الرجل باستمتاع غاضب: "أنا لست خائفًا أيها الحاكم. أنا فداء للقضية. إن الشوارع ستسبح في بحر من الدماء. أنا أحلم بهذا في بعض الأوقات، وستكون الماسات واللآلئ منتشرة في كل مكان تنتظر من يغتنمها".

سمع تومي صوت مقعد يتحرك، ثم تحدث رقم واحد قائلاً:

"حسنًا، لقد تم ترتيب كل شيء. هل نحن واثقون من النجاح؟".

قال الألماني بدون أن يحمل صوته نبرة الثقة المعتادة: "أعتقد هذا".

حمل صوت رقم واحد بشكل مفاجئ نبرة خطرة وهو يقول: "ما الأمر؟".

قال الألماني: "لا شيء، ولكن ——"

قال الرقم واحد: "ولكن ماذا؟".

قال الألماني: "قادة العمال - بدونهم لن يمكننا القيام بأي شيء، كما قلت. إذا لم يعلنوا إضرابًا عامًا في يوم التاسع والعشرين ——"

قال رقم واحد: "وما الذي سيمنعهم من هذا؟".

قال الألماني: "لقد قلت إنهم شرفاء، وعلى الرغم من كل ما فعلناه لنقنعهم بفشل الحكومة، فإنني لست على يقين بأن ثقتهم وإيمانهم بها قد اهتزت".

قال رقم واحد: "ولكن ——"

قال الألماني: "أعلم هذا، إنهم يسبون الحكومة دون توقف، ولكن بوجه عام، الرأي العام الشعبي في صالح الحكومة، ولن يثوروا ضدها".

طرقت أصابع الرجل الروسي الطاولة مرة أخرى.

وقال: "ما الأمر يا صديقي، لقد تبادر إلى علمي وجود وثائق معينة من شأنها أن تضمن لنا النجاح".

قال الألماني: "هذا صحيح. إذا ما تم تقديم هذه الوثائق للقادة، فستكون النتائج فورية. ربما ينشرونها في جميع أرجاء إنجلترا، ويعلنون قيام الثورة بدون لحظة واحدة من التردد، وستنكسر الحكومة في النهاية من دون رجعة".

قال رقم واحد: "ما الذي تريده إذن؟".

قال الألماني: "الوثائق نفسها".

قال رقم واحد: "إنها ليست بحوزتك، أليس كذلك؟ هل تعلم أين هي؟".

قال الألماني: "لا".

قال رقم واحد: "هل يعلم أي شخص مكانها؟".

قال الألماني: "ربما يعرف مكانها رجل واحد، حتى إننا لسنا واثقين من هذا".

قال رقم واحد: "من هذا الشخص؟".

قال الألماني: "إنها فتاة".

حبس تومي أنفاسه، وارتفع صوت الروسي في حدة قائلاً: "فتاة؟، ولم تجعلها تتحدث بعد؟ إننا في روسيا نمتلك طرقًا تجعل الفتيات يتكلمن".

قال الألماني: "هذه الحالة مختلفة".

قال الروسي: "مختلفة - كيف؟"، ثم توقف عن الحديث للحظات وقال: "أين هي هذه الفتاة الآن؟".

قال الألماني: "الفتاة؟".

قال الروسي: "نعم".

قال الألماني: "إنها ــــ"

ولكن لم يسمع تومي أي شيء آخر، فقد هبطت ضربة كالصاعقة على رأسه وأحاط به الظلام من كل جانب.

التاسع

توبينس تدخل الخدمة السرية

عندما بدأ تومي في تعقب الرجلين، تطلب الأمر من توبينس أن تمتلك كامل إرادتها لتمتنع عن الذهاب برفقته. فتمكنت من احتواء نفسها بأقصى ما تملكه من قوة عن طريق مواساة نفسها بأنها تفكر في الأمور طبقًا لسير الأحداث. لا شك في أن الرجلين قد هبطا من الشقة في الطابق الثاني، وكان هذا الخيط الواهي الذي يحمل اسم ريتا هو ما جعل شباب المغامرين يدركون أنهم عادوا مرة أخرى إلى الطريق الصحيح في تتبع مختطفي جاين فين.

كان السؤال الذي يدور برأسها هو: وماذا بعد؟ لم تكن توبينس تحب التأني. كان تومي يقوم بمهمة تعقب الرجلين، ولم تصحبه توبينس في هذه المهمة، فشعرت الفتاة بأنها حرة، فعادت أدراجها نحو مدخل المبنى الذي كان يقف به صبي صغير يعمل على تشغيل المصعد، والذي كان يقوم بتلميع إطاره النحاسي وهو يدندن نغمة أحدث الأغاني بحبور شديد ودقة متناهية.

نظر الصبي نحو توبينس عندما دخلت المبنى. كانت توبينس تجيد التعامل مع الصبية الصغار، وبدا أن رابطة ودية قد قامت بينهما على الفور. فكرت توبينس بأن وجود حليف في معسكر العدو أمر لا يجب تجاهله.

قالت توبينس بأقصى ود أمكنها أن تعرضه: "ويليام، هل تستمتع بتلميع الإطار النحاسي؟".

ابتسم الصبي ردًا على سؤالها.

وقال: "اسمي ألبرت يا آنسة".

قالت توبينس: "حسنًا ألبرت"، ثم نظرت بغموض إلى الردهة من حولها بطريقة لا يمكن أن تخفى على ألبرت، ثم انحنت على الصبي وقالت بصوت منخفض: "أريد أن أتحدث معك يا ألبرت".

توقف ألبرت عن تلميع إطار المصعد وفتح فمه قليلاً.

فقالت توبينس وهي تزيح الطرف الأيسر من معطفها لتريه شارة لامعة: "اسمع، هل تعلم ما هذا؟". كان يبدو أن ألبرت لا يعلم أي شيء عن هذه الشارة - كان من المؤكد أنه لو كان ألبرت يعلم أي شيء عن الشارات لكانت خطتها بأكملها قد انهارت من أساسها، فقد كانت الشارة تابعة لبرنامج تدريب محلي أسسه أحد رجال الدين في أيام الحرب الأولى. كانت توبينس قد حصلت على الشارة كدليل على أنها قد غرست بعض الزهور قبل يوم أو يومين. كانت توبينس قوية الملاحظة، فقد لاحظت طرف الرواية البوليسية الرخيصة الذي يظهر من جيب ألبرت، وأشار اتساع عينيه إلى نجاح خطتها، وأن ألبرت قد ابتلع الطعم.

همست توبينس قائلة: "إنها تابعة لقوة المحققين الأمريكيين".

صدق ألبرت ما تقول.

وغمغم في حماس: "يا إلهي".

أومأت توبينس برأسها بطريقة من يمكنه فهم شعور من يتحدث معه، وقالت: "هل تعرف عمن أرغب في أن أسألك؟".

سألها ألبرت ومازالت عيناه زائغتين:

"عن واحدة من الشقق؟".

أومأت توبينس برأسها ورفعت إبهامها لأعلى.

وقالت: "الشقة رقم ٢٠ التي تطلق صاحبتها على نفسها اسم فانديماير. فانديماير. ها ها".

وضع ألبرت يده في جيبه.

وقال: "هل هي محتالة؟".

قالت توبينس: "محتالة؟ نعم، يمكنني أن أقول هذا عنها. إنهم يطلقون عليها ريتا الجاهزة في الولايات المتحدة الأمريكية".

كرر ألبرت قولها: "ريتا الجاهزة؟ بالضبط مثلما يحدث في الأفلام".

بالفعل، فقد كانت توبينس تقلد ما رأته في دور السينما.

تابع الصبي حديثه قائلاً: "لطالما قالت آني إن هناك خطبًا ما بشأن هذه المرأة".

قالت توبينس: "من هي آني؟".

قال ألبرت: "إنها خادمة المنزل. إنها سترحل اليوم. لقد أخبرتني مرارًا وتكرارًا: تذكر كلماتي يا ألبرت. لن أتعجب أبدًا إذا ما حضرت الشرطة في يوم من الأيام للقبض عليها - أمور من هذا القبيل، ولكنها امرأة بارعة الجمال، أليس كذلك؟".

قالت توبينس بحذر: "نعم، إنها جميلة. إنها تستخدم جمالها في الوصول لأغراضها. بالمناسبة، هل من عادتها أن ترتدي الحلي المرصعة بالزمرد؟".

قال الصبي: "الزمرد؟ إنها تلك الأحجار الخضراء، أليس كذلك؟".

أومأت توبينس برأسها.

وقالت: "هذا ما نبحث عنه. هل تعرف رايسدايل العجوز؟".

هز ألبرت رأسه نفيًا.

فتابعت توبينس حديثها قائلة: "بيتر رايسدايل، ملك البترول".

قال ألبرت: "يبدو الاسم مألوفًا بالنسبة لي".

قالت توبينس: "هذه الأحجار الكريمة ملك له. إنها أفضل مجموعة أحجار زمرد في العالم، إنها تساوي مليون دولار".

قال ألبرت بانبهار: "يا إلهي، إن الأمر يزداد شبهًا بالأفلام كل دقيقة".

ابتسمت توبينس برضا عن نجاح خطتها وقالت: "إننا لم نتمكن بعد من إثبات أن الأحجار معها، ولكننا نراقبها. و ـــــ"، قالتها وغمزت له وتابعت: "أعتقد أنها لن تتمكن من الفرار بالمسروقات هذه المرة".

هتف ألبرت بشيء ما ينم عن السعادة.

فقالت توبينس فجأة: "أرجوك، يا بني، ألا تذكر كلمة واحدة عن هذا الأمر لأي شخص. أعتقد أنه لم يكن من المفترض أن أخبرك بأي شيء، ولكننا في أمريكا نعرف الشخص الذكي بمجرد رؤيته".

قال ألبرت بحماس: "لن أنبس ببنت شفة. هل يوجد ما يمكنني أن أساعدك به؟ بعض المراقبة أو أمور من هذا القبيل؟".

أطرقت توبينس مفكرة ثم هزت رأسها. وقالت: "ليس الآن، ولكني سأضع مساعدتك في الاعتبار يا بني. ما أمر تلك الفتاة التي سترحل؟".

قال ألبرت: "آني؟ لا شيء، مجرد التغيير الروتيني للخدم. كما تقول آني، إن الخدم مهمون هذه الأيام ويجب أن تتم معاملتهم بهذه الطريقة، وأعتقد أنها لن تحصل على عمل آخر وهي تضع هذه الأفكار في رأسها".

قالت توبينس وهي تفكر: "حقًا؟ أنا أتساءل ـــــ"

كانت الفكرة تسيطر على عقل توبينس، ففكرت للحظات ثم ربتت كتف ألبرت.

وقالت: "اسمع يا بني، أنا أفكر في أمر ما. ما رأيك لو قلت إن هناك واحدة من قريباتك أو صديقاتك من المرجح أن تناسبها هذه الوظيفة؟ هل فهمت؟".

قال ألبرت على الفور: "نعم، اتركي هذا لي يا آنسة، وسأعالج الأمر بأكمله على الفور".

قالت توبينس وهي تومئ موافقة:

"يا لك من فتى رائع! يمكنك أن تقول إن الفتاة الشابة يمكنها أن تبدأ العمل على الفور، وأخبرني بما حدث، وإذا مر كل شيء على خير ما يرام، فسأكون متواجدة هنا في الحادية عشرة صباحًا".

قال ألبرت: "وكيف سأخبرك بأنني نجحت؟".

قالت توبينس: "راسلني على فندق الريتز، باسم كاولي".

نظر لها ألبرت بحسد.

وقال: "لابد أن عملك عمل رائع، عمل الشرطة هذا".

قالت توبينس ببطء: "إنه كذلك بالفعل، خاصة عندما يتحمل رجل مثل رايسدايل العجوز مصروفاتي، ولكن لا تقلق يا بني. إذا كان كل شيء على خير ما يرام، فستكون من أوائل من يشهدون نهايته".

بعد هذا الوعد، تركت توبينس حليفها الجديد، وغادرت مباني ساوث أودلي السكنية، وكانت مسرورة بما فعلته هذا الصباح.

ولكن لم يكن هناك أي وقت لتضيعه، فقد توجهت مباشرة إلى الريتز وكتبت رسالة مختصرة إلى السيد كارتر، بعدما أرسلت الرسالة، وتومي لم يكن قد عاد بعد - الأمر الذي لم يفاجئها. بدأت في حملة تسوق تخللتها راحة تناولت فيها بعض الشاي والكعك بالكريمة، الأمر الذي شغلها حتى تخطت الساعة السادسة مساءً، ثم عادت إلى الفندق مرهقة ولكنها كانت راضية عما اشترته. كانت قد بدأت جولتها في متجر للملابس الرخيصة، ثم مرت على متجر أو متجرين للأشياء المستعملة، ثم أنهت يومها عند مصفف شعر شهير. والآن، في أثناء بقائها بمفردها في غرفة نومها، قامت بفتح غلاف الشيء الأخير الذي اشترته. بعد خمس دقائق، ابتسمت في أثناء نظرها إلى الزجاجة. قامت بعد ذلك باستخدام قلم تحديد لتغيير شكل حاجبيها، الأمر الذي ساهم، مع تغيير شكل شعرها الأشقر، في تغيير شكلها بالكامل لدرجة أنها كانت واثقة من أنها إن وقفت وجهًا لوجه أمام ويتنجتون فإنه لن يتعرف عليها. قامت بتركيب روافع في حذاءيها، كما أن القبعة والمئزر سيكونان أدوات التنكر القيمة. من منطلق خبرتها العملية في المستشفيات، كانت تدرك أن الممرضة التي لا ترتدي ثوب العمل، لا يمكن للمرضى التعرف عليها.

قالت توبينس بصوت عال: "نعم"، وأومأت برأسها إلى انعكاس صورتها على الزجاج وقالت: "ستنجحين". ثم أعادت هيئتها مرة أخرى لحالتها الأولى.

تناولت توبينس العشاء بمفردها، وكانت مندهشة من عدم عودة تومي حتى الآن. لم يكن جوليوس هو الآخر متواجدًا في غرفته - ولكن كان تفسير اختفائه أسهل بالنسبة لها. لم تكن أنشطته "المتعجلة" مقصورة على لندن، وكان ظهوره واختفاؤه المفاجئ أمرًا معتادًا بالنسبة لشباب المغامرين كجزء من عمله اليومي. كان من المعتاد أن يعلموا أن جوليوس بي. هيرشايمر قد غادر إلى القسطنطينية إذا ما تصور أن دليلاً يقوده إلى اختفاء ابنة عمته قد ظهر هناك. لقد نجح الشاب النشط في تحويل حياة العديد من ضباط سكوتلاند يارد إلى جحيم، وأصبحت عاملات الهاتف في ديوان البحرية معتادات سماع كلمة "مرحبًا" بلهجته الأمريكية. لقد قضى ثلاث ساعات في باريس يستحث الحاكم هناك على العمل، وعاد من باريس يحمل فكرة، ربما ألهمه بها المسئول الفرنسي المرهق، أن الدليل الحقيقي للغز قد يكون في أيرلندا.

فكرت توبينس في نفسها: "أعتقد أنه قد ذهب إلى أيرلندا الآن. أمر جيد، ولكنه ممل بالنسبة لي. ها أنا ذا أمتلك الكثير من الأخبار الجديدة ولكن لا يوجد من أخبره بها. ربما أرسل تومي لي رسالة تلغرافية أو شيئًا من هذا القبيل. أنا لا أعلم أين هو. على أية حال، لا يمكنه أن يفقد أثر الرجلين. هذا يذكرني بـــــ"، ثم انتبهت الآنسة كاولي من تأملاتها واستدعت صبيًا صغيرًا.

بعد عشر دقائق كانت الآنسة كاولي جالسة بهدوء في فراشها، وأشعلت لفافة تبغ، وهي تقرأ بعناية رواية *The Boy Detective*، من تأليف *بارنابي ويليامز*، والتي اشترت مجموعة من رواياتها رخيصة الثمن. شعرت بأنه يجب عليها، قبل أن تواصل حديثها مع ألبرت، أن تدعم أفكارها بمجموعة من الأفكار التي تروقه.

في الصباح وصلتها رسالة من السيد كارتر تقول:

عزيزتي الآنسة توبينس

لقد كانت بدايتكما رائعة، وأهنئكما على هذا. أود أن أوضح لكما مرة أخرى المخاطر التي قد تواجهانها، خاصة إذا ما تبعتما الطريق الذي تشيران إليه. إن هؤلاء الأشخاص يشعرون باليأس وقد نُزعت من قلوبهم

الرحمة والشفقة. أعتقد أنكما لا تقدران الخطر الذي يواجهكما حق قدره، وأرغب في أن أنبهكما مرة أخرى إلى أنه لا يمكنني أن أعدكما بأية حماية. لقد أعطيتمانا معلومات قيمة للغاية، وإذا ما اخترتما أن تنسحبا الآن فلن يلومكما أحد. على أية حال، فكرا في الأمر جيدًا قبل أن تتوصلا إلى قرار.

إذا - على الرغم من تحذيراتي - قررتما أن تستمرا في العمل، فستجدان كل شيء مجهزًا. لقد عشت لعامين كاملين مع الآنسة دوفراين، التي تعمل حاليًا في منزل رجل الدين في لانيللي، وقد تلجأ السيدة فانديماير إليها لتسأل عنك.

هل يمكنني أن أسديك بعض النصائح؟ كوني صادقة قدر الإمكان - حيث إن هذا يقلل من النسيان. أقترح عليك أن تقدمي نفسك على ما أنت عليه بالفعل، ممرضة متطوعة سابقة اختارت أن تعمل في الخدمات المنزلية. هناك الكثير من الممرضات السابقات اللواتي اخترن هذه المهنة. هذا من شأنه أن يفسر تباينات اللهجة أو السلوك التي قد تثير الشبهات.

أيا كان ما ستقررينه، أتمنى لك الحظ السعيد.

صديقك المخلص،

السيد كارتر

ارتفعت روح توبينس المعنوية كثيرًا لدرجة أنها لم تلق انتباهًا لتحذيرات السيد كارتر. كانت توبينس فتاة شابة تثق كثيرًا في نفسها، لذا فلم تلتفت لتحذيراته.

ترددت توبينس قليلاً قبل أن تتخلى عن المظهر الذي كانت قد اختارته لنفسها. على الرغم من أنها كانت واثقة من قدرتها على تقمص الشخصية التي اختارتها باقتدار، فإنها كانت تثق في حجة السيد كارتر.

لم تكن قد وصلتها حتى الآن أية أخبار أو رسائل من تومي، ولكن حمل لها بريد الصباح بطاقة كُتب عليها "كل شيء على خير ما يرام".

في العاشرة والنصف نظرت توبينس إلى الصندوق المعدني الذي يحتوي ممتلكاتها الجديدة برضا. كانت قد ربطته بالحبال بأناقة، وشعرت بالخجل قليلاً عندما قرعت جرس مكتب الاستقبال لتخبر الموظف بأن يرسل شخصًا ما ليضع الصندوق في سيارة الأجرة. أخذتها سيارة الأجرة حتى محطة بادينجتون حيث أودعت الصندوق في مكتب الأمانات وأعدت حقيبة يد على عجل في دورة مياه السيدات. بعد عشر دقائق، كانت توبينس تخرج من المحطة وتستقل إحدى الحافلات.

كانت الساعة تشير إلى بضع دقائق قبل الحادية عشرة عندما دخلت ردهة مبنى ويست أودلي السكني. كان ألبرت في الردهة يقوم بمهامه اليومية بدون نظام. لم يلحظ وجود توبينس للوهلة الأولى، ولكنه عندما فعل كان إعجابه يفوق الوصف.

قال: "إنني لم أتمكن من معرفتك. إن ملابسك رائعة".

أجابته توبينس بتواضع: "أنا مسرورة أنها أعجبتك يا ألبرت. بالمناسبة، هل سأكون قريبتك أم ماذا؟".

صاح الصبي بفرح: "إن لهجتك أيضًا مختلفة. لقد أصبحت إنجليزية كالإنجليز أنفسهم. لا، لقد قلت إن أحد أصدقائي يعرف شابة. ولكن آني لم تكن مسرورة، حيث قالت إنها كانت مجبرة على العمل حتى اليوم، ولكني أعتقد أنها ستحاول أن تجعلك تكرهين العمل".

قالت توبينس: "يا لها من فتاة لطيفة".

لم يشعر ألبرت بنبرة السخرية في صوت توبينس.

فقال: "إنها كذلك بالفعل، إنها تعامل الجميع باحترام - ولكني أعتقد أنها من حقها أن تتعصب قليلاً. هل ستصعدين الآن يا آنسة؟ ادخلي المصعد. لقد قلت إنها الشقة رقم ٢٠، أليس كذلك؟"، ثم غمز لها بعينه.

نظرت له توبينس نظرة مطمئنة ودخلت المصعد.

عندما قرعت جرس الشقة رقم ٢٠، لاحظت أن عيني ألبرت كانتا تنظران للأرض.

فتحت الباب شابة جميلة وأنيقة.

فقالت توبينس: "لقد أتيت من أجل الوظيفة".

قالت الشابة بدون تردد: "إنها وظيفة سيئة. إن هذه العجوز الشمطاء دائمة التدخل في كل شيء. لقد اتهمتني بالعبث في خطاباتها، أنا! إن ظرف الخطاب لم يكن مغلقًا جيدًا على أية حال. إنها لا تترك أي شيء في سلة المهملات، إنها تحرق كل خطاباتها. إنها امرأة سيئة. أنيقة الملبس ولكن من دون طباع نبيلة. إن الطاهية تعرف عنها أمرًا ما - ولكنها لن تبوح به - خشية أن تقتلها. أما عن الارتياب، فستجدينها فوق رأسك في خلال دقيقة إذا ما سمعتك تتحدثين مع شخص ما. يمكنني أن أقول ــــ"

ولكن القدر لم يمهل توبينس أن تستمع لبقية ما ترغب آني في قوله، فقد صدح صوت حاد في تلك اللحظة قائلاً:

"آني".

قفزت الشابة الأنيقة كما لو كانت قد أصيبت بطلقة رصاص.

وقالت: "نعم سيدتي".

قال الصوت: "مع من تتحدثين؟".

قالت آني: "إنها شابة أتت من أجل العمل".

قال الصوت: "أدخليها على الفور".

قالت آني: "أمرك سيدتي".

أشارت آني لـ توبينس بدخول غرفة تقع على يمين ممر طويل. كانت هناك امرأة تقف بجانب المدفأة. لم تكن المرأة في ريعان شبابها، وكان جمالها الذي لا يمكن أن تخطئه العين يذبل ويختفي. لابد أن هذه المرأة كانت بارعة الجمال في شبابها. كان شعرها الأشقر اللامع، المصبوغ قليلاً، ينسدل على كتفيها، وكانت

عيناهـا، الزرقاوان الحادتان، تبدوان كما لو كانتا تغرسان شعورًا بالبرودة في روح مـن تنظـران إليه. كانت هيئتهـا الرائعة تعززهـا عباءة أنيقة مـن الحرير الأزرق، ولكـن علـى الرغـم من هيئتهـا الجميلـة ووجهها الأخـاذ، كنت تشعر فـي وجودها بشيء ثقيل ومزعج، وكذلك في صوتها المعدني وعينيها الثاقبتين.

شعـرت توبينـس بالخـوف للمـرة الأولـى. إنها لم تشعـر بالخوف فـي حضور ويتنجتـون، ولكـن هـذه المـرأة مختلفـة. كما لـو كانت منبهـرة، حدقـت توبينس فـي الشـكل القاسـي لفمهـا الأحمـر، وشعـرت مـرة أخـرى بالهلـع. لقـد خذلتهـا ثقتهـا بنفسهـا، فقد كانـت تشعر بأن خداع هـذه المرأة سيختلف كثيـرًا عن خداع ويتنجتون. رنت تحذيرات السيد كارتر في أذنها. إنها هنا لن تتوقع أية رحمة.

كانـت توبينـس تقـاوم شعورهـا بالخـوف الـذي كان يجبرهـا علـى أن تستدير وتهرب على الفور، فبادلت السيدة نظراتها الصارمة التي تنم عن الاحترام.

كمـا لـو كان الفحص الأولـي مرضيًـا، توجهـت السيـدة فانديمايـر نحـو أحد المقاعد.

وقالت: "يمكنك أن تجلسي. كيف علمت أنني بحاجة إلى خادمة للمنزل؟".

قالـت توبينـس: "مـن صديق علـى صلة بصبـي المصعـد هنا. لقـد اعتقد أن الوظيفة ربما تناسبني".

مرة أخرى شعرت بأن نظرات المرأة الحادة تخترقها.

قالت السيدة فانديماير: "إنك تتحدثين كفتاة متعلمة، أليس كذلك؟".

قصـت توبينـس علـى مسامـع السيـدة فانديمايـر باختصـار تفاصيـل مهنتها الوهميـة كمـا اقترحهـا عليها السيـد كارتر، وبدا لهـا، بعدما انتهت، مـن أن توتر السيدة فانديماير قد هدأ.

وقالـت أخيـرًا: "فهمـت. هـل هنـاك أي شخـص يمكننـي أن أكتـب لـه لأسألـه عنك؟".

قالـت توبينس: "آخر وظيفة لي كانت عنـد السيدة دوفراين التي تعمل حاليًا في منزل رجل الدين في لانيللي. كنت أعمل معها طوال عامين".

قالـت السيـدة فانديماير: "واعتقـدت أنك ستحصلين على المزيد من المال إذا مـا أتيـت إلى لندن، أليس كذلـك؟ حسنًا، هذا لا يهمني كثيـرًا. سأعطيك راتبًا يتـراوح مـا بيـن ٥٠ إلى ٦٠ جنيهًا - أيًـا كان الراتب الذي ترغبينـه. هل يمكنك أن تبدئي العمل في الحال؟".

قالـت توبينـس: "نعم، سيدتي. اليوم إذا كنت تريدين هذا. إن صندوق أمتعتي في محطة بادينتجتون".

قالـت السيدة فانديماير: "استقلي سيارة أجرة واذهبي لتحضريه. إن عملك سيكون سهلاً. أنا لا أكون متواجدة طوال الوقت. بالمناسبة، ما اسمك؟".

قالت توبينس: "برودنس كوبر يا سيدتي".

قالـت السيـدة فانديمايـر: "حسنًا يـا برودنـس. اذهبي وأحضـري الصندوق. سأخرج لتناول الغداء في الخارج. ستريك الطاهية مكان كل شيء".

قالت توبينس: "شكرًا لك سيدتي".

غـادرت توبينـس الغرفـة، ولكـن آنـي الأنيقة لـم تكن ظاهـرة. عندمـا وصلت توبينـس إلـى ردهة المبنى في الأسفل، كان البـواب الأنيق يقف أمام ألبرت حاجبًا إياه لدرجة أن توبينس لم تتمكن من رؤية أي جزء منه.

لقـد بـدأت المغامـرة، ولكـن لم تكـن روحها المعنويـة مرتفعة كمـا كانت هذا الصبـاح. مـر بخاطرهـا أنـه لـو كانـت جاين فيـن الغامضـة قد وقعت بيـن براثن السيدة فانديماير، لكانت قد قضت وقتًا عصيبًا.

العاشر

دخول السير جايمس بيل إدجارتون

لـم تلـق توبينس أية صعوبـة في القيام بمهامهـا الجديدة، فقد كانـت بنات رجال الديـن متمرسـات علـى الأعمـال المنزليـة، كمـا كـن أيضًـا خبيـرات فـي تدريـب "الفتيات الساذجات"، وكانت النتيجة الحتمية للفتيات الساذجات، اللواتي بمجرد تدريبهن، يغادرن إلى مكان يمكن أن يحصلن فيه على مقابل مادي أعلى للمعرفة التي اكتسبنها حديثًا، من ذلك المقابل الذي يمكن لرجل الدين تحمله.

لهـذا السبـب كانـت توبينس تخشى قليـلاً ألا تعمل بالكفـاءة المطلوبة. كانت طاهيـة السيـدة فانديمايـر تحيرها، فقـد كانت تخشـى سيدتهـا خشيتهـا للموت. اعتقـدت توبينس أن المـرأة تعرف شيئًا ما. بغض النظر عن هذا، فقد كان طهيها رائعًـا، كما أخبرتها توبينس في إحـدى الأمسيات. كانت السيدة فانديماير تنتظر ضيفًـا علـى العشاء، فأعدت توبينس مائدة رائعة لشخصين. لم تكن توبينس تعلم من هو الضيف. كان من المحتمل جدًا أن يكون ويتنجتون، ولكنها كانت واثقة من أنـه لن يتعرف عليها، ولكنهـا كانت ستسعد إذا ما اكتشفت أن الضيف شخص آخر لا تعرفه. لم تكن توبينس تأمل في شيء أفضل ما قد يفعله القدر.

عندمـا أشـارت الساعة إلـى بضع دقائق بعد الثامنـة، دق جرس الباب، فذهبت توبينس لتفتحه وهي خائفة. شعرت بالراحة عندما اكتشفت أن الزائر هو الرجل الثاني من الرجلين اللذين كان تومي يتعقبهما.

قـدم نفسـه لها على أنه الكونت ستيبانوف. أخبرت توبينس السيدة فانديماير بقدوم الضيف فنهضت من جلستها على الأريكة وهي تغمغم في سعادة.

وقالت: "أنا سعيدة برؤيتك بوريس إيفانوفيتش".

انحنى بوريس ليقبل يدها قائلاً: "وأنا كذلك يا سيدتي".

عادت توبينس إلى المطبخ وهي تقول بفضول واضح.

"الكونت ستيبانوف أو شيء من هذا القبيل، من يكون يا ترى؟".

قالت الطاهية: "نبيل روسي على ما أعتقد".

قالت توبينس: "هل يأتي إلى هنا كثيرًا؟".

قالت الطاهية: "بين حين وآخر. ما الذي ترغبين في معرفته؟".

وضحـت لهـا توبينس الأمر قائلة: "أعتقد أنه يحـب السيدة - هذا كل شيء"، ثم أضافـت وهي ترسم العبوس على وجهها: "كيـف يمكن لواحدة مثلي أن تجعل رجلًا مثله يُغرم بها؟".

قالت الطاهية: "لا يعجبني الطعام المُخَمر".

فكـرت توبينـس فـي نفسهـا: "هـل تعلميـن"، ولكنها قالـت بصوت عـالٍ: "هل أقدمه لهما الآن؟ بالشكل الصحيح".

فـي أثنـاء انتظارها بجانب الطاولة، استمعت توبينس لكل ما قيل. تذكرت أنه أحـد الرجلين اللذيـن كان تومي يتبعهما عندما رآته المـرة السابقة. على الرغم مـن أنهـا بالـكاد أقرت بالأمر، فإنهـا شعرت بالقلق على شريكهـا. أين هو يا ترى؟ لمـاذا لـم يخبرها بأي شيء عن مكانه؟ قبل أن تغادر فندق الريتز، كانت قد أعدت أن يتـم توجيـه جميع الخطابات والرسائل على الفور إلى متجر قريب لبيع أدوات الكتابـة عـن طريـق مبعوث خاص، بحيث يمكن لـ ألبرت أن يذهـب إليه ليرى ما إذا كانـت هنـاك رسائل أو خطابات بين وقت وآخـر. صحيح أنها افترقت عن تومي

صباح أمس، وأخبرت نفسها بأن أي قلق تشعر به تجاه تومي غير معقول. ولكن الأمر الغريب هو أنه لم يرسل لها أية رسالة على الإطلاق.

لم يحمل الحديث الذي كانت تستمع إليه أي دليل، فقد كانت السيدة فانديماير وبوريس يتحدثان عن موضوعات عامة: مسرحيات شاهداها، رقصات جديدة، وأحدث أخبار المجتمع. بعد العشاء توجها إلى غرفة صغيرة حيث تمددت السيدة فانديماير على الأريكة وكانت تبدو أكثر جمالاً مما سبق. أحضرت توبينس القهوة والشراب وانسحبت من الغرفة رغمًا عنها. وبينما كانت تغادر الغرفة، سمعت بوريس يقول:

"خادمة جديدة، أليس كذلك؟".

قالت السيدة فانديماير: "لقد بدأت العمل اليوم، لقد كانت سابقتها ذكية، أما هذه الفتاة فلا بأس بها، إنها تقوم بالخدمة بشكل جيد".

تلكأت توبينس قليلاً بجانب الباب الذي حاولت ألا تغلقه بحذر وسمعت بوريس يقول:

"أعتقد ألا خوف منها، أليس كذلك؟".

قالت السيدة فانديماير: "إنك حقًا كثير الارتياب يا بوريس. أعتقد أنها قريبة بواب المبنى، أو شيئًا من هذا القبيل. ولا أعتقد أن هناك من يعلم أنني على صلة بصديقنا المشترك، السيد براون".

قال بوريس: "بحق السماء يا ريتا، احترسي، إن هذا الباب لم يُغلق جيدًا".

ضحكت المرأة قائلة: أغلقه إذن".

غادرت توبينس موقعها مسرعة.

لم تجرؤ على أن تغيب لفترة طويلة عن المطبخ، ولكنها قامت بتنظيف الأطباق وغسلها بسرعة كبيرة اكتسبتها من عملها بالمستشفى. بعد ذلك تسللت خلسة مرة أخرى إلى باب الغرفة الصغيرة. كانت الطاهية لا تزال مشغولة بعملها، وإذا لم تجد توبينس حولها، فستفترض أنها قد ذهبت لتعد الفراش للنوم.

للأسف، كان الحديث الذي يدور داخل الغرفة، يدور بصوت منخفض للغاية لدرجة أنها لم تتمكن من سماع أي شيء. لم تجرؤ توبينس على فتح باب الغرفة مرة أخرى حتى ولو بهدوء شديد. كانت السيدة فانديماير تجلس أمام الباب، وكانت توبينس تقدر قوة ملاحظتها لدرجة كبيرة.

رغم هذا، شعرت توبينس بأنه يجب عليها أن تسمع ما يدور داخل الغرفة لتعرف ما إذا كان شيئًا قد حدث أو لتعرف ماذا حل بـ تومي. فكرت توبينس لبضع دقائق في هدوء، ثم أشرق وجهها. قطعت توبينس مسرعة الممر الطويل المؤدي لغرفة نوم السيدة فانديماير التي كانت بها نافذة كبيرة تؤدي إلى شرفة بطول الشقة بأكملها. تسللت توبينس بسرعة عبر النافذة، ثم زحفت بهدوء حتى وصلت إلى نافذة الغرفة الصغيرة. كما توقعت توبينس، كانت النافذة نصف مفتوحة، وكانت الأصوات داخل الغرفة مسموعة بوضوح من هذا المكان.

استمعت توبينس للحديث باهتمام، ولكنها لم تسمع أي ذكر لأي شيء قد يشير إلى تومي. كان يبدو أن السيدة فانديماير والرجل الروسي مختلفان حول أمر ما، وفي النهاية هتف الأخير بمرارة:

"ستدمريننا بتهورك المستمر".

ضحكت المرأة قائلة: "إن سوء السمعة بالطريقة الصحيحة هو أفضل طريقة لإبعاد الشبهات. ستدرك هذا في أحد الأيام - ربما أقرب مما تتوقع".

قال بوريس: "في الوقت ذاته، إنكِ تظهرين مع بيل إدجارتون في كل مكان. إنه ليس أحد أشهر مستشاري الملك في ربوع إنجلترا بأكملها، بل إن اهتمامه منصبٌ على علم الجريمة أيضًا. إن ما تفعلينه ضرب من الجنون".

قالت السيدة فانديماير بهدوء: "أعلم أن بلاغته قد أنقذت الكثير من الرجال من حبل المشنقة. وماذا في ذلك؟ قد أحتاج إلى مساعدته في أحد الأيام. إذا ما حدث أي سوء، فمن الجيد أن تحظى بصديق في البلاط الملكي - أو ربما يجدر بنا القول داخل البلاط الملكي".

نهض بوريس من مكانه وبدأ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، فقد كان يشعر بانفعال شديد.

وقال: "إنك امرأة ذكية يا ريتا، ولكنك حمقاء أيضًا. تقبلي توجيهاتي وابتعدي عن بيل إدجارتون".

هزت السيدة فانديماير رأسها ببطء.

وقالت: "لا أرى هذا".

كانت هناك نبرة مهددة في صوت الرجل الروسي وهو يقول: "هل ترفضين؟".

قالت ريتا: "نعم".

قال بوريس: "إذن، سنرى ـــــ"

ولكن السيدة فانديماير نهضت هي الأخرى واقفة على قدميها وعيناها تلمعان.

وقالت: "لقد نسيت يا بوريس أنني لست تابعة لأحد، وأنني لا آخذ أوامري إلا من السيد براون فقط".

تخاذلت ذراعا بوريس جانبه في يأس.

وقال: "من المستحيل احتمالك، من المستحيل احتمالك. ربما سبق السيف العذل. يقال إن بيل إدجارتون يمكنه أن يشم رائحة المجرمين. كيف يمكننا أن نعرف غرضه الرئيسي وراء اهتمامه المفاجئ بك؟ ربما كان يرتاب في أمرك في الوقت الحالي. ربما خمن ـــــ"

نظرت له السيدة فانديماير بازدراء.

وقالت: "اطمئن عزيزي بوريس. إنه لا يرتاب في أي شيء. يبدو أن شجاعتك المعتادة قد أنستك أنني امرأة جميلة، وأؤكد لك أن هذا هو كل ما يهم بيل إدجارتون".

هز بوريس رأسه في شك.

وقال: "لقد درس الجريمة أكثر مما فعل أي شخص آخر في هذه المملكة. هل تعتقدين أنك قادرة على خداعه؟".

ضيقت السيدة فانديماير عينيها.

وقالت: "إذا كان كما تقول - فسأستمتع بمحاولة خداعه".

قال بوريس: "يا إلهي، ريتا ـــــ"

أضافت السيدة فانديماير: "هذا إلى جانب أنه فاحش الثراء. أنا لست امرأة أكره المال. أموال الحرب كما تعلم يا بوريس".

قال بوريس: "المال، المال. هذا دائمًا ما يعرضنا للخطر بسببك يا ريتا. أعتقد أنك قد تبيعين روحك مقابل المال. أعتقد أنك ـــــ"، ثم توقف عن الحديث للحظات وتابع قائلاً بصوت منخفض وشرير: "أعتقد أحيانًا أنك ستبيعيننا".

ابتسمت السيدة فانديماير وهزت كتفيها.

وقالت باستخفاف: "أيًا كان السعر، يجب أن يكون مرتفعًا. لن يتمكن أي أحد كان من دفع هذا السعر إلا إذا كان مليونيرًا".

قال الروسي: "حقًا، لقد كنت على حق".

قالت السيدة فانديماير: "عزيزي بوريس، ألا يمكنك أن تستوعب الدعابة؟".

قال بوريس: "هل كانت هذه دعابة؟".

قالت السيدة فانديماير: "بالطبع".

قال بوريس: "ما سأقوله إذن هو أن فكرتك عن الدعابة غريبة جدًا عزيزتي ريتا".

ابتسمت السيدة فانديماير.

وقالت: "دعنا لا نتشاجر يا بوريس. اقرع الجرس، أعتقد أننا بحاجة لمشروب".

عادت توبينس بسرعة من حيث جاءت، ثم توقفت للحظة لتنظر لنفسها في مرآة السيدة فانديماير وتتأكد من أنه ألا يوجد أي شيء يشوب مظهرها، ثم توجهت لتجيب قرع الجرس باحتشام.

على الرغم من أن المحادثة التي سمعتها توبينس أثبتت ضلوع كل من ريتا وبوريس في الجريمة، فإنها لم تلق الكثير من الضوء على الموضوعات التي تهم توبينس. إن اسم جاين فين لم يذكر.

في الصباح التالي، أخبرها ألبرت بعدم وصول أية رسائل إلى متجر أدوات الكتابة. كان من الغريب ألا يقوم تومي، إذا كان كل شيء يجري على خير ما يرام معه، بإرسال أية رسائل لها. شعرت كما لو كانت قبضة باردة تعتصر قلبها... ماذا لو... نفضت هذه المخاوف عن رأسها بشجاعة، فلن يفيدها القلق بشيء، ولكنها اغتنمت الفرصة التي منحتها إياها السيدة فانديماير.

قال السيدة فانديماير: "متى تحصلين على عطلتك يا برودنس؟".

قالت توبينس: "عادة ما تكون في يوم الجمعة يا سيدتي".

رفعت السيدة فانديماير حاجبيها.

وقالت: "واليوم هو يوم الجمعة، ولكني أعتقد أنك لا ترغبين في الخروج اليوم، فقد وصلت أمس".

قالت توبينس: "في الحقيقة، كنت أفكر في أن أطلب منك الخروج يا سيدتي".

نظرت لها السيدة فانديماير لدقيقة أخرى ثم ابتسمت.

وقالت: "أتمنى لو كان الكونت ستيبانوف هنا ليسمعك. لقد اقترح أمرًا ما عنك ليلة أمس"، ثم اتسعت ابتسامتها أكثر، وقالت: "إن طلبك معتاد للغاية. أنا راضية عنك. لن يمكنك فهم كل ما أقول - ولكن يمكنك أن تخرجي اليوم. إن الأمر لن يضايقني كثيرًا، حيث إنني سأتناول العشاء خارج المنزل اليوم".

قالت توبينس: "شكرًا جزيلاً لك يا سيدتي".

شعرت توبينس بالراحة بمجرد أن أصبحت بمفردها. اعترفت لنفسها مرة أخرى بأنها كانت خائفة، بل مرتعبة، من السيدة الجميلة ذات العينين القاسيتين.

في منتصف قيامها العشوائي بتلميع أدوات المائدة، أزعجها صوت جرس الباب، فذهبت لتفتحه. هذه المرة لم يكن الزائر ويتنجتون أو بوريس، ولكنه شخص ذو مظهر لافت للنظر.

كان رجلاً متوسط الطول، إلا أنه يعطيك انطباعًا بأنه رجل مهم. كان حليق الوجه، ومتقلب الملامح وكان يحمل أمارات السلطة والنفوذ أكثر من المعتاد. كان الرجل يبدو كما لو كان يشع بالجاذبية.

لم تكن توبينس قد قررت ما إذا كانت ستصنفه على أنه ممثل أم محام، ولكن اختفت جميع شكوكها بمجرد أن أخبرها باسمه: السير جايمس بيل إدجارتون.

نظرت له توبينس باهتمام. هذا إذن مستشار الملك الذي تعرف إنجلترا بأكملها اسمه. سمعت توبينس أنه قد يصبح رئيس الوزراء في المستقبل. كان المعروف عنه أنه قد رفض تولي أي منصب حتى يتمكن من الاهتمام بمهنته، وفضل أن يظل عضوًا من الدائرة الانتخابية الإسكتلندية.

عادت توبينس إلى غرفة المؤن وهي تفكر بعمق، فقد أبهرها الرجل العظيم. لقد بدأت تفهم ثورة بوريس. إن بيل إدجارتون رجل ليس من السهل خداعه.

بعد حوالي ربع الساعة رن الجرس، فتوجهت توبينس إلى الردهة لتفتح الباب للزائر الذي رمقها بنظرة مدققة قبل أن يغادر. والآن، بينما كانت تعطيه عصاه وقبعته، كانت تدرك أن عينيه تتفحصانها جيدًا. عندما فتحت له الباب وتنحت جانبًا لتسمح له بالعبور، توقف عند عتبة الباب وقال: "إنك لم تمارسي هذا العمل منذ فترة طويلة، أليس كذلك؟".

رفعت توبينس عينيها له مصدومة، فرأت في عينيه أمارات الطيبة، وشيء آخر لم تتمكن من فهمه.

أومأ برأسه كما لو كانت قد أجابته وقال: "ممرضة متطوعة سابقة ومفلسة، أليس كذلك؟".

قالت توبينس: "هل أخبرتك السيدة فانديماير بشأني؟".

قال السير بيل: "لا يا بنيتي. لقد أخبرتني نظرتك لي. هل يروقك العمل هنا؟".

قالت توبينس: "للغاية يا سيدي، شكرًا لك".

قال السير بيل: "آه، ولكن هناك الكثير من الوظائف الجيدة هذه الأيام والتغيير لن يضرك في بعض الأحيان".

قالت توبينس: "هل تعني ــــ؟".

ولكن السير جايمس كان قد وصل بالفعل إلى الدرج، ونظر خلفه وقال لها بلطف: "إنه مجرد تلميح، ليس أكثر".

عادت توبينس إلى غرفة المؤن وهي تفكر أكثر من أي وقت مضى.

الحادي عشر

جوليوس يروي قصته

ارتدت توبينس ملابس ملائمة وخرجت في "نزهة ما بعد الظهر" التي سمحت لها السيدة فانديماير بها. كان ألبرت في فترة راحته، ولكن توبينس توجهت بنفسها إلى متجر أدوات الكتابة لتتأكد مما إذا كانت أية رسائل قد وصلتها. بعدما تأكدت من الأمر، توجهت إلى فندق الريتز، وعندما سألت موظف الاستقبال، أدركت أن تومي لم يعد حتى الآن. كانت هذه هي الإجابة التي توقعتها، ولكنها كانت مسمارًا آخر في نعش آمالها. قررت أن تكتب للسيد كارتر لتخبره متى وأين بدأ تومي مهمته، ولتطلب منه أن يفعل شيئًا ما ليتعقب أثره. كانت فكرة حصولها على مساعدته قد رفعت من روحها المعنوية بدرجة كبيرة، فسألت عن جوليوس فيرشايمر. كانت الإجابة التي تلقتها هي أنه قد وصل منذ نصف الساعة، ولكنه خرج على الفور.

ارتفعت روح توبينس المعنوية أكثر، فلن يمضي وقت طويل حتى ترى جوليوس. ربما أمكنه أن يضع خطة ما لاكتشاف ما حدث لـ تومي. كتبت توبينس رسالتها للسيد كارتر من غرفة جلوس جوليوس، وكانت بصدد كتابة العنوان على ظرف الخطاب عندما انفتح الباب.

قال جوليوس: "ماذا بحق السماء ــــ"، ثم توقف عن الحديث على الفور وعاد ليقول: "اعذريني يا آنسة توبينس. إن الحمقى في مكتب الاستقبال يقولون إن بيريسفورد لم يعد حتى الآن - وأنه لم يعد منذ يوم الأربعاء الماضي. أهذا صحيح؟".

أومأت توبينس برأسها موافقة.

وسألته بهدوء: "هل تعرف أين هو؟".

قال جوليوس: "أنا؟ وكيف يمكنني هذا؟ لم تصلني منه أية رسالة، على الرغم من أنني أرسلت له برقية صباح أمس".

قالت توبينس: "أعتقد أن رسالتك مازالت في مكتب الاستقبال لم تمس".

قال جوليوس: "ولكن، أين هو؟".

قالت توبينس: "لا أعلم، كنت آمل في أنك تعلم".

قال جوليوس: "لقد قلت لك إنه لم تصلني منه أية رسائل منذ أن افترقنا في محطة القطار يوم الأربعاء الماضي".

قالت توبينس: "أية محطة؟".

قال جوليوس: "محطة واترلو، عند تقاطع طريقي لندن والجنوب الغربي".

قطبت توبينس حاجبيها وقالت: "واترلو؟".

قال جوليوس: "نعم، ألم يخبرك بالأمر؟".

قالت توبينس: "أنا أيضًا لم أره منذ ذلك الحين. ماذا عن واترلو، ماذا كنتما تفعلان هناك؟".

قال جوليوس: "لقد اتصل بي على الهاتف، وطلب مني أن أقابله هنالك بسرعة. قال لي إنه كان يراقب اثنين من المحتالين".

قالت توبينس وقد اتسعت عيناها عن آخرهما: "أوه، فهمت، أكمل".

قال جوليوس: "أسرعت إلى هناك للقائه، وكان هناك بالفعل. أشار إلى المحتالين، وكان عليَّ أن أراقب الرجل الأضخم حجمًا. الرجل الذي قمت

بخداعه. وضع تومي تذكرة القطار في يدي وطلب مني أن أركب القطار، وكان سيذهب لمراقبة الرجل الآخر"، توقف جوليوس للحظة ثم استطرد: "كنت على يقين من أنك تعرفين كل هذا".

قالت توبينس بحسم: "جوليوس، توقف عن السير في أرجاء الغرفة. لقد أصبت بالدوار. اجلس على هذا المقعد وقص عليَّ القصة بأكملها، باختصار من فضلك".

أطاعها السيد هيرشايمر وقال: "بالطبع. من أين عليَّ أن أبدأ؟".

قالت توبينس: "من حيث توقفت. من واترلو".

قال جوليوس: "حسنًا، صعدت إلى واحدة من عربات القطار بالدرجة الأولى التي يفضلها صديقك الإنجليزي عتيق الطراز. كان القطار قد بدأ في التحرك. أول ما حدث هو أن توجه أحد الحراس نحوي وأخبرني بكل أدب بأني لست في عربة المدخنين، فوضعت في يده نصف دولار فصمت على الفور. بدأت في البحث عن الرجل الذي أراقبه على طول الممر حتى العربة التالية. وأخيرًا وجدت ويتنجتون. عندما رأيت هذا الوغد بوجهه البدين الأملس، وتخيلت جاين المسكينة واقعة بين يديه، شعرت بالغضب الشديد من أنني لا أحمل مسدسي - كنت سأرديه قتيلاً في الحال.

عندما وصلنا إلى بورتسموث، استقل ويتنجتون سيارة أجرة وأعطى سائقها اسم أحد الفنادق. فعلت مثلما فعل، وكانت سيارتي متأخرة عن سيارته بمقدار ثلاث دقائق. قام ويتنجتون باستئجار غرفة، فاستأجرت واحدة أنا أيضًا. كنت طوال هذا الوقت أراقبه من بعيد، فلم ينتبه إلى أنه مراقب. بعد ذلك جلس في بهو الفندق يقرأ الجريدة وما إلى ذلك حتى حان وقت العشاء، فنهض بتثاقل ليتناول عشاءه.

كنت قد بدأت أعتقد أنه لن يحدث شيء، وأنه قد حضر في رحلة صحية، ولكني لاحظت أنه لم يذهب لتغيير ملابسه ويرتدي ملابس العشاء، على الرغم من أن الفندق كان من فنادق الدرجة الممتازة، لذا كان من المرجح أنه سيخرج من الفندق بعد العشاء.

وبالفعل، عندما كانت الساعة تشير إلى حوالي الساعة التاسعة مساءً، خرج من الفندق. استأجر سيارة أجرة وعبر بها المدينة - بالمناسبة، إنها مدينة رائعة الجمال. أعتقد أنني سأصطحب جاين إلى هناك لقضاء العطلة عندما أجدها - ثم دفع أجرة السيارة وترجل منها بجانب غابات الصنوبر التي تعلو الجرف الصخري. كنت قد تبعته إلى هناك. سار بعد ذلك لحوالي نصف الساعة. كانت هناك الكثير من الفيلات على طول الطريق، ولكن بعد ذلك بدأ عددها يقل أكثر فأكثر، وفي النهاية وصل إلى واحدة بدا أنها الأخيرة في هذا المكان. كانت عبارة عن منزل كبير تحيط به أشجار الصنوبر.

كانت أمسية جميلة بدون قمر، وكان الطريق المؤدي إلى المنزل غارقًا في الظلام الدامس. كنت أسمع صوته أمامي، إلا أنني لم أتمكن من رؤيته. كان عليّ أن أسير بحذر حتى لا يرتاب في وجود من يتبعه. كنت أستدير في منحنى على الطريق عندما رأيته يقرع جرس باب المنزل ويدلف إليه. تسمرت مكاني، وكانت السماء قد بدأت تمطر، وكنت قد بدأت أشعر بالمياه تبلل ملابسي بأكملها. كما أن الجو كان باردًا للغاية.

لم يخرج ويتنجتون من المنزل مرة أخرى، حينها شعرت ببعض الاضطراب وبدأت في التسكع خلسة. كانت جميع النوافذ في الطابق الأرضي مغلقة بإحكام ولكن في الطابق الأول (كان المنزل مكونًا من طابقين) لاحظت أن هناك نافذة يظهر الضوء من خلفها ولم تكن الستائر مسدلة.

كانت هناك شجرة بالقرب من هذه النافذة. كانت على بعد حوالي ثلاثين قدمًا من المنزل، وراودتني فكرة أنني لو تسلقت هذه الشجرة فسيمكنني أن أرى ما بداخل الغرفة. كنت أدرك، بلا شك، أنه ليس من المفترض أن يكون ويتنجتون متواجدًا في هذه الغرفة بالذات، وأنه قد يكون في أية غرفة أخرى - ومن الممكن أن يكون في واحدة من غرف الضيافة في الطابق الأرضي، ولكني أعتقد أنه قد انتابتني نوبة قلق من وقوفي لوقت طويل تحت المطر، وكان يبدو لي أن فعل أي شيء أفضل من عدم فعل أي شيء. لذا بدأت في تسلق الشجرة.

لم يكن تسلق الشجرة بالأمر اليسير، فقد جعلت الأمطار أغصانها زلقة، وكل ما تمكنت من فعله في البداية هو جعل قدمي ترتكز على شيء ما، ولكني تمكنت بالتدريج من التسلق حتى وصلت في النهاية إلى مستوى النافذة.

ولكن شعرت حينها بخيبة الأمل. فقد كان موقعي بعيدًا عن النافذة نحو اليسار. كنت قادرًا على رؤية جوانب الغرفة، وجزء من الستائر وياردة واحدة من ورق الحائط فقط، ولكن هذا لم يكن يناسبني. بينما كنت بصدد الاستسلام، والهبوط من على الشجرة، تحرك شخص ما فسقط ظله على الحائط الذي يمكنني رؤيته - وللحظ السعيد، كان ويتنجتون.

بعد ذلك، تصاعد الدم في رأسي، فقد كان يجب عليَّ أن ألقي نظرة على ما يحدث داخل الغرفة، وكان عليَّ أن أكتشف كيف أقوم بهذا. لاحظت وجود أحد أغصان الشجرة يتجه نحو اليمين. إذا ما تمكنت من الزحف عليه حتى منتصفه فقط، فسأتمكن من إلقاء نظرة على ما يجري داخل الغرفة، ولكني لم أكن واثقًا مما إذا كان الغصن سيتحمل وزني أم لا. فقررت أن أخاطر وأقدم على الزحف عليه، وبدأت الزحف عليه بالفعل بحذر شديد بوصة بعد بوصة. بدأ الغصن في التكسر والتمايل بشدة، ولكني لم أحاول التفكير فيما سيحدث إذا ما سقطت، ووصلت في النهاية إلى المكان الذي كنت أرغب في الوصول إليه.

كانت الغرفة متوسطة الحجم، وكانت مفروشة بطريقة صحية. كانت هناك طاولة عليها مصباح تقع في منتصف الغرفة، وكان ويتنجتون يجلس أمام الطاولة مواجهًا للنافذة التي أقف خلفها. كان ويتنجتون يتحدث مع امرأة ترتدي ثياب الممرضات. كانت تجلس وظهرها يواجهني، لذا لم أتمكن من رؤية وجهها. على الرغم من أن الستائر كانت مرفوعة، كانت النافذة نفسها مغلقة، لذا لم أتمكن من سماع أي شيء مما يُقال. كان يبدو أن ويتنجتون هو من يتحدث، وكانت الممرضة تستمع لما يقول. كانت الممرضة تومئ برأسها من وقت لآخر كما لو كانت تجيب عن أسئلته. كان ويتنجتون يبدو حازمًا - وضرب بقبضته على سطح الطاولة مرة أو مرتين. كانت الأمطار قد توقفت في ذلك الوقت، وبدأت السحب تنقشع بشكل مفاجئ.

كان يبدو أن ويتنجتون قد انتهى من حديثه، فنهض وكذلك نهضت الممرضة. نظر نحو النافذة وسألها عن أمر ما، أعتقد أنه كان يسألها عما إذا كانت السماء تمطر. على أية حال، توجهت الممرضة نحو النافذة ونظرت خارجها، في الوقت ذاته سطع ضوء القمر من خلف السحب. خفت أن تلحظ المرأة وجودي في ضوء القمر. حاولت أن أتحرك قليلاً للخلف، ولكن لم يتحمل غصن الشجرة الحركة المفاجئة التي قمت بها، فانكسر الغصن بصوت عالٍ وسقط على الأرض وأنا معه".

شهقت توبينس وهي تقول: "أوه، جوليوس، يا له من أمر مثير، استمر".

قال جوليوس: "من حسن حظي، سقطت على تربة لينة - ولكني فقدت الوعي. الأمر التالي الذي أتذكره، هو أنني كنت راقدًا على فراش، وكانت هناك ممرضة (ليست ممرضة ويتنجتون) تجلس على أحد جانبي الفراش، وكان هناك رجل ضئيل الحجم أسود اللحية يرتدي نظارات ذات إطار ذهبي، ورجل يبدو عليه أنه طبيب، على الجانب الآخر. فرك الطبيب يديه ببعضهما ورفع حاجبيه وهو يقول: حسنًا، لقد أفاق صديقنا الشاب مرة أخرى، ممتاز، ممتاز.

كانت تبدو عليَّ أمارات الدهشة، فقلت: "ماذا حدث؟ وأين أنا؟"، ولكني أدركت أن إجابة السؤال الأخير معروفة، فقد كان عقلي يعمل بكفاءة. قال الرجل ضئيل الحجم: أعتقد أن هذا يكفي للوقت الحالي أيتها الممرضة، فغادرت الممرضة الغرفة بطريقة تدل على التدريب الجيد، ولكني رأيتها تنظر لي بطريقة تحمل الكثير من الفضول بينما كانت تخرج من الباب.

واتتني فكرة ما بفضل نظرتها لي فقلت: "والآن أيها الطبيب"، وحاولت أن أجلس في الفراش ولكن قدمي اليمنى كانت تؤلمني بشدة. قال الطبيب مفسرًا: التواء بسيط في الكاحل. لا شيء خطير، سيمكنك أن تسير عليها في خلال يومين".

قالت توبينس: "لقد لاحظت أنك تعرج".

أومأ جوليوس برأسه وتابع حديثه قائلاً: "سألت مرة أخرى: كيف حدث هذا؟، فأجابني الطبيب بجفاف: لقد سقطت من فوق واحدة من أشجاري على أحد أحواض الزهور الجديدة الخاصة بي.

أعجبني الرجل، فقد كان يبدو أنه يمتلك بعضًا من حس الفكاهة. شعرت بأنه رجل صريح للغاية، فقلت: حسنًا أيها الطبيب. أعتذر عما حدث للشجرة، وأعتقد أني سأتحمل تكلفة حوض الزهور الجديد، ولكني أعتقد أنك ترغب في معرفة ما كنت أفعله في الحديقة، أليس كذلك؟. رد عليَّ الطبيب قائلاً: أعتقد أن ما حدث يحتاج إلى تفسير. فقلت: "بادئ ذي بدء، أنا لم أكن أنوي سرقة ملاعق المنزل".

"ابتسم الطبيب وقال: "كانت هذه نظريتي الأولى، ولكني سرعان ما غيرتها. بالمناسبة، هل أنت أمريكي؟"، فأخبرته باسمي، و سألته: وأنت؟، فقال: أنا الطبيب هول، وهذه هي عيادتي الخاصة.

"لم أكن أعلم هذا، ولكني لم أكن أنوي أن أخبره بهذا. كنت ممتنًا للمعلومات التي حصلت عليها. كان الرجل يعجبني، واعتقدت أنه رجل شريف، ولكني لم أكن أنوي أن أقص عليه قصتي بأكملها، ربما لأنه لم يكن سيصدقني.

قررت على الفور أن أقول: "معذرة أيها الطبيب، أشعر بأني شديد الحمق، ولكني أريدك أن تعرف أنني لم أكن أنوي شرًا". ثم بدأت أقص عليه قصة عن فتاة ما والرجل الصارم الذي تعيش في كنفه وإصابتي بانهيار عصبي، وفي النهاية قلت له إنني تخيلت أنها واحدة من المرضى في هذه العيادة، لذا قمت بمغامرتي الليلية تلك.

أعتقد أنها كانت من نوعية القصص التي كان يتوقعها، حيث قال: يا لها من قصة رومانسية! فقلت له: "والآن أيها الطبيب، هل ستكون صريحًا معي؟ هل هناك فتاة هنا، أو كانت مريضة هنا في أي وقت سابق، تُدعى جاين فين؟". كرر الاسم قائلاً: "جاين فين؟ لا".

"شعرت بالضيق، واعتقدت أني أظهرت له ذلك، وقلت: "هل أنت واثق؟"، فقال: "تمام الثقة يا سيد هيرشايمر. إنه اسم غير شائع، ولم أكن لأنساه قط".

حسنًا، لقد كان الرجل صريحًا، الأمر الذي جعلني أصمت لبعض الوقت. كنت آمل أن ينتهي بحثي هنا. قلت في النهاية: هذا كل شيء. والآن، هناك أمر آخر. بينما كنت معلقًا على هذا الغصن المشئوم، رأيت صديقًا قديمًا يتحدث إلى واحدة من ممرضاتك؛ كنت قد تعمدت عدم ذكر أية أسماء، لأنني اعتقدت أنه لا شك في أن ويتنجتون يُدعى باسم آخر هنا، ولكن الطبيب أجاب على الفور: "ربما كان السيد ويتنجتون؟"؛ فقلت له: "نعم، إنه هو. ماذا كان يفعل هنا؟ لا تقل لي إن أعصابه مرهقة؟".

ضحك الطبيب هول وقال: "لا. لقد أتى لرؤية واحدة من ممرضاتي الممرضة إديث، ابنة أخيه. قلت على الفور: "أعتقد أنه لا يزال هنا؛ قال الطبيب: "لا، لقد عاد للمدينة على الفور"؛ فقلت: "واه أسفاه، ربما كان باستطاعتي أن أتحدث مع ابنة أخيه - الممرضة إديث، هل هذا هو اسمها؟".

ولكن الطبيب هز رأسه نفيًا وقال: "أعتقد أن هذا ليس ممكنًا أيضًا، فقد غادرت هي الأخرى مع أحد المرضى الليلة"؛ فقلت: "يبدو أن الحظ يعاندني. هل تعرف عنوان السيد ويتنجتون في المدينة؟ أعتقد أنه يجب عليَّ أن أذهب لرؤيته عندما أعود"؛ فقال الطبيب: "أنا لا أعرف عنوانه، ولكن يمكنني أن أكتب رسالة للممرضة إديث أسألها عنه إذا أحببت"؛ فشكرته وقلت: "ولكن لا تخبرها بمن يريد العنوان - أريد أن أفاجئه".

كان هذا هو كل ما أمكنني فعله في تلك اللحظة. لاشك في أن تلك الفتاة إن كانت ابنة أخيه بالفعل، ستكون ساذجة بالقدر الكافي لتقع في الفخ، ولكن الأمر كان يستحق المحاولة. بعد ذلك، قمت بإرسال رسالة تلغرافية لـ بيريسفورد أخبره فيها بمكاني، وأنني طريح الفراش بسبب التواء كاحلي، وأن يأتي لاصطحابي إذا لم يكن مشغولاً بأمر ما. كان يجب أن أكون حذرًا فيما أكتب، ولكنه لم يرسل لي ردًا، ثم سرعان ما شفيت قدمي، فقد كانت مجرد كدمة وليس التواء، لذا ودعت الطبيب الشاب اليوم، وطلبت منه أن يبعث لي برسالة إذا ما أخبرته الممرضة إديث بالعنوان، وعدت مباشرة إلى المدينة. ما الأمر يا آنسة توبينس، إنك تبدين شاحبة؟".

قالت توبينس: "إنه تومي. ما الذي من المحتمل أن يكون قد حدث له؟".

قال جوليوس: "لا تقلقي، أعتقد أنه بخير، ولم لا؟ اسمعي، كان الرجل الذي رآه يبدو أجنبيًا. ربما تبعه إلى خارج البلاد - إلى بولندا أو شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟".

هزت توبينس رأسها نفيًا وقالت: "لن يمكنه ذلك دون جواز سفره وأمتعته، كما أنني رأيت الرجل - اسمه بوريس أو شيء ما. لقد تناول العشاء مع السيدة فانديماير ليلة البارحة".

قال جوليوس: "السيدة من؟".

قالت توبينس: "لقد نسيت أنك لا تعلم شيئًا عن الأمر".

قال جوليوس، وظهر على وجهه التعبير الذي يفضله: "كلي آذان مصغية. أخبريني بالأمر".

قصت عليه توبينس أحداث اليومين السابقين، وكانت دهشة جوليوس وإعجابه لا حدود لهما، وقال: "يا لك من جريئة. لا يمكنني أن أتخيلك خادمة. إن الأمر يجعلني أرغب في الضحك حتى الموت"، ثم أضاف بجدية: "ولكن هذا الأمر لا يعجبني، لا يعجبني حقًا يا آنسة توبينس. إنك جريئة للغاية، ولكني أرغب في أن تنسحبي من هذا الأمر على الفور. إن المجرمين الذين نتعقبهم لن يتورعوا عن قتل أية فتاة مثلما يقتلون الرجال في أي وقت".

قالت توبينس بسخط وجرأة وهي تتذكر النظرات الحادة التي تطل من عيني السيدة فانديماير: "هل تعتقد أنني خائفة؟".

قال جوليوس: "لقد قلت من قبل إنك جريئة للغاية، ولكن هذا لن يغير من الحقائق شيئًا".

قالت توبينس بنفاد صبر: "لا تضايقني. دعنا نفكر فيما يكون قد حدث لـ تومي. لقد أرسلت رسالة للسيد كارتر أخبره فيها بالأمر"، وبدأت تخبره بفحوى الخطاب.

أومأ جوليوس برأسه بشدة.

وقال: "أعتقد أن ما فعلته عين الصواب، ولكن يقع الأمر على عاتقنا لنقوم بشيء ما".

قالت توبينس: "وماذا يمكننا أن نفعل؟".

قال جوليوس: "أعتقد أنه من الأفضل أن نراقب بوريس. أنت تقولين إنه قد حضر للمنزل الذي تعملين فيه. هل تعتقدين أنه من المحتمل أن يأتي مرة أخرى؟".

قالت توبينس: "ربما. لا أعلم حقًا".

قال جوليوس: "لقد فهمت. أعتقد أنه من الأفضل أن أشتري سيارة، سيارة ممتازة، وأتظاهر بأني سائق وأبدأ في التسكع أمام المنزل، وإذا ما حضر بوريس فيمكنك أن ترسلي لي إشارة ما لأبدأ في تعقبه. ما رأيك في هذا؟".

قالت توبينس: "رائع، ولكنه قد لا يأتي إلا بعد أسابيع".

قال جوليوس: "حسنًا، علينا أن نجرب هذا، ويسرني أن الخطة أعجبتك". ثم نهض واقفًا.

قالت توبينس: "إلى أين أنت ذاهب؟".

قال جوليوس: "سأذهب لشراء السيارة بالطبع. أي نوع تفضلين؟ أعتقد أنك سترغبين في قيادتها قبل أن ينتهي الأمر".

قالت توبينس بهدوء: "أوه، أفضل رولزرويس، ولكن ــــ"

وافقها جوليوس قائلاً: "بالطبع. سأنفذ ما تأمرين به. سأشتري واحدة على الفور".

صاحت توبينس قائلة: "ولكن لا يمكنك شراؤها على الفور. إن الناس ينتظرون لوقت طويل قبل الحصول على واحدة".

طمأنها السيد هيرشايمر قائلاً: "ولكن جوليوس لا يفعل. لا تقلقي. سأحضر السيارة وأعود بعد نصف الساعة".

نهضت توبينس من مكانها.

وقالت: "إنك شخص طيب يا جوليوس، ولكن لا يمكنني التوقف عن التفكير في كون هذا الأمل واهيًا. إنني أضع أملي كله في السيد كارتر".

قال جوليوس: "لا يجب عليَّ أن أفعل إذن".

قالت توبينس: "لماذا؟".

قال جوليوس: "مجرد فكرة واتتني".

قالت توبينس: "ولكن يجب عليه أن يفعل شيئًا ما. لا يوجد شخص آخر يمكنه ذلك. بالمناسبة، نسيت أن أخبرك بأمر غريب حدث هذا الصباح".

قصت عليه مقابلتها مع السير جايمس بيل إدجارتون، فقال لها جوليوس باهتمام: "ماذا كان يعني هذا الرجل في اعتقادك؟".

قالت توبينس وهي تفكر بعمق: "لا أعلم، ولكني أعتقد أنه كان يحذرني بطريقة غامضة وقانونية دون إجحاف المحامين المعتاد".

قال جوليوس: "ولماذا فعل ذلك؟".

أقرت توبينس قائلة: "لا أعلم، ولكنه بدا ودودًا، وماهرًا للغاية. أنا لا أمانع في أن أذهب إليه وأخبره بكل ما يجري".

لدهشتها، عارض جوليوس هذه الفكرة بشدة.

قال: "اسمعي. إننا لا نريد أن ندخل أي محامين في هذا الأمر. إن هذا الرجل لن يمكنه مساعدتنا بأية طريقة كانت".

قالت توبينس: "ولكني أعتقد أنه قادر على مساعدتنا".

قال جوليوس: "لا تفكري في هذا. إلى اللقاء، سأعود بعد نصف الساعة".

عاد جوليوس بعد نصف ساعة وخمس دقائق، وسحب توبينس من ذراعها نحو النافذة.

وقال: "ها هي السيارة".

قالت توبينس بصوت يحمل نبرة الدهشة وحدقت في السيارة الفخمة، فقال جوليوس: "إنها قادرة على إحلال السلام".

قالت توبينس: "كيف تمكنت من الحصول عليها؟".

قال جوليوس: "كانت ستُرسل إلى شخصية مهمة".

قالت توبينس: "وماذا بعد؟".

قال جوليوس: "ذهبت إلى منزله وقلت له إنني أعتقد أن سيارة مثل هذه تستحق عشرين ألف دولار، وأخبرته بأنها تساوي بالنسبة لي خمسين ألف دولار إذا ما باعها لي على الفور".

قالت توبينس مبهورة: "وماذا بعد؟".

قال جوليوس: "لقد باعها لي، هذا كل شيء".

الثاني عشر

صديق في ورطة

مر يوما الجمعة والسبت في هدوء من دون أحداث تُذكر، حيث وصل لـ توبينس رد على رسالتها للسيد كارتر جاء فيه أن شباب المغامرين قد وافقوا على القيام بالعمل على مسئوليتهم الخاصة، وأنهم كانوا على دراية كاملة بالمخاطر. أي شيء قد يحدث لـ تومي سيكون نادمًا عليه أشد الندم، ولكن لا يمكنه أن يفعل أي شيء تجاهه.

كان ما قاله السيد كارتر لا يسمن ولا يغني من جوع. بدون تومي، لم يكن للمغامرة معنى، وللمرة الأولى شعرت توبينس بعدم ثقتها في النجاح. عندما كانا مع بعضهما، لم تكن تشك في النجاح على الإطلاق. وعلى الرغم من أنها اعتادت أن تكون في موقع القيادة، وأن تفتخر بسرعة بديهتها، فإنها في واقع الأمر كانت تعتمد على تومي أكثر مما كانت تعتقد في ذلك الحين. كان تومي يتمتع بالرزانة ورجاحة العقل، فقد كانت عقلانيته وصواب رؤيته ثابتين، لذا كانت توبينس تشعر بدونه بأنها سفينة بدون دفة. كان من الغريب أن جوليوس، الذي كان أكثر مهارة من تومي، لم يعطها الإحساس نفسه بالدعم. لطالما اتهمت تومي بالتشاؤم لأنه كان يرى عيوب الأمور وصعوبتها في حين كانت هي تنظر لجميع

الأمور بتفاؤل، إلا أنها كانت تعتمد كثيرًا على حكمه على الأمور. ربما كان بطيئًا قليلاً في التعامل، ولكنه كان واثقًا مما يفعل.

أدركت توبينس للوهلة الأولى الطبيعة الشريرة للمهمة التي قبلاها بدون اكتراث. لقد بدأ الأمر كما لو كان رواية رومانسية، أما الآن، بعد أن اختفت فتنتها فقد ظهر وجهها القبيح. تومي كان كل ما يهمها في الوقت الحالي. كانت توبينس تجهش بالبكاء عدة مرات في اليوم، وكانت تقول لنفسها: "أيتها الحمقاء، لا تبكي. لا شك في أنك - تحبينه. لقد كنت تعرفينه طوال حياتك، ولكن لا يجب أن تتعاملي مع الأمر بعاطفية شديدة".

في الوقت ذاته، لم يظهر بوريس مرة أخرى. لم يذهب إلى الشقة مرة أخرى، وكان جوليوس وسيارته ينتظران دون طائل. كانت توبينس قد استسلمت لفكرة جديدة، فعلى الرغم من أنها قد أقرت بصحة اعتراضات جوليوس، فإنها لم تنفض عن تفكيرها فكرة إخبار السير جايمس بيل إدجارتون بما يجري، لدرجة أنها بحثت عن عنوانه في *الكتاب الأحمر*. هل كان يقصد أن يحذرها في ذلك اليوم؟ وإذا كان هذا ما يقصده، فما السبب؟ كان من حقها على الأقل أن تطلب تفسيرًا لما قال. كان الرجل ينظر إليها بعطف، وربما كان قادرًا على إخبارهم بأمر ما بخصوص السيدة فانديماير من شأنه أن يكشف لهم مكان تومي.

على أية حال، قررت توبينس، بطريقتها المعتادة في هز كتفيها، أن تجرب هذه الفكرة. كان يوم الأحد هو موعد خروجها في فترة ما بعد الظهر، وكان من المفترض أن تقابل جوليوس لكي تقنعه بفكرتها ويذهبا ليواجها الأسد في عرينه.

عندما حل اليوم المنشود، لاقت توبينس صعوبة كبيرة في إقناع جوليوس، ولكنها تماسكت أمام معارضته الشديد بتكرار قولها: "لن يضرنا شيء". استسلم لها جوليوس في النهاية واستقلا السيارة متوجهين نحو حي كارلتون السكني.

فتح رئيس الخدم الباب، وكانت توبينس تشعر بقدر قليل من العصبية، فربما كان ما تفعله وقاحة من قبلها. قررت توبينس ألا تسأل عن وجود السير في المنزل، بل قررت أن تتحدث بأسلوب شخصي أكثر، فقالت: "هل يمكن أن تسأل السير جايمس عما إذا كان باستطاعتي أن أقابله لبضع دقائق؟ أنا أحمل رسالة مهمة من أجله".

انصرف كبير الخدم وعاد بعد لحظات.

قال: "لقد وافق السير جايمس على مقابلتك. ادخلي من فضلك".

أشار لهما الخادم بالتوجه إلى غرفة في مؤخرة المنزل، كان الأثاث فيها يدل على كونها غرفة مكتبة. كانت الغرفة تحتوي على مجموعة رائعة من الكتب، ولاحظت توبينس أن هناك حائطًا كاملاً مكرسًا لكتب عن الجريمة. كان هناك الكثير من المقاعد الوثيرة، ومدفأة مفتوحة عتيقة الطراز. بجانب النافذة، كان هناك مكتب ذو سطح متحرك تناثرت عليه الأوراق، والذي كان صاحب المنزل يجلس أمامه.

نهض السير جايمس من جلسته.

وقال: "إنك تحملين رسالة من أجلي، أليس كذلك؟ آه"، وتعرف على توبينس وابتسم وقال: "هذه أنت. هل تحملين رسالة من السيدة فانديماير؟".

قالت توبينس: "ليس تمامًا. في حقيقة الأمر، أخشى أنني قلت هذا لتوافق على رؤيتي. بالمناسبة، هذا هو السيد هيرشايمر، السير جايمس بيل إدجارتون".

قال الأمريكي وهو يمد يده للمصافحة: "تشرفت بلقائك".

قال السير جايمس وهو يجذب مقعدين: "ألن تجلسا؟".

قالت توبينس بجرأة: "سير جايمس، أعتقد أنك ستفكر في أن قدومي إلى هنا وقاحة مفرطة مني، لأن ما سأقصه عليك لا يتعلق بك على الإطلاق، كما أنك شخص بالغ الأهمية، وأنا وتومي لسنا مهمين على الإطلاق"، توقفت للحظة لتلتقط أنفاسها.

سألها السير جايمس وهو ينقل بصره إلى الأمريكي: "هل هذا هو تومي؟".

قالت توبينس: "لا، هذا جوليوس. أنا أشعر بالعصبية، وهذا ما يجعلني أعرض عليك الأمر بشكل سيئ. إن ما أرغب في معرفته هو ماذا كنت تقصد بما

قلته لي في ذلك اليوم؟ هل كنت تقصد تحذيري من السيدة فانديماير؟ هل كنت تقصد ذلك؟".

قال السير جايمس: "سيدتي العزيزة، ما أتذكره هو أني قلت إن هناك وظائف على نفس القدر من الجودة في أماكن أخرى".

قالت توبينس: "نعم، أعلم هذا، ولكن هذا كان تلميحًا، أليس كذلك؟".

أقر السير جايمس قائلاً: "نعم، ربما كان كذلك".

قالت توبينس: "حسنًا إذن، أرغب في معرفة المزيد. أرغب في أن أعرف لماذا قلت هذا التلميح لي".

ابتسم السير جايمس أمام إصرارها.

وقال: "افترضي أن تقوم السيدة بالتشهير بي".

قالت توبينس: "نعم، أعلم أن المحامين يتعاملون بحذر مع هذه الأمور، ولكن يمكننا أن نقول "دون حكم مسبق" أولاً، ثم نقول ما نرغب في قوله".

قال السير جايمس ولم تفارق الابتسامة شفتيه: "حسنًا، بدون حكم مسبق، إذا كانت أختي الصغيرة مجبرة على العمل، فإني لا أحبذ رؤيتها تعمل لدى السيدة فانديماير. لقد شعرت بأنه من واجبي أن ألمح لك بهذا. إنه مكان لا يلائم فتاة صغيرة وعديمة الخبرة. هذا كل ما يمكنني قوله لك".

قالت توبينس وهي تفكر بعمق: "فهمت. شكرًا جزيلاً لك، ولكني لست عديمة الخبرة، وكنت أعلم أنها امرأة سيئة عندما بدأت بالعمل لديها - في حقيقة الأمر، هذا هو سبب عملي لديها -"، توقفت عن الحديث ولاحظت الذهول على وجه المحامي وتابعت: "أعتقد أنه من الأفضل أن أقص عليك القصة بأكملها يا سير جايمس. يراودني شعور بأنك ستكتشف في لحظات قليلة ما إذا كنت أقول الحقيقة أم لا، ولذلك، ربما من الأفضل أن تعرف القصة من البداية. ما رأيك يا جوليوس؟".

رد الأمريكي الذي كان يجلس صامتًا: "كما تريدين، سأقول جميع الحقائق التي أعرفها".

قال السير جايمس: "حسنًا، أخبريني بكل شيء. أريد أن أعرف من هو تومي".

شجع هذا القول توبينس على البدء بقص قصتها التي استمع لها المحامي باهتمام شديد.

وقال عندما انتهت: "أمر مثير للغاية. هناك قدر كبير مما قلته يا بنيتي أعلمه بالفعل. لقد كونت بعض النظريات بنفسي حول جاين فين. لقد قمت بعمل رائع حتى الآن، ولكن من السيئ أن يقوم هذا الرجل - ماذا تطلقين عليه؟ - السيد كارتر بتوريط شابين مثلكما في أمور من هذا النوع. بالمناسبة، من أين أتى السيد هيرشايمر؟ إنك لم توضحي هذا".

أجاب جوليوس بنفسه:

"أنا ابن خال جاين"، ثم تبادل النظرات الصارمة مع المحامي.

قال السير جايمس: "آه".

قاطعتهما توبينس قائلة: "سير جايمس، ما الذي تعتقد أنه حل بـ تومي؟".

نهض المحامي وبدأ يجوب أرجاء الغرفة قائلاً: "عندما وصلت أيتها الشابة، كنت أعد عدتي لأذهب إلى اسكوتلانديارد في قطار الليل لأتقصى بعض الأمور، ولكن هناك أمورًا أخرى سأتقصاها الآن. أعتقد أنني سأبقى لأرى ما إذا كان باستطاعتنا أن نقتفي أثر هذا الشاب أم لا".

شبكت توبينس أصابع يديها معًا في اهتمام وقالت: "أوه".

قال السير جايمس: "كما قلت من قبل، من السيئ أن يورط السيد كارتر طفلين مثلكما في أمور من هذا القبيل، لا تشعري بالإهانة يا آنسة ـــــ".

قالت توبينس: "كاولي، برودنس كاولي، ولكن أصدقائي يطلقون عليَّ توبينس".

قال السير جايمس: "حسنًا، يا آنسة توبينس، فلا شك في أنني سأكون أحد أصدقائك. لا تشعري بالإهانة لأني أعتقد بالفعل أنكما ما زلتما صغيرين. إن الشباب هو مرحلة الفشل التي تسبق النضوج. والآن، دعونا نتحدث عن هذا الشاب تومي ـــــ".

شبكت توبينس أصابع يديها وقالت: "نعم".

قال السير جايمس: "بصراحة، يبدو أن الأمور قد تعقدت معه. أعتقد أنه قد وضع في مكان رغمًا عنه - لاشك في هذا، ولكن لا تفقدي الأمل".

قالت توبينس: "هل ستساعدنا حقًا؟ جوليوس هذا كان لا يريدني أن آتي لك".

قال المحامي وهو يرمق جوليوس بنظرة حادة: "لماذا؟".

قال جوليوس: "اعتقدت أنه لن يكون الأمر جيدًا إذا ما أزعجناك بأمر تافه مثل هذا".

قال السير جايمس: "فهمت"، ثم توقف عن الحديث للحظة واستطرد قائلاً: "هذا الأمر التافه، كما تطلق عليه، يحمل في طياته أمرًا شديد الأهمية، ربما أكثر أهمية مما قد تتخيل أنت والآنسة توبينس. إذا كان هذا الصبي لا يزال على قيد الحياة، فربما يمتلك معلومات غاية في الأهمية ليخبرنا بها، لذا يجب علينا أن نعثر عليه".

قالت توبينس: "نعم، ولكن كيف؟ لقد حاولت التفكير في جميع السبل".

ابتسم السير جايمس.

وقال: "هناك شخص واحد بين يدينا من المؤكد أنه يعلم مكانه، أو أين يمكن أن يكون".

سألته توبينس حائرة: "من هو هذا الشخص؟".

قال السير جايمس: "السيدة فانديماير".

قالت توبينس: "نعم، ولكنها لن تخبرنا بأي شيء".

قال السير جايمس: "هذا هو دوري. أعتقد أنني قادر على أن أجعل السيدة فانديماير تخبرني بما أرغب في معرفته".

سألته توبينس وعيناها جاحظتان في محجريهما: "كيف؟".

أجابها السير جايمس في بساطة: "سأسألها. هذه هي طريقة عملنا كما تعلمين".

طرق السير جايمس بأصابعه على الطاولة، وشعرت توبينس مرة أخرى بالقوة المفرطة التي تشع منه.

سأله جوليوس فجأة: "وإذا لم تخبرك؟".

قال السير جايمس: "أعتقد أنها ستخبرني. إنني أمتلك بعض الأساليب القوية. ولكن إذا تمكنت من مقاومة أساليبي، فهناك دائمًا حل الرشوة".

قال جوليوس وهو يضرب سطح الطاولة بصوت عال: "بالتأكيد. هذا مجال اختصاصي. يمكنك أن تعتمد عليَّ إذا ما احتجت إلى مليون دولار. نعم يا سيدي، مليون دولار".

جلس السير جايمس ورمق جوليوس بنظرة طويلة.

ثم قال أخيرًا: "سيد هيرشايمر، إنه مبلغ كبير للغاية".

قال جوليوس: "يجب أن يكون كذلك، لا أعتقد أن هؤلاء الأشخاص من النوعية التي ترتضي بالمبالغ الزهيدة".

قال السير جايمس: "بمعدل أسعار تبادل العملات الحالي، أعتقد أن المبلغ قد يتجاوز مائتين وخمسين ألف جنيه".

قال جوليوس: "لا بأس. أعتقد أنك تراني أتحدث دون أن أعي ما أقول، ولكني أملك هذا المبلغ بالفعل، بل وأكثر بما يكفي لأن أدفع مصروفاتك".

احمر وجه السير جايمس قليلاً.

وقال: "أنا لم أطلب أية مصروفات يا سيد هيرشايمر. أنا لست محققًا خاصًا".

قال جوليوس: "أعذرني، يبدو أني قد تسرعت في القول، ولكني أشعر بالسوء عندما يتعلق الأمر بالمال. لقد كنت أرغب في تقديم مكافأة كبيرة مقابل أية معلومات عن جاين منذ بضعة أيام، ولكن نصحني الرجال في اسكوتلانديارد بألا أفعل، حيث قالوا إنه أمر لا يحبذونه".

قال السير جايمس باقتضاب: "ربما كانوا محقين".

قالت توبينس: "لا بأس بـ جوليوس، إنه لا يخدعك. إنه يملك الكثير من المال".

فسر له جوليوس الأمر قائلاً: "لقد ترك لي والدي الكثير من المال، والآن دعونا نتحدث في العمل. ما هي فكرتك؟".

فكر السير جايمس لبضع لحظات.

قال: "لا يوجد وقت لنضيعه. كلما بكرنا بالتنفيذ، كان أفضل"، ثم التفت إلى توبينس وقال: "هل ستتناول السيدة فانديماير العشاء خارج المنزل اليوم؟".

قالت توبينس: "نعم، أعتقد هذا، ولكنها لن تتأخر في الخارج، وإلا كانت ستأخذ مفتاح الباب معها".

قال السير جايمس: "جيد. سأمر عليها في حوالي العاشرة مساءً. متى من المفترض أن تعودي؟".

قالت توبينس: "في التاسعة والنصف أو العاشرة، ولكن يمكن أن أعود مبكرًا".

قال السير جايمس: "لا تفعلي هذا أبدًا. ستثيرين شكوكها إذا ما عدت مبكرًا عن موعدك. عودي في التاسعة والنصف. سأصل في العاشرة. سينتظر السيد هيرشايمر في سيارة أجرة في الأسفل".

قالت توبينس بفخر: "إنه يمتلك سيارة رولز رويس جديدة".

قال السير جايمس: "هذا أفضل. إذا ما تمكنت من الحصول على العنوان منها، يمكننا أن نذهب إلى هناك على الفور، وسنأخذ السيدة فانديماير معنا إذا ما كنا بحاجة لذلك. هل تفهمون؟".

نهضت توبينس واقفة وقالت بحماس: "نعم. أنا أشعر بأنني في حال أفضل".

قال السير جايمس: "لا تأملي كثيرًا في نجاح الأمر يا آنسة توبينس، اهدئي".

التفت جوليوس للمحامي قائلاً: "سأمر عليك بالسيارة حوالي الساعة التاسعة والنصف، أليس كذلك؟".

قال السير جايمس: "من الأفضل أن نفعل هذا. لن يكون ضروريًا أن تكون هناك سيارتان منتظرتان أسفل المبنى. والآن، آنسة توبينس، نصيحتي لك هي

أن تذهبي وتتناولي عشاءً شهيًا، شهيًا للغاية، ولا تفكري في القيام بأي شيء لا يمكنك السيطرة على نتائجه".

صافحهما السير جايمس، وبعد لحظات كانا خارج منزله.

سألت توبينس جوليوس قائلة في سعادة وهي تهبط الدرج: "أليس رجلاً رائعًا؟ أوه جوليوس، أليس رجلاً رائعًا؟".

قال جوليوس: "حسنًا، أعتقد أنه رجل رائع، وأنني كنت مخطئًا حيال اعتقادي أنه لا فائدة من الاستعانة به. هل نعود إلى فندق الريتز على الفور؟".

قالت توبينس: "أنا أرغب في المشي قليلاً، أنا أشعر بالكثير من الانفعال. خذني حتى المتنزه، وسأترجل هناك، إلا إذا كنت ترغب في أن تأتي معي".

هز جوليوس رأسه نفيًا.

وقال: "أريد أن أزود السيارة بالوقود وأرسل بضع برقيات".

قالت توبينس: "حسنًا، سأقابلك في فندق الريتز الساعة السابعة. سيكون علينا أن نتناول العشاء في الغرفة. لا يمكنني أن أظهر في مكان عام بمثل هذه الملابس".

قال جوليوس: "سأطلب من فليكس أن يساعدنا في اختيار أصناف الطعام، إنه رئيس الندل. إلى اللقاء".

سارت توبينس وصولاً إلى المنعطف، ثم قامت بالنظر في ساعتها التي كانت تقترب من السادسة. تذكرت أنها لم تتناول الشاي، ولكنها كانت تشعر بانفعال شديد أنساها الشعور بالجوع. سارت توبينس إلى نهاية حدائق كينجستون، ثم عادت من الطريق نفسه وهي تشعر بأنها في حال أفضل بفضل الهواء المنعش والتريض. كان من الصعب عليها أن تتبع نصيحة السير جايمس وأن تخرج أحداث الليلة من رأسها. وبينما كانت تقترب أكثر فأكثر من منعطف حديقة هايد، كان الإغراء بالعودة إلى المنزل في حي ساوث أودلي لا يقاوم.

في النهاية، قررت أن الذهاب وإلقاء نظرة على المبنى من الخارج لن يضرها كثيرًا. وربما ترحم نفسها من عذاب الانتظار حتى العاشرة.

كان حي ساوث أودلي السكني على حاله المعتادة. لم تكن توبينس تعلم ما الذي تتوقع رؤيته، ولكن رؤية المبنى المشيد بالطوب الأحمر هدأت من الشعور المتنامي وغير العقلاني بعدم الراحة الذي كان ينتابها. كانت على وشك الانصراف عندما سمعت صافرة حادة، وعندما استدارت رأت ألبرت يعدو في اتجاهها خارجًا من المبنى.

قطبت توبينس حاجبيها، فهي لم تكن ترغب في جذب الانتباه لوجودها في الحي، ولكن كان وجه ألبرت محمرًا من شدة الانفعال.

وقال: "إنها ستذهب يا آنسة".

قالت توبينس: "من التي ستذهب؟".

قال ألبرت: "المحتالة. ريدي ريتا - السيدة فانديماير. إنها تعد حقائبها وأخبرتني بأن أحضر لها سيارة أجرة".

أمسكت توبينس بذراعه قائلة: "ماذا؟".

قال ألبرت: "إنها الحقيقة أيتها الآنسة، لقد اعتقدت أنك ربما لا تعلمين أي شيء عن الأمر".

صاحت توبينس: "ألبرت. إنك رائع، لولاك لكنا فقدنا أثرها".

احمر وجه ألبرت في سعادة بفضل هذا الإطراء.

قالت توبينس وهي تعبر الطريق: "لا يوجد وقت لنضيعه، يجب أن أمنعها من الهرب. يجب ألا أجعلها تغادر حتى"، ثم توقفت عن الحديث للحظات، ثم قالت: "ألبرت، هل يوجد هاتف قريب؟".

هز الصبي رأسه نفيًا.

وقال: "توجد الهواتف في الشقق فقط، ولكن هناك هاتفًا عموميًا على ناصية الشارع".

قالت توبينس: "اذهب إلى هناك على الفور، واتصل بفندق الريتز، واسأل عن السيد هيرشايمر، وعندما يرد عليك أخبره بأن يحضر السير جايمس وأن يأتي على الفور، حيث إن السيدة فانديماير تحاول الهرب. إذا لم تتمكن من الوصول

إليه، فاتصل بالسير جايمس بيل إدجارتون - ستجد رقمه في دليل الهاتف، وأخبره بما يحدث. إنك لن تنسى الأسماء، أليس كذلك؟".

ردد ألبرت الأسماء ببساطة وقال: "ثقي بي يا آنسة، سأقوم بالمهمة على الوجه الأكمل، ولكن ماذا عنك؟ ألست خائفة من وجودك معها في المنزل؟".

قالت توبينس: "لا، لا بأس. *اذهب وأجر الاتصالات الهاتفية*، أسرع".

سحبت توبينس نفسًا عميقًا ثم دخلت المبنى السكني وصعدت مسرعة إلى الشقة رقم ٢٠. كيف ستعطل السيدة فانديماير حتى وصول الرجلين. إنها لا تعرف، ولكنها يجب أن تفعل ذلك بطريقة ما، ويجب عليها أن تقوم بالمهمة بمفردها. ما السبب في مغادرة السيدة فانديماير المفاجئة؟ هل ارتابت السيدة فانديماير في شأنها؟".

لم توصلها توقعاتها لأي شيء، فضغطت جرس الباب بحدة. لابد أن تكون الطاهية على دراية بالأمر.

لم يفتح أحد الباب، وبعد بضع دقائق، ضغطت توبينس جرس الباب مرة أخرى، واستمرت في الضغط لفترة قصيرة من الوقت. سمعت أخيرًا خطوات في الداخل، وبعد لحظات فتحت السيدة فانديماير الباب بنفسها. رفعت حاجبيها عندما رأت توبينس.

وقالت: "أنت؟".

قالت توبينس: "لقد شعرت بألم في أسناني يا سيدتي، لذا فضلت أن أعود للمنزل وأخلد للنوم".

لم تقل السيدة فانديماير أي شيء، ولكنها تراجعت للخلف وتركت توبينس تدخل الردهة، وهي تقول ببرود: "يا له من حظ تعس! عليك أن تخلدي للنوم على الفور".

قالت توبينس: "سأكون بخير في المطبخ يا سيدتي. ستعد لي الطاهية ــــ"

قالت السيدة فانديماير بطريقة كريهة: "الطاهية ليست هنا. لقد أرسلتها للخارج. لذا، وكما ترين، من الأفضل أن تخلدي للنوم".

شعرت توبينس بالخوف فجأة، فقد كانت هناك نبرة في صوت السيدة فانديماير لم ترتح لها، خاصة أنها بدأت في دفعها ببطء نحو نهاية الممر، ولكن توبينس استدارت للخلف. "أنا لا أرغب في ــــ"

بعد ذلك، وفي لمح البصر، شعرت بحلقة من المعدن البارد تلتصق بجبهتها وارتفع صوت السيدة فانديماير في برود وحدة:

"أيتها الحمقاء، هل اعتقدت أنني لا أعلم؟ لا، لا تجيبي. إذا ما قاومت أو صرخت سأطلق عليك النار مثل الكلاب الضالة".

ضغطت السيدة فانديماير فوهة المسدس بقوة أكبر على صدغ توبينس، وتابعت قائلة: "والآن، سيري، من هنا - داخل الغرفة. في خلال دقيقة، عندما أنتهي منك، ستذهبين للفراش كما أمرتك، وستنامين - أيتها الجاسوسة الصغيرة، ستنامين بعمق".

حملت الكلمات الأخيرة نغمة فظيعة لم تعجب توبينس على الإطلاق. لم تكن توبينس قادرة على فعل أي شيء في تلك اللحظة، فسارت كما أمرتها السيدة فانديماير إلى داخل غرفة النوم، وكان المسدس لا يزال ملتصقًا بجبهتها. كانت الغرفة في حالة فوضى عارمة، فقد كانت الملابس متناثرة ذات اليمين وذات اليسار، وكانت هناك حقيبة ملابس وحقيبة قبعات في منتصف أرضية الغرفة في طور الإعداد.

جمعت توبينس رباطة جأشها بصعوبة، وكان صوتها مرتعشًا قليلاً ولكنها قالت بشجاعة:

"ما الأمر، ما هذا الجنون. لا يمكنك أن تطلقي النار عليّ، لأن جميع من في المبنى سيسمعون الصوت".

قالت السيدة فانديماير بصرامة: "يمكنني أن أخاطر بهذا، ولكن مادمت لن تستغيثي طلبًا للمساعدة، فلا بأس - وأعتقد أنك لن تفعلي. إنك فتاة ماهرة. لقد خدعتني بمهارة، ولم أرتب في أمرك على الإطلاق. لذا أعلم جيدًا أنك تدركين أنني أمتلك زمام الأمور ها هنا. والآن - اجلسي على الفراش. ضعي يديك فوق رأسك، وإذا ما كنت تقدرين حياتك فلا تتحركي".

أطاعتها توبينس، فقد أخبرها منطقها السليم بأنه لا يوجد شيء آخر لتفعله حيال هذا الموقف. إذا ما استغاثت طلبًا للمساعدة، فهناك احتمال ضئيل بأن يسمعها أي شخص، في حين سيكون هناك احتمال أكبر بأن تطلق عليها السيدة فانديماير النار. في الوقت ذاته، كانت كل لحظة تؤخرها فيها ذات قيمة كبيرة.

وضعت السيدة فانديماير المسدس على حافة حوض غسيل بالقرب منها، وظلت تراقب توبينس مثل القط في حال حاولت أن تتحرك، والتقطت زجاجة مغلقة من مكانها على الرف الرخامي وصبت بعضًا من محتوياتها في كوب كانت قد ملأته بالماء.

سألتها توبينس بحدة: "ما هذا؟".

قالت السيدة فانديماير: "شيء ما ليجعلك تنامين بعمق".

شحب وجه توبينس.

وقالت بصوت مبحوح: "هل هذا سم؟".

قالت السيدة فانديماير وهي تبتسم: "ربما".

قالت توبينس بحزم: "لن أشربه إذن. أفضل أن تطلقي عليّ النار، على الأقل سيصدر صوتًا عاليًا، وربما يسمعه شخص ما، ولكني لن أموت في صمت كالحمل".

ضربت السيدة فانديماير الأرض بقدمها.

وقالت: "لا تكوني حمقاء. هل تعتقدين أنني أرغب في الفرار وأترك قتيلاً خلفي؟ إذا ما كنت تفكرين بمنطقية لأدركت أن تسميمك لا يناسبني على الإطلاق. إنه عقار منوم، هذا كل شيء. ستستيقظين صباح الغد دون أن يمسك سوء. إنني لا أرغب في تحمل عناء تقييدك بالحبال وحبسك هنا. هذا هو البديل - ولكنك لن تحبيه. يمكنني أن أكون قاسية للغاية إذا ما اخترت هذا. لذلك، اشربي العقار كالفتاة المهذبة، ولن يمسك أي سوء".

صدقتها توبينس نقية السريرة، فقد كان ما قالته السيدة فانديماير يبدو منطقيًا. لقد كانت هذه الطريقة سريعة وفعالة لإزاحتها عن الطريق في الوقت

شعرت توبينس بالخوف فجأة، فقد كانت هناك نبرة في صوت السيدة فانديماير لم ترتح لها، خاصة أنها بدأت في دفعها ببطء نحو نهاية الممر، ولكن توبينس استدارت للخلف. "أنا لا أرغب في ــــ"

بعد ذلك، وفي لمح البصر، شعرت بحلقة من المعدن البارد تلتصق بجبهتها، وارتفع صوت السيدة فانديماير في برود وحدة:

"أيتها الحمقاء، هل اعتقدت أنني لا أعلم؟ لا، لا تجيبي. إذا ما قاومت أو صرخت سأطلق عليك النار مثل الكلاب الضالة".

ضغطت السيدة فانديماير فوهة المسدس بقوة أكبر على صدغ توبينس، وتابعت قائلة: "والآن، سيري، من هنا - داخل الغرفة. في خلال دقيقة، عندما أنتهي منك، ستذهبين للفراش كما أمرتك، وستنامين - أيتها الجاسوسة الصغيرة، ستنامين بعمق".

حملت الكلمات الأخيرة نغمة فظيعة لم تعجب توبينس على الإطلاق. لم تكن توبينس قادرة على فعل أي شيء في تلك اللحظة، فسارت كما أمرتها السيدة فانديماير إلى داخل غرفة النوم، وكان المسدس لا يزال ملتصقًا بجبهتها. كانت الغرفة في حالة فوضى عارمة، فقد كانت الملابس متناثرة ذات اليمين وذات اليسار، وكانت هناك حقيبة ملابس وحقيبة قبعات في منتصف أرضية الغرفة في طور الإعداد.

جمعت توبينس رباطة جأشها بصعوبة، وكان صوتها مرتعشًا قليلاً ولكنها قالت بشجاعة:

"ما الأمر، ما هذا الجنون. لا يمكنك أن تطلقي النار عليَّ، لأن جميع من في المبنى سيسمعون الصوت".

قالت السيدة فانديماير بصرامة: "يمكنني أن أخاطر بهذا، ولكن مادمت لن تستغيثي طلبًا للمساعدة، فلا بأس - وأعتقد أنك لن تفعلي. إنك فتاة ماهرة. لقد خدعتني بمهارة، ولم أرتب في أمرك على الإطلاق. لذا أعلم جيدًا أنك تدركين أنني أمتلك زمام الأمور ها هنا. والآن - اجلسي على الفراش. ضعي يديك فوق رأسك، وإذا ما كنت تقدرين حياتك فلا تتحركي".

أطاعتها توبينس، فقد أخبرها منطقها السليم بأنه لا يوجد شيء آخر لتفعله حيال هذا الموقف. إذا ما استغاثت طلبًا للمساعدة، فهناك احتمال ضئيل بأن يسمعها أي شخص، في حين سيكون هناك احتمال أكبر بأن تطلق عليها السيدة فانديماير النار. في الوقت ذاته، كانت كل لحظة تؤخرها فيها ذات قيمة كبيرة.

وضعت السيدة فانديماير المسدس على حافة حوض غسيل بالقرب منها، وظلت تراقب توبينس مثل القط في حال حاولت أن تتحرك، والتقطت زجاجة مغلقة من مكانها على الرف الرخامي وصبت بعضًا من محتوياتها في كوب كانت قد ملأته بالماء.

سألتها توبينس بحدة: "ما هذا؟".

قالت السيدة فانديماير: "شيء ما ليجعلك تنامين بعمق".

شحب وجه توبينس.

وقالت بصوت مبحوح: "هل هذا سم؟".

قالت السيدة فانديماير وهي تبتسم: "ربما".

قالت توبينس بحزم: "لن أشربه إذن، أفضل أن تطلقي عليَّ النار، على الأقل سيصدر صوتًا عاليًا، وربما يسمعه شخص ما، ولكني لن أموت في صمت كالحمل".

ضربت السيدة فانديماير الأرض بقدمها.

وقالت: "لا تكوني حمقاء. هل تعتقدين أنني أرغب في الفرار وأترك قتيلاً خلفي؟ إذا ما كنت تفكرين بمنطقية لأدركت أن تسميمك لا يناسبني على الإطلاق. إنه عقار منوم، هذا كل شيء. ستستيقظين صباح الغد دون أن يمسك سوء. إنني لا أرغب في تحمل عناء تقييدك بالحبال وحبسك هنا. هذا هو البديل - ولكنك لن تحبيه. يمكنني أن أكون قاسية للغاية إذا ما اخترت هذا. لذلك، اشربي العقار كالفتاة المهذبة، ولن يمسك أي سوء".

صدقتها توبينس نقية السريرة، فقد كان ما قالته السيدة فانديماير يبدو منطقيًا. لقد كانت هذه الطريقة سريعة وفعالة لإزاحتها عن الطريق في الوقت

الحالي. ولكن توبينس لم تكن تحبذ فكرة أن تنام بهدوء بدون أن تناضل من أجل حريتها. كانت تشعر بأنه بمجرد أن تفر السيدة فانديماير، فإن الأمل الأخير بالعثور على تومي سيضيع.

كانت توبينس سريعة البديهة، فقد مرت بخاطرها جميع هذه الأفكار في لمح البصر، ورأت أن هناك فرصة، ولكنها فرصة معقدة، وقررت أن تخاطر بكل شيء في محاولة أخيرة.

بناءً على ذلك، قفزت من الفراش وسقطت على الأرض عند قدمي السيدة فانديماير وهي تمسك بتنورتها بشدة وتقول:

"لا أصدق، إنه سم - كنت أعلم أنه سم. لا تجعليني أشربه" - تعالى صوتها بما يشبه الصراخ وهي تقول: "لا تجعليني أشربه".

نظرت لها السيدة فانديماير وهي تزم شفتيها متعجبة من هذا الانهيار المفاجئ.

وقالت: "انهضي أيتها الحمقاء، لا تتصرفي بصبيانية. كيف واتتك الجرأة على أن تخدعيني بتلك الطريقة"، ثم ضربت الأرض بقدمها وقالت: "قلت لك انهضي".

ولكن توبينس واصلت التعلق بتنورة السيدة فانديماير وهي تبكي، وتخلل بكاءها توسلات غير مفهومة بالرحمة. كانت كل دقيقة تعطلها فيها لمصلحتها، علاوة على ذلك، كانت توبينس تتحرك نحو هدفها بدون أن تدرك الأخرى ذلك.

صاحت السيدة فانديماير بنفاد صبر وجعلت توبينس تنهض لتجلس على ركبتيها.

وقالت: "اشربيه في الحال"، ووضعت الكوب على شفتي توبينس.

أطلقت توبينس تأوهًا أخيرًا يدل على اليأس.

وقالت: "هل تقسمين بأنه لن يضرني؟".

قالت السيدة فانديماير: "بالطبع لن يضرك، لا تكوني حمقاء".

قالت توبينس: "هل تقسمين على هذا؟".

قالت السيدة فانديماير بنفاد صبر: "نعم، نعم. أقسم على هذا".

رفعت توبينس يدها اليسرى المرتعشة وأمسكت بالكوب.

وقالت: "حسنًا"، وفتحت فمها في تخاذل.

أطلقت السيدة فانديماير تنهيدة تدل على الراحة، وتخلت عن حذرها لثانية. ثم في لمح البصر، ألقت توبينس الكوب إلى الأمام بكل ما أوتيت من قوة، وانتشر السائل الذي كان في الكوب على وجه السيدة فانديماير، وبينما كانت تشهق من المفاجأة، مدت توبينس يدها اليمنى وأمسكت بالمسدس الذي كان على حافة حوض الغسيل. بعد ذلك قفزت للخلف وصوبت المسدس نحو قلب السيدة فانديماير بثبات تام.

بعد انتصارها، أطلقت توبينس صيحة انتصار.

وقالت: "من في موضع القوة الآن؟".

تشنج وجه السيدة فانديماير من شدة الغضب. تصورت توبينس للحظة أنها ستقفز عليها، الأمر الذي وضعها في حيرة شديدة، حيث إنها كانت تخشى من أن تطلق النار عليها. ولكن، تمالكت السيدة فانديماير نفسها بصعوبة، وعادت الابتسامة الشريرة ببطء لتكسو وجهها.

وقالت: "إنك لست حمقاء إذن. لقد كنت ماهرة، ولكن سيكون عليك أن تدفعي الثمن - نعم، يجب أن تدفعي الثمن. إنني لا أنسى بسهولة".

قالت توبينس: "لقد فوجئت عندما تمكنت من خداعك بهذه السهولة. هل اعتقدت حقًا أنني من نوع الفتيات اللواتي يتمرغن على الأرض طلبًا للرحمة؟".

قالت السيدة فانديماير بقسوة: "قد تفعلين ذلك في يوم ما".

أرسلت الطريقة الحقودة التي قالت بها السيدة فانديماير هذه الكلمات قشعريرة باردة في جسد توبينس، ولكنها لم تكن بصدد الاستسلام لها.

وقالت بود: "ماذا لو جلسنا قليلاً. إننا نهول من الأمور قليلاً ها هنا. لا - ليس على الفراش. اجذبي أحد المقاعد بالقرب من الطاولة، نعم، هكذا. والآن، سأجلس أمامك والمسدس أمامي - تحسبًا لقيامك بأي شيء. رائع، والآن لنتحدث".

قالت السيدة فانديماير: "عن ماذا؟".

نظرت لها توبينس لدقيقة، وكانت تتذكر بعض الأمور. كلمات بوريس "أعتقد أنك ستبيعيننا"، وردها عليه: "يجب أن يكون السعر عاليًا"، الذي قالته بدون اكتراث، ولكنه كان صحيحًا، وربما لا يكون له أي أساس من الصحة. ألم يقل لها ويتنجتون منذ زمن: "من الذي كان يثرثر عن الأمر؟ ريتا؟". هل يمكن أن تكون ريتا فانديماير البقعة الضعيفة في درع السيد براون؟

كانت توبينس تحدق في وجه السيدة فانديماير بثبات وهي تقول:

"عن المال ـــــ"

جفلت السيدة فانديماير، فلم تكن تتوقع هذا الرد، وقالت:

"ماذا تعنين؟".

قالت توبينس: "سأخبرك. لقد قلت منذ قليل إنك لا تنسين بسهولة. إن الذاكرة القوية لا تفيد مثل الجيب المتخم بالمال. يمكنني أن أقول إن ما سيريح مشاعرك هو التخطيط لجميع تلك الأمور الشريرة التي ترغبين في فعلها بي، ولكن السؤال هو، هل هذا عملي؟ إن الانتقام غير مرضٍ بالمرة. الجميع يقولون هذا، ولكن المال ـــــ"، صمتت توبينس لتثير خيال أسيرتها وقالت: "هل يوجد أي شيء غير مرضٍ بالمال؟".

قالت السيدة فانديماير: "هل تعتقدين أنني من نوعية النساء اللواتي قد يبعن أصدقاءهن؟".

قالت توبينس بدون تردد: "نعم، إذا ما كان السعر ملائمًا".

قالت السيدة فانديماير: "بضع مئات من الجنيهات".

قالت توبينس: "لا، أقترح أن يكون المبلغ مائة ألف جنيه".

لم تسمح لها طبيعتها المقتصدة بأن تذكر المليون دولار التي اقترحها جوليوس بأكملها.

احمر وجه السيدة فانديماير.

فقالت توبينس وهي تداعب بعصبية الحلية على صدرها: "ما رأيك؟"، في تلك اللحظة أدركت أن ريتا ابتلعت الطعم، وللحظة الأولى شعرت بالهلع من روحها المحبة للمال، مما أورثها شعورًا بالشفقة على المرأة التي تجلس أمامها.

قالت توبينس مرة أخرى: "مائة ألف جنيه".

اختفى لمعان عيني السيدة فانديماير وأسندت ظهرها إلى المقعد.

وقالت: "هراء، إنك لا تملكين مثل هذا المبلغ".

أقرت توبينس قائلة: "لا، أنا لا أملكه، ولكني أعرف من يملكه".

قالت ريتا: "من هو؟".

قالت توبينس: "أحد أصدقائي".

قالت السيدة فانديماير غير مصدقة: "لابد أن يكون مليونيرًا".

قالت توبينس: "في حقيقة الأمر، هو كذلك. إنه أمريكي، وسوف يدفع لك المال دون نقاش. يمكنك أن تثقي في عرضي تمام الثقة".

اعتدلت السيدة فانديماير في جلستها مرة أخرى.

وقالت ببطء: "أنا أرغب في تصديقك".

خيم الصمت عليهما لبعض الوقت، ثم نظرت السيدة فانديماير لأعلى وقالت:

"ماذا يريد صديقك أن يعرف؟".

كان هناك صراع داخلي يدور في عقل توبينس، ولكن كان المال يخص جوليوس، ويجب أن تأتي اهتماماته أولاً.

فقالت: "إنه يرغب في أن يعلم مكان جاين فين".

لم تبدُ السيدة فانديماير مندهشة.

وقالت: "أنا لا أعلم أين هي في الوقت الحالي".

قالت توبينس: "ولكن يمكنك أن تكتشفي هذا، أليس كذلك؟".

قالت السيدة فانديماير بدون اكتراث: "نعم، لن تواجهني مشكلة في هذا".

ارتعش صوت توبينس قليلاً وهي تقول: "حسنًا إذن. هناك رجل، صديقي أعتقد أن هناك خطبًا ما قد حدث له عن طريق صديقك بوريس".

قالت السيدة فانديماير: "ما اسمه؟".

قالت توبينس: "تومي بيريسفورد".

قالت السيدة فانديماير: "لم أسمع باسمه من قبل. ولكني سأسأل بوريس سيخبرني بكل ما يعرفه عنه".

شعرت توبينس بمعنوياتها ترتفع فقالت: "شكرًا لك"، وأجبرت نفسها على قول شيء آخر: "هناك أمر آخر".

قالت السيدة فانديماير: "ما هو؟".

انحنت توبينس للأمام وخفضت صوتها وهي تقول:

"*من هو السيد براون؟*".

لاحظت عيناها الماهرتان الشحوب الذي زحف على وجه السيدة فانديماير الجميل، التي جمعت شتات نفسها بصعوبة وحاولت أن تستعيد هدوءها ولكنها فشلت.

فهزت كتفيها

وقالت: "إنك لا تعرفين عنا الكثير، وإلا لكنت أدركت *أن لا أحد منا يعرف من هو السيد براون*..."

قالت توبينس بهدوء: "ولكنك تعرفين".

مرة أخرى شحب وجه المرأة.

وقالت: "ما الذي يجعلك تعتقدين هذا؟".

قالت توبينس بصدق: "لا أعلم، ولكنني واثقة من هذا".

زاغ بصر السيدة فانديماير لفترة طويلة.

وقالت أخيرًا: "نعم، أعرفه. لقد كنت جميلة، كما ترين، جميلة للغاية ــــ"

قالت توبينس بإعجاب: "وما زلت كذلك".

هزت السيدة فانديماير رأسها، وغامت عيناها الزرقاوان بشكل غريب.

وقالت: "لست جميلة بالدرجة الكافية، وفي بعض الأحيان، مؤخرًا، بدأت أشعر بالخوف... من الخطير أن تعرفي الكثير"، ثم مالت نحو توبينس عبر الطاولة وقالت: "أقسمي ألا تذكري اسمي فيما يتعلق بهذا الأمر - وأن لا أحد سيعلم بالأمر".

قالت توبينس: "أقسم على هذا، وبمجرد أن يتم القبض عليه سيزول عنك الخطر".

ظهرت أمارات الهلع على وجه السيدة فانديماير.

وقالت: "حقًا؟ حقًا؟"، ثم أمسكت بذراع توبينس وقالت: "هل أنت واثقة بأني سأحصل على المال؟".

قالت توبينس: "تمام الثقة".

قالت السيدة فانديماير: "متى سأحصل عليه؟ يجب أن أحصل عليه على الفور".

قالت توبينس: "سيأتي صديقي إلى هنا في أي وقت، عليه أولاً أن يرسل بعض التلغرافات، ولكن لن يكون هناك أي تأخير - إنه رجل لا يحب إضاعة الوقت".

ظهرت نظرة حاسمة على وجه السيدة فانديماير:

"سأخبرك بكل شيء. سأحصل على مبلغ كبير من المال، بالإضافة إلى ــــ"، وابتسمت ابتسامة غريبة وقالت: "ليس من الحكمة أن يهجر أي شخص مهما كان امرأة مثلي".

ظلت تبتسم لدقيقة أو دقيقتين وهي تطرق بأصابعها سطح الطاولة بهدوء، وفجأة قفزت من مكانها وشحب وجهها.

وقالت: "ما كان هذا؟".

قالت توبينس: "أنا لم أسمع شيئًا".

نظرت السيدة فانديماير حولها في حذر.

وقالت: "إذا كان هناك من يسمع ما نقول..."

قالت توبينس: "هراء، من سيكون هناك؟".

همست السيدة فانديماير قائلة: "حتى الحوائط لها آذان. أنا خائفة، إنك لا تعرفينه".

قالت توبينس مهدئة لها: "فكري في المائة ألف جنيه".

لعقت السيدة فانديماير شفتيها الجافتين بلسانها.

وقالت: "إنكِ لا تعرفينه، إنه ــــ"

قفزت فجأة من مكانها في رعب، وكانت تشير إلى شيء ما خلف توبينس، ثم فقدت الوعي وسقطت على الأرض.

نظرت توبينس للخلف لترى ما الذي جعلها تشعر بكل هذا الرعب.

كان يقف على عتبة الباب كل من السير جايمس بيل إدجارتون وجوليوس هيرشايمر.

الثالث عشر

الحراسة

كان السير جايمس هو أول من تحرك، فقد اندفع من جانب جوليوس وانحنى بسرعة على المرأة فاقدة الوعي.

وقال بحدة: "إن قلبها لم يتحمل. لابد من أن رؤيتنا فجأة قد أصابتها بصدمة. أحضر بعض الشراب بسرعة، وإلا سنفقدها".

أسرع جوليوس نحو حوض الغسيل.

فقالت توبينس: "ليس هنا. إنه في الصندوق الذي في غرفة الطعام، الباب الثاني في الممر".

حمل السير جايمس وتوبينس السيدة فانديماير ووضعاها على الفراش، حيث قاما برش الماء على وجهها، ولكن بدون أية استجابة منها. جس المحامي نبضها وقال: "إنها بين الحياة والموت. أرجو أن يسرع هذا الشاب بإحضار الشراب".

في اللحظة ذاتها عاد جوليوس إلى الغرفة وهو يحمل كأسًا مملوءة حتى منتصف بالشراب وأعطى السير جايمس إياها، فرفعت توبينس رأس السيدة فانديماير وحاول المحامي أن يضع القليل من الشراب بين شفتيها المغلقتين.

فتحت السيدة فانديماير عينيها في النهاية بوهن، فرفعت توبينس كأس الشراب نحو فمها.

وقالت: "اشربي هذا".

أطاعتها السيدة فانديماير، وسرعان ما جعل الشراب الاحمرار يعود إلى وجهها الشاحب، وأعاد وعيها بشكل رائع. حاولت أن تجلس ولكنها سقطت للخلف وهي تتأوه، وسقطت يداها بجانبها.

همست السيدة فانديماير قائلة: "إنه قلبي الضعيف. لا يجب أن أتحدث".

ثم استلقت على فراشها مغلقة العينين.

ظل السير جايمس واضعًا إصبعه على معصمها لدقيقة أخرى، ثم غادر الغرفة وهو يومئ برأسه.

وقال: "ستكون بخير".

ابتعد ثلاثتهم عن الغرفة وبدأوا في الحديث بصوت منخفض. كانوا جميعًا يشعرون بخيبة الأمل، فقد كان من الواضح أن أية محاولة لطرح أسئلة على السيدة فانديماير ستبوء بالفشل في الوقت الحالي، كانوا مرتبكين عندئذ وغير قادرين على القيام بأي شيء.

قصت عليهم توبينس كيف أن السيدة فانديماير كانت على استعداد لأن تبوح بشخصية السيد براون الغامضة. وأنها وافقت على أن تكتشف مكان جاين فين وأن تخبرهم به، فهنأها جوليوس قائلاً:

"هذا رائع يا آنسة توبينس. أعتقد أن المائة ألف جنيه ستكون رائعة بالنسبة للسيدة صباح الغد مثلما كانت صباح اليوم. لا يوجد ما نقلق بشأنه. إنها لم تكن ستتحدث بدون الحصول على المال على أية حال".

كان ما قاله جوليوس منطقيًا، وشعرت توبينس بقليل من الراحة.

قال السير جايمس وهو يفكر بعمق: "عليَّ أن أعترف بأن ما تقوله صحيح، إلا أنني كنت آمل لو لم نقاطعها، ولكن لا يمكننا فعل أي شيء الآن سوى الانتظار حتى الصباح".

رفع بصره وألقى نظرة على الجسد الهامد الممدد على الفراش. كانت السيدة فانديماير مستلقية على الفراش مغمضة العينين، فهز رأسه في أسف.

قالت توبينس محاولة أن تبعث البهجة في المكان: "حسنًا، يجب أن ننتظر على الصباح، ولكني أرى أننا يجب ألا أن نغادر الشقة".

قال السير جايمس: "ما رأيك لو تركنا ذلك الصبي اللامع صديقكِ ليحرس المكان؟".

قالت توبينس: "ألبرت؟ وماذا لو أفاقت وحاولت الهرب. لن يمكن لـ ألبرت إيقافها".

قال السير جايمس: "أعتقد أنها لن تحاول الهرب بدون الحصول على المال".

قالت توبينس: "قد تفعل. لقد كانت مرتعبة من السيد براون".

قال السير جايمس: "ماذا؟ هل كانت خائفة منه لهذه الدرجة؟".

قالت توبينس: "نعم، لقد كانت تنظر حولها وتقول إن الحوائط لها آذان".

قال جوليوس باهتمام: "ربما كانت تقصد وجود دكتافون".

قال السير جايمس بهدوء: "إن الآنسة توبينس محقة. لا يجب أن نغادر الشقة - لصالح السيدة فانديماير".

حدق به جوليوس.

وقال: "هل تعتقد أنه قد يأتي لقتلها؟ كيف من الممكن أن يعرف خلال الليل؟".

قال السير جايمس بجفاء: "هل نسيت اقتراحك بوجود دكتافون؟ إن خصمنا ماهر للغاية. أعتقد أننا إن تصرفنا بحذق، فإن هناك فرصة كبيرة لأن نقبض عليه. ولكن علينا ألا نهمل اتخاذ الإجراءات الاحترازية. بين أيدينا الآن شاهدة مهمة، ولكن يجب أن نحرسها جيدًا. أقترح أن تذهب الآنسة توبينس للفراش، وأن نتشارك أنا وأنت يا سيد هيرشايمر نوبات الحراسة".

كانت توبينس على وشك الاعتراض، ولكنها تراجعت عندما نظرت إلى

الفراش الذي ترقد عليه السيدة فانديماير، حيث كانت الأخيرة ترقد وعيناها نصف مفتوحتين ويعلو وجهها الرعب الشديد لدرجة أن الكلمات تجمدت على شفتيها ولم تتمكن من الحديث.

تساءلت للحظة عما إذا كان فقدان الوعي والأزمة القلبية مصطنعة، ولكن شحوب وجه السيدة فانديماير الشديد لم يدعم هذه الفرضية. وبينما كانت تنظر لها، اختفى تعبير الرعب عن وجهها فجأة وعادت السيدة فانديماير لرقودها دون حراك كما كانت من قبل. للحظة، اعتقدت توبينس أنها كانت تتخيل الأمر، ولكنها عزمت أمرها على أن تظل منتبهة لما يحدث.

قال جوليوس: "حسنًا، أعتقد أن علينا الانتقال من هنا بأية طريقة".

فوجئ الآخرون باقتراحه هذا. جس السير جايمس نبض السيدة فانديماير مرة أخرى.

وقال لـ توبينس بصوت منخفض: "أمر مُرض للغاية. ستكون بخير تمامًا بعدما ترتاح هذه الليلة".

ترددت توبينس قليلاً بجانب الفراش، فقد كان التعبير الظاهر على وجه السيدة فانديماير قد أدهشها للغاية. فتحت السيدة فانديماير عينيها وبدا أنها تحاول بصعوبة أن تتحدث، فانحنت توبينس فوقها.

قالت السيدة فانديماير: "لا تتركيني ـــــ"، وبدا أنها غير قادرة على مواصلة الحديث وغمغمت بشيء ما بدا كأنه كلمة "تنامي". ثم حاولت الحديث مرة أخرى.

فانحنت عليها توبينس أكثر، لأقصى درجة ممكنة.

قالت السيدة فانديماير: "السيد - براون -"، ثم توقفت عن الحديث.

ولكن بدا أن عينيها شبه المغلقتين تحاولان لفت انتباهها إلى أمرٍ ما.

كان هناك حافز داخلي مفاجئ دفع توبينس لتقول بسرعة:

"أنا لن أغادر الشقة، وسأظل مستيقظة طوال الليل".

ظهرت أمارات الراحة على وجه السيدة فانديماير قبل أن تعود لتغلق عينيها

مرة أخرى، وبدا أنها قد استسلمت للنوم، ولكن كلماتها أيقظت إحساسًا جديدًا بعدم الراحة في صدر توبينس. ما الذي كانت تقصده بغمغمتها الهامسة التي قالت فيها: السيد براون؟ وجدت توبينس نفسها تنظر خلفها إلى حيث كان يقف دولاب الملابس بشكل كئيب. هناك مكان كاف داخله ليختبئ شخص ما... نهضت توبينس، وهي نصف خجلة من نفسها، وفتحت الدولاب ونظرت داخله، وبالطبع لم يكن هناك أحد بداخله، ثم انحنت لتنظر تحت الفراش ولم يكن هناك أحد، ولم يكن بالغرفة مكان آخر يصلح للاختباء.

هزت توبينس كتفيها بطريقتها المعتادة. لقد كان الأمر غير منطقي، لقد سمحت لنفسها بأن تتصرف بهستيرية. خرجت توبينس ببطء من الغرفة حيث كان جوليوس والسير جايمس يتحدثان بصوت خافت. التفت لها السير جايمس وقال: "أغلقي الباب بالمفتاح من الخارج من فضلك يا آنسة توبينس. يجب ألا نمنح الفرصة لأي شخص لكي يدخل هذه الغرفة".

بهرت جاذبية سلوك السير جايمس كلاً من توبينس وجوليوس، وخفت شعور توبينس بالخجل من تصرفها "الهستيري".

قال جوليوس بشكل مفاجئ: "هناك الصبي الذكي صديق توبينس. أعتقد أنه من الأفضل أن أهبط للأسفل وأهدئ عقله الصغير. إنه صبي رائع يا توبينس".

قالت توبينس فجأة: "بالمناسبة، كيف تمكنتما من الدخول؟ لقد نسيت أن أسألكما".

قال جوليوس: "لقد اتصل بي ألبرت هاتفيًا، فأسرعت متوجهًا لمنزل السير جايمس، وحضرنا على الفور. كان الصبي بانتظارنا، وكان قلقًا بشأن ما قد حل بك. كان يسترق السمع على باب الشقة ولكنه لم يتمكن من سماع أي شيء. على أية حال، اقترح علينا أن نصعد في مصعد الفحم بدلاً من أن نقرع جرس الباب. خرجنا من المصعد داخل غرفة غسيل الأطباق وبدأنا في البحث عنك. إن ألبرت لا يزال في الأسفل وأعتقد أنه سيجن في الوقت الحالي"، ثم غادر جوليوس الشقة من فوره.

قال السير جايمس: "والآن يا آنسة توبينس، إنك تعرفين هذه الشقة أفضل

مما أعرفها أنا. أين تعتقدين أنه ينبغي لنا أن ننشئ مكان مراقبتنا؟".

فكرت توبينس للحظات.

وقالت أخيرًا وهي ترشد السير جايمس للطريق: "أعتقد أن غرفة نوم السيدة فانديماير ستكون الأكثر راحة".

نظر السير جايمس حوله موافقًا.

وقال: "ستكون رائعة، والآن يا عزيزتي، اذهبي للفراش واحظي ببعض النوم".

هزت توبينس رأسها رافضة.

وقالت: "لا يمكنني هذا، أشكرك يا سير جايمس. ستنتابني كوابيس عن السيد براون طوال الليل".

قال السير جايمس: "ولكنك سترهقين يا صغيرتي".

قالت توبينس: "لا، لن يحدث هذا. أفضل أن أظل مستيقظة".

استسلم المحامي لرغباتها.

عاد جوليوس بعد بضع دقائق بعد أن طمأن ألبرت وكافأه بسخاء على خدماته وبعد أن فشل في إقناع توبينس بالخلود للنوم.

قال: "على أية حال، يجب أن تتناولي بعض الطعام على الفور. أين تحتفظون بالطعام هنا؟".

وجهته توبينس إلى المكان، فعاد بعد بضع دقائق وهو يحمل كعكة باردة وثلاثة أطباق.

بعد أن تناولوا وجبة دسمة، شعرت توبينس برغبتها في السخرية من التخيلات التي انتابتها قبل نصف ساعة. إن قوة الرشوة بالمال لا يمكنها أن تفشل.

قال السير جايمس: "والآن يا آنسة توبينس، نرغب في سماع مغامرتك".

وافقه جوليوس قائلاً: "نعم، أخبرينا".

قصت توبينس مغامرتها ببعض الرضا عن نفسها، وكان جوليوس يقاطعها

أحيانًا مطلقًا صيحات إعجاب مثل "شجاعة"، في حين لم ينبس السير جايمس ببنت شفة حتى انتهت فقال: "أحسنت صنعًا يا آنسة توبينس" - الأمر الذي جعل وجهها يحمر من فرط السعادة.

قال جوليوس: "هناك أمر واحد لا أفهمه بوضوح. ما الذي جعلها تحاول الهرب؟".

أقرت توبينس قائلة: "لا أعلم".

داعب السير جايمس ذقنه وهو يفكر بعمق.

وقال: "لقد كانت الغرفة في حالة فوضى عارمة، الأمر الذي يشير إلى أن هروبها لم يكن معدًا له من قبل. يبدو أنها قد حصلت على تحذير مفاجئ من شخص ما".

قال جوليوس: "ربما من السيد براون".

نظر له المحامي مطولاً لبضع دقائق.

قال: "ولم لا؟ تذكر أنك نفسك وقعت ضحية لخداعه من قبل".

احمر وجه جوليوس في غضب.

وقال: "أشعر بأني سأجن عندما أتذكر كيف سلمته صورة جاين بكل سهولة. يا إلهي، إذا ما تمكنت من الحصول عليها مرة أخرى، فسأتمسك بها كما لو كانت حياتي تتوقف عليها".

قال السير جايمس باقتضاب: "هذا احتمال بعيد الحدوث".

قال جوليوس: "أعتقد أنك محق. على أية حال، أنا أرغب في إيجاد صاحبة الصورة. أين تعتقد أنها قد تكون يا سير جايمس؟".

هز المحامي رأسه.

وقال: "من المستحيل أن أخمن، ولكني أمتلك فكرة جيدة عن المكان الذي ذهبت إليه".

قال جوليوس: "حقًا؟ أين؟".

ابتسم السير جايمس.

وقال: "في مسرح مغامرتك الليلية. في تلك العيادة في بورتسموث".

قال جوليوس: "هناك؟ مستحيل. لقد سألت عنها هناك".

قال السير جايمس: "لا يا سيدي، لقد سألت عما إذا كانت امرأة تُدعى جاين فين قد ذهبت إلى هناك، ولكن، إذا ما كانت الفتاة قد وضعت هناك، فمن المحتمل جدًا أن تكون متواجدة هناك تحت اسم مستعار".

صاح جوليوس: "يا لك من ذكي، أنا لم أفكر في هذا أبدًا".

قال السير جايمس: "إنه أمر واضح وضوح الشمس".

قالت توبينس: "وربما كان الطبيب شريكًا في الأمر هو أيضًا".

هز جوليوس رأسه.

وقال: "لا أعتقد هذا. لقد اعتقدت هذا من قبل، ولكن أؤكد لك أن الطبيب هول رجل شريف".

سأله السير جايمس: "هل قلت هول؟ أمر غريب - غريب حقًا".

سألته توبينس: "لماذا؟".

قال السير جايمس: "لأنني قابلته هذا الصباح. أنا أعرفه منذ عدة سنوات ولكني قابلته مصادفة صباح اليوم في الشارع، وأخبرني بأنه يقيم في فندق متروبول"، ثم التفت إلى جوليوس قائلاً: "ألم يخبرك بأنه سيأتي للمدينة؟"

هز جوليوس رأسه نفيًا.

تعجب السير جايمس قائلاً: "أمر غريب. إنك لم تذكر اسمه عصر اليوم وإلا لكنت اقترحت عليك أن تذهب له حاملاً بطاقة تعريفي لتسأله عن المزيد من المعلومات".

قال جوليوس بتواضع غير معتاد: "أعتقد أنني أحمق. كان يجب أن أفكر في موضوع الاسم المستعار".

صاحت توبينس قائلة: "كيف يمكن أن تفكر في أي شيء بعدما سقطت من

على الشجرة. أنا واثقة من أن أي شخص آخر ربما كان سيموت على الفور".

قال جوليوس: "أعتقد أن هذا الأمر لا يهم في الوقت الحالي، إن معنا السيدة فاندماير الآن، والمهم الآن هو حمايتها".

قالت توبينس، ولكن دون الكثير من الثقة في صوتها: "نعم".

خيم الصمت عليهم، وبدأ سحر الليل يتملكهم بالتدريج. كان هناك صوت صرير مفاجئ في الأثاث، وصوت حفيف في الستائر. وفجأة استيقظت توبينس صارخة وقالت: "لم أتمكن من منع نفسي، أنا أعلم أن السيد براون في مكان ما في الشقة، يمكنني أن أشعر به".

قال جوليوس: "كيف يمكن أن يدخل يا توبينس؟ إن باب الشقة يفتح على الردهة. لا يمكن لأحد أن يدخل من باب الشقة بدون أن نراه أو نسمعه".

قالت توبينس: "الأمر ليس بيدي. أنا أشعر بأنه هنا".

نظرت إلى السير جايمس الذي قال:

"على الرغم من مشاعرك يا آنسة توبينس (ومشاعري أيضًا فيما يتعلق بهذا الأمر)، لا يمكنني أن أستوعب كيف يمكن لأي شخص كان أن يدخل الشقة بدون أن نعلم".

هدأت الفتاة قليلا بفعل كلماته.

اعترفت قائلة: "إن الاستيقاظ في الليل عادة ما يورث القلق".

قال السير جايمس: "نعم، إننا كمن يقومون بجلسة لتحضير الأرواح. ربما لو كنا نمتلك الأدوات اللازمة لذلك، لكنا قد حصلنا على نتائج مبهرة".

سألته توبينس وقد جحظت عيناها: "هل تؤمن بالأرواح؟".

هز المحامي كتفيه.

وقال: "لا يوجد دخان بدون نار بكل تأكيد، ولكن أغلب من شهدوا برؤيتها كاذبون".

مرت الساعات، ومع بزوغ الفجر، أزاح السير جايمس الستائر. قاموا جميعًا

ليشهدوا ما تشهده قلة قليلة من سكان لندن - شروق الشمس على المدينة النائمة. بشكل ما، مع سطوع الشمس، بدت جميع تخيلات ومخاوف الليلة السابقة مستحيلة، وعادت الروح المعنوية لـ توبينس إلى طبيعتها.

قالت توبينس: "مرحى، يبدو أنه سيكون يومًا رائعًا، وعلينا أن نعثر على تومي، وجاين فين، وكل شيء سيكون رائعًا. سأطلب من السيد كارتر الحصول على لقب سيدة".

في تمام السابعة، تطوعت توبينس لتذهب لتعد بعض الشاي، وعادت وهي تحمل صينية عليها إبريق شاي وأربعة أقداح.

سألها جوليوس: "لمن القدح الرابع؟".

قالت توبينس: "لأسيرتنا. أعتقد أنه يجب علينا أن نوقظها، أليس كذلك؟".

قال جوليوس وهو يفكر: "إن تناول الشاي الخاص بها يعتبر نهاية مؤسفة لما حدث بالأمس".

اعترفت توبينس قائلة: "نعم، إنه كذلك، ولكن على أية حال، هيا بنا، تعاليا معي تحسبًا لأن تقفز عليَّ، أو شيء من هذا القبيل. كما تعلمان، إننا لا نعرف كيف سيكون مزاجها عندما تستيقظ".

رافقها كل من السير جايمس وجوليوس إلى الباب

قالت توبينس: "أين المفتاح. نعم، إنه معي".

وضعت المفتاح في المزلاج وأدارته ثم توقفت.

وقالت هامسة: "ماذا لو كانت قد هربت؟".

قال جوليوس مطمئنًا: "مستحيل".

ولكن السير جايمس لم يقل أي شيء.

سحبت توبينس نفسًا عميقًا وفتحت الباب، وتنفست الصعداء عندما رأت السيدة فانديماير راقدة في مكانها على الفراش.

قالت توبينس في بهجة: "صباح الخير، لقد أحضرت لكِ بعض الشاي".

لم ترد عليها السيدة فانديماير، فوضعت توبينس القدح على الطاولة

واتجهت نحو النافذة لتزيح الستائر. عندما استدارت، كانت السيدة فانديماير راقدة في مكانها دون حراك. بخوف شديد، أسرعت توبينس نحو الفراش، وكانت يد السيدة فانديماير التي أمسكتها باردة كالثلج... السيدة فانديماير لن تتمكن من الحديث بعد الآن ...

جعلت صرختها الرجلين يعدوان نحو الغرفة، وكانت دقائق قليلة كافية ليدركا الأمر، لقد ماتت السيدة فانديماير - ويبدو أنها ماتت منذ بضع ساعات في أثناء نومها.

صاح جوليوس بيأس: "يا له من حظ تعس".

قالت توبينس: "هل تعتقد هذا؟ - ولكن من المستحيل أن يدخل أحد الغرفة".

أقر المحامي قائلاً: "لا، لا أرى كيف تمكن من هذا، ولكنها كانت بصدد خيانة السيد براون، والآن قد ماتت. هل هذه مصادفة؟".

قالت توبينس: "ولكن كيف؟".

قال السير جايمس: "نعم، كيف؟ هذا ما يجب أن نكتشفه"، ثم وقف مكانه صامتًا، وهو يداعب ذقنه ثم قال: "يجب أن نكتشف هذا"، شعرت توبينس بأنها لو كانت السيد براون، لم تكن ستعجبها النبرة التي قال بها السير جايمس هذه الكلمات.

نظر جوليوس إلى النافذة وقال: "إن النافذة مفتوحة. هل تعتقدان أن ـــــ"

هزت توبينس رأسها نفيًا وقالت: "إن الشرفة تصل حتى غرفة المخدع، ونحن كنا هناك".

قال جوليوس: "ربما تسلل خارجًا منها ـــــ"

ولكن السير جايمس قاطعه.

قائلاً: "إن أساليب السيد براون ليست تقليدية. والآن علينا أن نرسل في طلب الطبيب، ولكن قبل أن نفعل ذلك، هل هناك أي شيء في هذه الغرفة ربما يفيدنا؟".

بحث ثلاثتهم بسرعة في أرجاء الغرفة. دلت بقايا الأوراق المحترقة في المدفأة على أن السيدة فانديماير كانت تحرق الأوراق قبل فرارها. لم يكن هناك شيء مهم، ولكنهم قاموا بالبحث في الغرف الأخرى أيضًا.

قالت توبينس فجأة وهي تشير إلى خزانة صغيرة عتيقة الطراز مثبتة في الحائط: "انظرا، أعتقد أنها تخص مجوهراتها، ولكن ربما نجد فيها شيئًا ذا قيمة".

وضع جوليوس مفتاح الخزانة في قفلها وفتح بابها، وبحث داخلها، وظل يبحث لبضع دقائق.

قالت توبينس في نفاد صبر: "ما الأمر؟".

خيم الصمت قليلاً قبل أن يجيب جوليوس ويخرج رأسه من داخل الخزانة ويغلق بابها.

قائلاً: "لا شيء".

وصل طبيب شاب بعد خمس دقائق، بعدما تم طلب حضوره على الفور. كان الطبيب يحترم السير جايمس كثيرًا، الأمر الذي لاحظه الأخير.

قال الطبيب: "أزمة قلبية أو ربما جرعة زائدة من عقار منوم"، اشتم الهواء ثم قال: "هناك رائحة كلورال في الهواء".

تذكرت توبينس الكوب الذي سكبته، وقادتها فكرة جديدة نحو حوض الغسيل، فوجدت الزجاجة التي كانت قد وضعت منها السيدة فانديماير نقاطًا قليلة لها. كان بالزجاجة ثلاثة أرباعها في ذلك الوقت، ولكنها فارغة الآن.

الرابع عشر

التشاور

لم يكن هناك أمر أثار دهشة توبينس وحيرتها مثل السهولة والبساطة التي تم بها ترتيب كل شيء، بفضل مهارة السير جايمس في التعامل مع هذه الأمور. تقبل الطبيب نظرية أن السيدة فانديماير قد أخذت جرعة زائدة من الكلورال بشكل عرضي. كان الطبيب يشك في احتمالية الحاجة إلى تحقيق، ولكنه سيخبر السير جايمس إذا ما كانت هناك حاجة لذلك. لقد فهم أن السيدة فانديماير كانت بصدد السفر للخارج، ولهذا فإن جميع الخدم غير متواجدين بالمنزل، وكان السير جايمس ورفيقاه الشابان يزورونها عندما فقدت الوعي فجأة وقضوا الليلة بجانبها في الشقة، حيث لم يرغبوا في تركها بمفردها. هل كانوا يعرفون أيًا من أقاربها؟ لا، لم يكونوا يعرفون أيًا منهم، ولكن السير جايمس دله على محامي السيدة فانديماير.

بعد قليل وصلت ممرضة لتتولى أمر الجثة، وغادر الآخرون المبنى المشئوم.

سأل جوليوس وتبدو عليه أمارات اليأس: "ماذا سنفعل الآن؟ أعتقد أننا لن نتمكن من التوصل إلى أي خيط آخر".

داعب السير جايمس ذقنه وهو يفكر بعمق.

ثم قال: "لا، هناك احتمال بأن يخبرنا الطبيب هول بشيء ما".

قال جوليوس: "يا إلهي، لقد نسيت كل شيء عنه".

قال السير جايمس: "إن الاحتمال ضئيل، ولكن يجب ألا نتجاهله. أعتقد أنني أخبرتك بأنه يقيم في فندق متروبول. أقترح أن نذهب للقائه هناك في أسرع وقت ممكن، ولكن بعد أن نستحم ونتناول الإفطار، ما رأيكما؟".

اتفقوا على أن يعود كل من جوليوس وتوبينس إلى فندق الريتز، وأن يمرا بعد ذلك على السير جايمس بالسيارة، وقاموا بالفعل بما اتفقوا عليه، وعندما اقتربت عقارب الساعة من الحادية عشرة، كانوا يقتربون من فندق متروبول، سألوا عن الطبيب هول فانطلق أحد العاملين في خدمة الغرف للبحث عنه. في خلال دقائق معدودة كان الطبيب الشاب يسرع للقائهم.

قال السير جايمس بود: "هل يمكننا أن نتحدث لبضع دقائق أيها الطبيب هول؟ اسمح لي بأن أعرفك بالآنسة كاولي والسيد هيرشايمر الذي أعتقد أنك تعرفه بالفعل".

امتقع وجه الطبيب عندما كان يصافح جوليوس.

وقال: "نعم، صديقي صاحب قصة الشجرة. هل أصبح كاحلك على ما يرام؟".

قال جوليوس: "أعتقد أنه تعافي بفضل مهارتك الطبية أيها الطبيب".

قال الطبيب: "وماذا عن مشكلتك العاطفية؟".

قال جوليوس: "ما زلت أبحث عنها".

سأله السير جايمس: "لندخل في صلب الموضوع، هل يمكننا أن نتحدث معك قليلاً على انفراد؟".

قال الطبيب: "بالطبع، أعتقد أن هناك غرفة لن يزعجنا فيها أحد".

سار الطبيب هول أمامهم ليريهم الطريق. بمجرد أن جلسوا جميعًا، نظر الطبيب إلى السير جايمس مستفسرًا.

قال السير جايمس: "أيها الطبيب هول، أنا أرغب في العثور على فتاة معينة من أجل الحصول على شهادتها في قضية مهمة، وأعتقد أنها كانت في وقت ما واحدة من المرضى في عيادتك في بورنموث. أرجو ألا أكون قد تعديت القواعد المهنية بسؤالي هذا؟".

قال الطبيب: "هل هو أمر يتعلق بشهادة في قضية؟".

تردد السير جايمس قليلاً ثم قال:

"نعم".

قال الطبيب: "سيسعدني أن أقدم لك كل المعلومات التي أمتلكها. ما اسم الفتاة؟ أذكر أن السيد هيرشايمر كان قد سألني -"، والتفت لينظر إلى جوليوس.

قال السير جايمس: "الاسم لا يهم. من المؤكد أنها دخلت عيادتك باسم مستعار، ولكن أرغب في أن أعرف إذا ما كنت تعرف السيدة فانديماير؟".

قال الطبيب: "السيدة فانديماير التي تسكن في الشقة رقم ٢٠ في ساوث أودلي؟ نعم أعرفها قليلاً".

قال السير جايمس: "ألا تعرف ما حدث لها؟".

قال الطبيب: "ماذا تقصد؟".

قال السير جايمس: "هل تعلم أن السيدة فانديماير قد ماتت؟".

قال الطبيب: "يا إلهي، لم أكن أعلم هذا. متى حدث هذا؟".

قال السير جايمس: "لقد تناولت جرعة زائدة من الكلورال ليلة أمس".

قال الطبيب: "عن عمد؟".

قال السير جيمس: "لا، أعتقد أنها تناولته بشكل عرضي. لا أحبذ أن أستنتج الأمر بنفسي. على أية حال، لقد وجدت ميتة هذا الصباح".

قال الطبيب: "أمر مؤسف. لقد كانت امرأة جميلة. أعتقد أنها كانت إحدى صديقاتك، حيث إنك تعرف جميع هذه التفاصيل".

قال السير جايمس: "أنا أعلم جميع التفاصيل، لأنني من وجدها ميتة".

قال الطبيب: "حقًا؟".

قال السير جايمس وهو يداعب ذقنه متأملاً: "نعم".

قال الطبيب: "إنها أخبار حزينة، ولكن اعذرني إن لم أكن أرى أنها على صلة بما تسألني عنه".

قال السير جايمس: "إنه يتعلق بالأمر كالآتي: ألم تسند لك السيدة فانديماير رعاية واحدة من قريباتها الشابات؟".

انحنى جوليوس للأمام باهتمام.

في حين قال الطبيب بهدوء: "هذا هو الأمر إذن".

قال السير جايمس: "ماذا كان اسمها؟".

قال الطبيب: "جانيت فانديماير. أعتقد أنها كانت ابنة أخ السيدة فانديماير".

قال السير جايمس: "ومتى وصلت إلى عيادتك؟".

قال الطبيب: "أذكر أنه كان في يونيو أو يوليو عام ١٩١٥".

قال السير جايمس: "هل كانت تعاني اضطرابًا عقليًا؟".

قال الطبيب: "لقد كانت عاقلة تمامًا، إذا كان هذا ما تقصده. أذكر أن السيدة فانديماير أخبرتني بأنها كانت معها على متن سفينة *لوزيتانيا* عندما غرقت، وأنها قد عانت من صدمة شديدة جراء هذا".

نظر السير جايمس حوله.

وقال: "أعتقد أننا على المسار الصحيح الآن".

قال جوليوس: "كما قلت من قبل، أنا أحمق".

نظر لهما الطبيب في فضول وقال: "لقد قلت إنك ترغب في الحصول على شهادتها. ماذا لو كانت غير قادرة على الإدلاء بالشهادة؟".

قال السير جايمس: "ماذا؟ لقد قلت إنها عاقلة تمامًا".

قال الطبيب: "إنها كذلك، ولكن إذا ما أردت أن تحصل على أي شهادة منها عن أي حدث وقع قبل السابع من مايو عام ١٩١٥، فإنها لن تكون قادرة على ذلك".

نظروا إلى الرجل ضئيل الحجم في دهشة، فأومأ برأسه.

وقال: "شيء مؤسف، خاصة أن الأمر مهم كما أفهم منك سير جايمس. ولكن هذه هي الحقيقة، إنها لن تتمكن من أن تخبرك بأي شيء".

قال جوليوس: "ولكن لماذا؟ لماذا؟".

التفت الطبيب إلى الأمريكي المتحمس.

وقال: "لأن جانيت فانديماير تعاني فقدانًا كاملًا للذاكرة".

قال جوليوس: "ماذا؟".

قال الطبيب: "هذه هي الحقيقة. إنها حالة مثيرة للاهتمام - أمر غير شائع، كما تعتقد. هناك حالات كثيرة مماثلة، ولكنها الحالة الأولى من نوعها التي أولى مهمة علاجها، وعليَّ أن أعترف بأنها أثارت اهتمامي بشكل كبير"، كانت هناك نبرة وحشية في صوت الرجل.

قال السير جايمس ببطء: "وهي لا تتذكر أي شيء".

قال الطبيب: "لا تتذكر أي شيء قبل يوم السابع من مايو عام ١٩١٥. ولكن بعد هذا التاريخ، فإن ذاكرتها قوية مثل ذاكرتك وذاكرتي".

قال السير جايمس: "ما هو أول شيء تذكرته؟".

قال الطبيب: "الوصول إلى الشاطئ مع الناجين من السفينة، ولكن كل ما سبق هذا لا تتذكره. إنها لم تعرف اسمها حتى، أو من أين أتت أو أين كانت. حتى إنها لم تكن قادرة على التحدث بلغتها الأم".

قال جوليوس: "ولكن هذا أمر غير وارد".

قال الطبيب: "لا، سيدي العزيز. إنه أمر طبيعي طبقًا للظروف. الصدمة الشديدة للجهاز العصبي. إن فقدان الذاكرة يحدث دائمًا بالطريقة نفسها. لقد اقترحت أن تذهب لمتخصص. هناك طبيب رائع في باريس - يقوم بدراسة هذه الحالات، ولكن السيدة فانديماير عارضت خوفًا من الفضيحة التي قد تصاحب هذا الأمر".

قال السير جايمس بحزم: "يمكنني تخيل هذا".

قال الطبيب: "لقد انصعت لرغباتها. عادة ما تكون هناك سمعة سيئة تصاحب هذه الحالات، وكانت الفتاة يافعة للغاية - في التاسعة عشرة من عمرها، وأعتقد أنه كان من المؤسف أن يتحدث الناس عن صحتها العقلية - ربما يتسبب هذا في تدمير فرصها في الزواج. هذا إلى جانب أنه لا توجد طرق علاج معينة في هذه الحالات. إنها تخضع جميعًا للانتظار".

قال جوليوس: "الانتظار؟".

قال الطبيب: "نعم، إن آجلاً أو عاجلاً، فإن الذاكرة ستعود من تلقاء نفسها فجأة كما فُقدت فجأة، ولكن في جميع الحالات ستفقد الفتاة ذكرياتها عن الفترة التي حدث فيها الخلل، وستواصل حياتها من حيث توقفت - منذ غرق السفينة *لوزيتانيا*".

قال جوليوس: "ومتى تعتقد أن هذا سوف يحدث؟".

هز الطبيب كتفيه.

وقال: "هذا ما لا يمكنني تحديده. أحيانًا يستمر الأمر لشهور، وأحيانًا يستمر لعشرين عامًا. أحيانًا تقوم صدمة أخرى باسترجاع الذاكرة. صدمة تعيد ما سلبته سابقتها".

قال جوليوس وهو يفكر بعمق: "صدمة أخرى؟".

تحول صوت الرجل ضئيل الحجم ليمتلئ بالفصاحة والحماسة وهو يقول: "بالضبط. كانت هناك حالة في كولورادو ــــ".

لم يبدُ أن جوليوس كان يستمع لما يقول، فقد غرق في أفكاره الخاصة مقطبًا حاجبيه. وخرج فجأة من تفكيره العميق، وطرق سطح الطاولة بقبضته بقوة وبفرقعة عالية جعلت الجميع يقفزون من مكانهم، وكان الطبيب هو أكثر من قفز من مكانه في الهواء.

وقال: "لقد فهمت الأمر أيها الطبيب، أرغب في معرفة رأي الطب في الخطة التي سأوضحها لكم الآن. ماذا لو جعلنا جاين تعبر البحر مرة أخرى، وتقع الحادثة ذاتها مرة أخرى. الغواصة والسفينة الغارقة، وإجلاء الجميع إلى زوارق

النجاة - وهكذا. ألن يصلح هذا؟ ألن يسبب هذا صدمة كبيرة لعقلها الباطن، أو أيًا كان، لكي يبدأ العمل بالشكل الصحيح مرة أخرى؟".

قال الطبيب: "يا لها من فرضية مشوقة يا سيد هيرشايمر. في رأيي الخاص، أعتقد أن هذا الأمر قد ينجح. ولكن للأسف، من المستحيل أن تتكرر الأحداث التي وقعت مرة أخرى كما تفترض".

قال جوليوس: "ليس بشكل طبيعي أيها الطبيب، ولكني أفكر في مشهد تمثيلي".

قال الطبيب: "مشهد تمثيلي؟".

قال جوليوس: "نعم، ما الصعب في هذا؟ نستأجر ناقلة ركاب ــــ"

غمغم الطبيب هول بخفوت: "ناقلة ركاب".

قال جوليوس: "ونستأجر بعض الركاب، ونستأجر غواصة - هذه هي الصعوبة الوحيدة على ما أعتقد. إن الحكومات تتعامل بذكاء مع معداتها الحربية. إنهم لن يوافقوا على تأجيرها لشخص لا يعرفونه، ولكني أعتقد أنه يمكن التغلب على هذه الصعوبة. هل سمعت بكلمة ابتزاز من قبل يا سيدي؟ حسنًا، إن الابتزاز ينجح في كل مرة. أعتقد أننا لن نكون بحاجة إلى إطلاق الطوربيد. إذا ما بدأ الجميع في العدو والصراخ قائلين إن السفينة تغرق، فإن هذا سيكون كافيًا لشابة بريئة مثل جاين. بمجرد أن يضعوا طوق النجاة حولها، ووضعها في زورق النجاة، ومع وجود عدد كاف من الممثلين يتصرفون بهستيرية على متن الزورق، فإنها ستتذكر كل ما حدث قبل يوم ١٥ مايو عام ١٩١٥. ما رأيكم في الأمر بعد توضيحه؟".

نظر الطبيب هول إلى جوليوس، وكان كل ما يرغب في قوله باديًا بوضوح في تلك النظرة.

قال جوليوس ردًا على نظرة الطبيب: "لا، أنا لست مجنونًا. إن هذا الأمر ممكن التحقيق بسهولة شديدة. إنهم يقومون بالأمر ذاته في الولايات المتحدة يوميًا عند تصوير الأفلام. ألم تروا من قبل القطارات وهي تتصادم على شاشة

السينما؟ ما الفرق بين شراء قطار وناقلة ركاب؟ احصل على الأشياء، ومن ثم قم بالعمل".

تمكن الطبيب هول من الحديث أخيرًا.

فقال: "ولكن ماذا عن التكاليف يا سيدي العزيز؟ إن التكاليف ستكون هائلة".

وضح له جوليوس الأمر قائلاً: "إن المال لا يهمني على الإطلاق".

التفت الطبيب هول نحو السير جايمس الذي ابتسم له بلطف وقال: "إن السيد هيرشايمر ثري للغاية - ثري ثراءً فاحشًا".

التفت الطبيب مرة أخرى إلى جوليوس وكانت نظرته تحمل نوعًا جديدًا من الانبهار والتقدير، فإن من كان ينظر له ليس مجرد شاب أرعن يهوى تحطيم الأشجار. اختلفت نظرات الطبيب تمامًا؛ فقد كان ينظر إلى رجل ثري للغاية، فغمغم قائلاً: "إنها خطة رائعة. رائعة للغاية. الأفلام بالطبع - المرادف الأمريكي لكلمة السينما. أمر مثير للغاية. أخشى أننا ما زلنا هنا متخلفين قليلاً فيما يتعلق بهذه الصناعة، ولكن هل تنوي بالفعل تنفيذ هذه الخطة؟".

قال جوليوس: "بدون أدنى شك".

صدقه الطبيب - فقد كان هذا من الخصال المميزة لجنسيته، فلو كان رجل إنجليزي هو من قال هذا الكلام، لكان ارتاب بشكل كبير في سلامة عقله.

وضح الطبيب قائلاً: "لا يمكنني أن أضمن الشفاء، وأعتقد أنه يجب عليّ توضيح هذا".

قال جوليوس: "لا بأس. كل ما عليك هو أن تسلمنا جاين، واترك الباقي لنا".

قال الطبيب: "جاين؟".

قال جوليوس: "الآنسة جانيت فانديماير. هل يمكنك الذهاب إلى عيادتك على الفور وتطلب منهم أن يرسلوها لنا، أو أذهب أنا إلى هناك بسيارتي لأحضرها؟".

حدق إليه الطبيب.

قال: "أستميحك عذرًا سيد هيرشايمر، ولكني اعتقدت أنك قد فهمت ما في الأمر".

قال جوليوس: "فهمت ماذا؟".

قال الطبيب: "أن الآنسة فانديماير لم تعد مريضة في عيادتي".

الخامس عشر

توبينس تتلقى عرضًا

قفز جوليوس من مقعده.

وقال: "ماذا؟".

قال الطبيب: "كنت أعتقد أنك تعلم هذا".

قال جوليوس: "متى رحلت عن عيادتك؟".

قال الطبيب: "دعني أتذكر. اليوم الاثنين، أليس كذلك؟ أعتقد أن هذا كان الأربعاء الماضي - بالتأكيد - نعم، لقد كانت الليلة ذاتها التي سقطت فيها من فوق شجرتي".

قال جوليوس: "تلك الليلة؟ قبل سقوطي أم بعده؟".

قال الطبيب: "دعني أتذكر - نعم، بعد سقوطك. لقد وصلتني رسالة عاجلة من السيدة فانديماير، ورحلت الفتاة والممرضة التي تصاحبها في قطار الليل".

غاص جوليوس مرة أخرى في مقعده.

وغمغم قائلاً: "الممرضة إديث - رحلت مع أحد المرضى - لقد تذكرت. يا إلهي، لقد كنت قريبًا منها بدرجة كبيرة".

بدا الطبيب هول متحيرًا.

وقال: "أنا لا أفهم شيئًا، أليست الفتاة مع عمتها؟".

هزت توبينس رأسها نفيًا، وكانت على وشك التحدث عندما رمقها السير جايمس بنظرة محذرة ثم نهض واقفًا.

قال: "شكرًا جزيلاً لك يا هول. إننا ممتنون للغاية للمعلومات التي أعطيتنا إياها. وأخشى أننا الآن بصدد بدء البحث عن الآنسة فانديماير من جديد. ماذا عن الممرضة التي اصطحبتها؟، أعتقد أنك لا تعلم أين هي، أليس كذلك؟".

هز الطبيب رأسه نفيًا.

وقال: "لم أسمع أي شيء عنها منذ غادرت. أعتقد أنها كانت ستبقى مع الآنسة فانديماير لبعض الوقت. ولكن كيف حدث هذا؟ أنا على يقين من أن الفتاة لم تُختطف".

قال السير جايمس: "هذا ما سنحاول كشفه".

تردد الطبيب قليلاً.

قال: "أتعتقد أنه يجب عليَّ إبلاغ الشرطة؟".

قال السير جايمس: "لا، لا. من المحتمل أن تكون الفتاة مع أحد أقربائها".

لم ترض هذه الكلمات الطبيب، ولكنه شعر بأن السير جايمس ليس راغبًا في قول المزيد، وأدرك أن محاولة الحصول على المزيد من المعلومات من مستشار الملك الشهير ستكون مضيعة للوقت والجهد. لذا، تمنى لهم الحظ السعيد وودعهم. بعد ذلك، انصرفوا جميعًا من الفندق، ووقفوا لبضع دقائق بجانب السيارة يتحدثون.

صاحت توبينس: "يا له من أمر يبعث على الجنون. تصوروا أن جوليوس ظل معها في المكان نفسه لعدة ساعات".

غمغم جوليوس عابسًا: "يا لي من أحمق".

هدأته توبينس قائلة: "إنك لم تكن تعلم"، ونظرت إلى السير جايمس قائلة: "أليس كذلك؟".

قال السير جايمس بلطف: "يجد ربي أن أقول لك ألا تقلق، لا فائدة من البكاء على اللبن المسكوب".

قالت توبينس بعمليتها المعهودة: "المهم هو، ماذا سنفعل بعد ذلك؟".

هز السير جايمس كتفيه.

وقال: "ربما نقوم بنشر إعلان في الصحيفة عن الممرضة التي اصطحبت الفتاة. هذا هو المسار الوحيد الذي يمكنني التفكير فيه حاليًا، وعليَّ أن أقر بأنني لا أنتظر نتائج مبهرة. لا يوجد شيء آخر لنقوم به حاليًا".

قالت توبينس: "لا شيء؟ وماذا عن تومي؟".

قال السير جايمس: "علينا أن نأمل ألا يكون قد أصابه مكروه. نعم، كل ما علينا فعله هو الأمل".

ولكن عندما نظرت توبينس نحو الأرض، التقت عينا جوليوس بعيني السير جايمس الذي هز رأسه نفيًا، ففهم جوليوس أن المحامي قد اعتبر أن الأمر ميئوس منه، فامتقع وجه الأمريكي، وأمسك السير جايمس بيد توبينس قائلاً: "عليك أن تخبريني إذا ما جد جديد. أعيدي إرسال أية خطابات تصلك إليَّ على الفور".

نظرت له توبينس.

وقالت: "هل سترحل؟".

قال السير جايمس: "لقد أخبرتك، ألا تذكرين؟ أنا ذاهب إلى إسكتلندا".

ترددت توبينس قليلاً ثم.

قالت: "نعم، ولكني اعتقدت ـــــ"

هز السير جايمس كتفيه.

وقال: "فتاتي العزيزة، لا يمكنني أن أقوم بأي شيء آخر. لقد أدت جميع الخيوط التي اتبعناها إلى لا شيء. ثقي بكلماتي عندما أقول إنه لا يمكننا فعل أي شيء آخر. إذا ما جد جديد، فسيسعدني أن أنصحك بكل ما أوتيت من حكمة".

جعلت كلماته توبينس تشعر بقدر كبير من الكآبة.

فقالت: "أعتقد أنك على حق. على أية حال، شكرًا جزيلاً لك على محاولة مساعدتنا. إلى اللقاء".

كان جوليوس منحنيًا على السيارة. ظهرت الشفقة في عيني السير جايمس تحدق في توبينس التي تنظر إلى الأرض.

وقال: "لا تشعري بالكآبة يا آنسة توبينس. تذكري أن أوقات العطلات لا يجب بالضرورة أن تكون وقتًا للعب، بل يمكن للمرء أن يقوم فيها ببعض العمل".

كان هناك شيء ما في صوته جعلها تنظر له بحدة، فهز رأسه وابتسم.

وقال: "لا، لا يجب أن أقول أي شيء آخر. من الخطأ أن يقول المرء الكثير. تذكري هذا. لا تقولي أبدًا كل ما تعرفينه - ليس حتى لأقرب المقربين منك. هل فهمت؟ إلى اللقاء".

انصرف السير جايمس مبتعدًا، وحدقت فيه توبينس وهو يبتعد. كانت قد بدأت في فهم أسلوب السير جايمس في التعامل مع الأمور. فقد قام من قبل بإعطائها تلميحًا بطريقته نفسها اللامبالية. هل كان ما قاله الآن تلميحًا آخر؟ ماذا يقصد بكلماته الأخيرة المقتضبة تلك؟ هل يعني أنه، رغم كل شيء، لم يتخل عن القضية بعد: وأنه سيعمل عليها سرًا ـــــ

قاطع جوليوس تأملاتها عندما قال: "اركبي".

قال جوليوس عندما انطلقا بالسيارة: "يبدو أنك تفكرين في أمر ما. هل قال لك ذلك الرجل العجوز أي شيء آخر؟".

فتحت توبينس فمها بشكل عفوي، ولكنها عادت وأغلقته. كانت كلمات السير جايمس ترن في أذنيها: "لا تقولي كل ما تعرفينه - حتى لأقرب الناس إليك". وتذكرت أمرًا ما آخر فجأة - سؤالها الذي طرحته عليه وتوقفه قبل أن يجيب قائلاً: "لا شيء". هل لا يوجد أي شيء بالفعل؟ أم أنه اكتشف أمرًا ما ورغب في الاحتفاظ به لنفسه؟ إذا كان قادرًا على الاحتفاظ بالمعلومات سرًا، فيمكنها هي أيضًا ذلك.

قالت توبينس: "لا شيء محدد".

شعرت بأن جوليوس قد رمقها بنظرة من جانب عينه.

وقال: "ما رأيك بأن نذهب للتجول في المتنزه؟".

قالت توبينس: "كما تحب".

سارا بالسيارة لبرهة من الوقت في صمت تحت الأشجار. كان اليوم جميلاً، وبعث النسيم البارد بعض الانتعاش في توبينس.

قال جوليوس: "هل تعتقدين يا آنسة توبينس أنني لن أجد جاين أبدًا؟".

كان صوت جوليوس يحمل اليأس في طياته. كان هذا المزاج غريبًا عليه لدرجة أن توبينس التفتت إليه في دهشة، فأومأ برأسه.

وقال: "هذا ما في الأمر. إن إحباطي يتزايد جراء هذا الأمر. لقد كان السير جايمس اليوم فاقدًا الأمل بالكامل، كنت قادرًا على الشعور بهذا، أنا لا أحبه - إننا لا نتفق معًا - ولكنه رجل ذكي، وأعتقد أنه لم يكن لينسحب من الأمر لو كان هناك أمل في النجاح - أليس كذلك؟".

شعرت توبينس بالقلق، ولكنها شعرت بأن جوليوس يخفي أيضًا شيئًا ما عنها، لذلك التزمت الحزم.

قالت: "لقد اقترح أن ننشر إعلانًا في الجريدة بشأن الممرضة".

قال جوليوس: "نعم، مع ذلك الأمل الواهي الذي كان باديًا في صوته. لا - أنا على وشك الاستسلام. أنا أفكر في العودة إلى الولايات المتحدة على الفور".

صاحت توبينس: "لا، علينا أن نعثر على تومي".

قال جوليوس: "لقد نسيت أمر بيريسفورد. لقد قضي الأمر، علينا أن نعثر عليه. ولكن ماذا بعد ذلك - لقد كان لدي أمل كبير منذ بدأت هذه الرحلة - ولكنه بدأ يتلاشى. سأستسلم للأمر الواقع. آنسة توبينس، هناك أمر ما أرغب في أن أسألك عنه".

قالت توبينس: "ما هو؟".

قال جوليوس: "ماذا عنك أنت وبيريسفورد؟".

قالت توبينس باعتداد: "لا أفهم ما تقصده. وعلى أية حال. أنت مخطئ".

قال جوليوس: "ألا تكنان لبعضكما أية مشاعر رقيقة؟".

قالت توبينس بانفعال: "بالطبع لا. أنا وتومي مجرد أصدقاء - هذا كل شيء".

قال جوليوس: "أعتقد أن كل حبيبين قد قالا هذا في وقت ما".

قالت توبينس: "هراء، هل تراني من نوعية الفتيات اللاتي يقعن في حب كل من يقابلنه؟".

قال جوليوس: "لا، إنك من نوعية الفتيات اللاتي من النادر أن يقعن في الحب".

قالت توبينس في دهشة: "أوه، أعتقد أن هذه مجاملة، أليس كذلك؟".

قال جوليوس: "بالطبع. والآن دعينا نتحدث عن الأمر. ماذا لو لم نعثر على بيريسفورد - و -".

قالت توبينس: "لا بأس، قلها. يمكنني أن أتقبل الواقع. ماذا لو كان قد مات، أليس كذلك؟".

قال جوليوس: "وانتهى هذا الأمر برمته. ماذا ستفعلين؟".

قالت توبينس وقد قطبت جبينها: "لا أعلم".

قال جوليوس: "ستكونين وحيدة أيتها الفتاة المسكينة".

قالت توبينس كعادتها دون أن تبدو عليها أي من أمارات الشفقة: "سأكون بخير".

سألها جوليوس: "هل ستتزوجين؟ ما رأيك في هذا الأمر؟".

أجابته توبينس: "بالطبع أنوي أن أتزوج. هذا إذا"، ثم توقفت عن الحديث، وقررت أن تتراجع عما ستقوله، ولكنها أصرت أن تستكمل حديثها فقالت: "تمكنت من إيجاد رجل غني يقدرني حق قدري. هذه هي الصراحة، أليس كذلك؟ أعتقد أنك تحتقرني بسبب ما قلت".

قال جوليوس: "لا يمكنني أن أنكر صراحتك. ما شكل الرجل في خيالك؟".

قالت توبينس حائرة: "شكله؟ هل تقصد ما إذا كان طويلاً أم قصيرًا؟".

قال جوليوس: "لا، المال - الدخل".

قالت توبينس: "أوه، لم أفكر في هذا في الواقع".

قال جوليوس: "ماذا عني؟".

قالت توبينس: "أنت؟".

قال جوليوس: "نعم".

قالت توبينس: "أوه، لا يمكنني هذا".

قال جوليوس: "ولم لا؟".

قالت توبينس: "أقول لك، لا أستطيع".

قال جوليوس: "مرة أخرى أقول، ولم لا؟".

قالت توبينس: "سيبدو هذا الأمر غير عادل".

قال جوليوس: "لا أرى هذا. أعتقد أنك تخدعينني. أنت تعجبينني بشدة يا آنسة توبينس، أكثر من أية فتاة قابلتها في حياتي. أنت شجاعة للغاية، وأرغب في أن أقدم لك حياة حقيقية رائعة. وافقي، وسنذهب على الفور إلى أحد الصاغة الكبار لنشتري خاتم الزواج".

شهقت توبينس وقالت: "لا يمكنني هذا".

قال جوليوس: "بسبب بيريسفورد، أليس كذلك؟".

قالت توبينس: "لا، لا، لا".

قال جوليوس: "ما السبب إذن؟".

واصلت توبينس هز رأسها بعنف.

قال جوليوس: "أعتقد أنك تتوقعين الزواج برجل أكثر مني ثراءً".

شهقت توبينس بضحكة هستيرية وقالت: "ليس هذا ما في الأمر، ولكني أشكرك كثيرًا، ولكني أفضل أن أقول لا".

قال جوليوس: "سأكون شاكرًا لك إذا ما وعدتني بأن تفكري بالأمر حتى الغد".

قالت توبينس: "لا فائدة من هذا".

قال جوليوس: "ولكني أفضل أن نترك الأمر على هذا المنوال".

قالت توبينس بخضوع: "حسنًا".

لم يتحدث أي منهما حتى وصلا إلى فندق الريتز.

صعدت توبينس إلى غرفتها، وكانت تشعر بأن معنوياتها في الحضيض بعدما اصطدمت بشخصية جوليوس المفعمة بالحيوية. جلست أمام المرآة وهي تنظر لنفسها في صمت لبضع دقائق.

غمغمت وهي تقطب جبينها قائلة: "حمقاء. حمقاء. كل ما ترغبينه - كل ما تمنيت الحصول عليه، ولكنك تقولين لا مثل الغبية. إنها فرصتك الوحيدة، لماذا لا تغتنمينها؟ وتنتهزينها؟ وتحصلين عليها؟ فيم تأملين أكثر من هذا؟".

كإجابة على تساؤلاتها، وقعت عيناها على صورة لـ تومي موضوعة على طاولة زينتها في إطار رث. صارعت للحظات لتتمالك نفسها، ثم تخلت عن التظاهر وأمسكت بالصورة ورفعتها إلى شفتيها وطبعت عليها قبلة، وبكت:

"أوه، تومي، تومي. أنا أحبك - ولكني لن أراك مرة أخرى ——"

بعد خمس دقائق، جلست توبينس ونظفت أنفها، وعدلت من شعرها.

وقالت: "هذا ما في الأمر. دعينا نواجه الحقيقة. يبدو أنني وقعت في الحب في حب شاب أحمق قد لا يبادلني الشعور نفسه"، توقفت قليلاً ثم تابعت قائلة: "على أية حال. لا أعلم إن كان يحبني أم لا. إنه لم يجرؤ على أن يعترف لي بحبه. لقد كنت دائمًا أسخر من المشاعر، وها أنا ذا أصبحت شاعرية أكثر من أي أحد. يا للفتيات من حمقاوات! لطالما اعتقدت هذا. أعتقد أنني سأنام واضعة صورته تحت وسادتي، وأحلم به طوال الليل. من المؤسف أن تشعر بأن قيمك زائفة".

هزت توبينس رأسها في حزن عندما أدركت تخليها عن قيمها.

وقالت: "لا أعلم ما ينبغي أن أقول لـ جوليوس. أنا أشعر بالحماقة. يجب أن أقول شيئًا ما - إنه أمريكي وذكي، وسيصر على أن يعرف السبب. أنا أتساءل عما إذا كان وجد أي شيء في تلك الخزانة ــــ"

تحولت أفكار توبينس إلى مسار آخر، فقد تذكرت أحداث ليلة الأمس وفكرت فيها بحرص وعمق، وبدا أنها تتعلق بشدة بكلمات السير جايمس الغامضة...

شهقت فجأة بشدة - وامتقع وجهها، وحدقت في المرآة أمامها، واتسع بؤبؤا عينيها.

وقالت: "مستحيل، مستحيل. سأصاب بالجنون إذا ما فكرت في هذا الأمر..." يا إلهي - ولكنه يفسر كل شيء...

بعد أن ظلت تفكر لبضع دقائق، جلست وبدأت في كتابة رسالة، وكانت تنتقي كلماتها بدقة، وأومأت برأسها في النهاية راضية، ووضعت الرسالة في ظرف ووجهته إلى جوليوس. خرجت من غرفتها وسارت في الممر متوجهة نحو غرفة جلوسه وطرقت الباب. وكما توقعت، لم يكن جوليوس موجودًا. فتركت الرسالة على الطاولة.

كان هناك موظف من خدمة الغرف ينتظرها على باب غرفتها عندما عادت إليها.

وقال لها: "تلغراف من أجلك يا سيدتي".

أخذت توبينس الرسالة منه، وفتحتها ثم صرخت، فقد كان التلغراف من تومي!

السادس عشر

مغامرات تومي اللاحقة

من بين الظلمة التي كانت تتخللها بعض توهجات النيران، عاد تومي إلى وعيه ببطء. عندما تمكن أخيرًا من فتح عينيه، لم يكن مدركًا أي شيء، ولكنه كان يشعر بألم شديد في رأسه. بدأ يلاحظ ما يوجد حوله بصعوبة. أين هو؟ ماذا حدث؟ أغمض عينيه في ضعف، فلم تكن هذه غرفة نومه في فندق الريتز. وماذا حدث لرأسه بحق السماء؟

قال تومي وهو يحاول الجلوس: "تبًا"، ثم تذكر ما حدث. لقد كان في ذلك المنزل المشئوم في ضاحية سوهو. ثم صاح في ألم وسقط راقدًا على ظهره مرة أخرى، وحاول أن يستكشف المكان من حوله بعينيه نصف المغمضتين.

قال صوت قريب من أذنه بشدة: "سيستعيد وعيه"، لاحظ تومي على الفور أنه كان صوت الرجل الألماني ذي اللحية، فرقد مرة أخرى دون حراك. كان يشعر بأنه لن يكون من المستحب أن يفيق في وقت مبكر هكذا، وحتى يقل الألم الشديد في رأسه، كان يشعر بأنه غير قادر على التفكير. حاول متألمًا أن يكتشف ما حدث. يبدو أن هناك شخصًا ما تسلل من خلفه عندما كان يسترق السمع خلف الباب وضربه على رأسه ضربة قوية. إنهم يعرفون الآن أنه جاسوس، ويبدو أنهم

لـن يتهاونـوا معه. من المؤكد أنه يوجد في مكان غيـر معروف، ولا أحد سيمكنه أن يعرف أين هو، لذا لم يكن يتوقع الحصول على أية مساعدة من الخارج، ويجب أن يعتمد على سرعة بديهته دون غيرها.

غمغـم تومـي لنفسه قائـلاً: "ها نحـن ذا"، وكرر هذه المقولة فـي نفسه عدة مرات.

ثم قال بعد ذلك: "تبًا"، وتمكن هذه المرة من الجلوس.

وعلى الفور، اقترب منه الرجل الألماني ووضع كوبًا بالقرب من شفتيه وقال: "اشرب". أطاعه تومي. جعله طعم العقار يختنق ولكنه صفى ذهنه لدرجة مذهلة.

كان يرقد على أريكة في الغرفة التي عُقد فيها الاجتماع. كان على أحد جانبيه الرجـل الألماني، وعلـى الجانب الآخر كان يوجد حارس البـاب ذو الوجه الشرير الـذي سمـح له بالدخـول، في حين كان الباقون مجتمعين معًـا في مكان بعيد في الغرفـة. ولكـن لـم يتمكن تومي مـن رؤية وجه واحد، وجه الرجـل الذي يطلقون عليه الرقم واحد، والذي لم يكن متواجدًا بينهم.

سألـه الألمانـي بعدمـا أزاح الكوب الفـارغ عن فمه: "هل تشعـر بتحسن؟"، ثم قـال وهو يومـئ لحارس البـاب: "صديقي الصغيـر، إنك محظـوظ أن جمجمتك قوية، لقد ضربك كونراد ضربة قوية".

ابتسم حارس الباب.

أدار تومي رأسه بصعوبة.

وقال: "أوه، أنت كونراد، أليس كذلك؟ يفاجئني أن سماكة جمجمتي قد كانت فـي صالحك أنت أيضًا. عندما أنظـر إليك أشعر بالشفقة على نفسي عندما أفكر أنك قد تمكنت من مباغتتي".

زمجر الرجل، ولكن الألماني قال بهدوء:

"لم يكن يجرؤ على المخاطرة بتركك".

أجابـه تومـي: "كمـا تريـد. أعلـم أنـه كان يجـب أن أبلـغ الشرطـة، ولكني أثق بنفسي كثيرًا".

كان يتحـدث بعـدم اكتـراث شديـد. لـم يكـن تومـي بيريسفـورد مـن الشبـاب الإنجليـز الذيـن يتميـزون بأيـة إمكانيات عقليـة استثنائيـة، ولكنهـم يكونون في أفضـل أحوالهـم عندما يقعون فـي المواقـف العصيبة، حيث إن ثقتهـم الفطرية بأنفسهـم تطغـى علـى كل شيء. كان تومي يدرك أن سرعـة بديهته فقط هي التي ستساعده على الفرار، وخلف سلوكه العفوي كان يفكر في الأمر بسرعة مذهلة.

كانت نبرة صوت الألماني باردة كالموت وهو يقول:

"هل يوجد ما تقوله قبل أن نقتلك حيث إنك جاسوس؟".

أجابه تومي بأسلوبه اللامبالي نفسه: "هناك الكثير ليقال".

قال الألماني: "هل تنكر أنك كنت تتنصت على اجتماعنا عبر باب الغرفة؟".

قـال تومـي: "لا أنكر هذا، بـل يجب عليَّ أن أعتذر - ولكن حديثكم كان مشوقًا لدرجة أنه تغلب على ترددي".

قال الألماني: "كيف دخلت؟".

ابتسـم تومـي وقال: "عزيزنا كونراد هذا. قد أتردد عندما أقول لك إنه ينبغي أن تتخلـى عـن خدمـات هـذا الخـادم المخلـص، ولكن يجـب أن تحصـل على كلب حراسة أفضل من هذا".

زمجر كونراد في نفاد صبر، وقال عابسًا عندما التفت له الرجل ذو اللحية:

"لقد قال لي كلمة السر، كيف كنت سأعلم أنه يخدعني؟".

قـال تومـي: "نعـم، كيف كان سيعلم؟ لا تلق باللـوم على الرجل المسكين. لقد مكنني تصرفه الأهوج من أن أراكم جميعًا وجهًا لوجه".

شعـر بأن كلماته قـد ألقت القلق في قلوب جميـع الموجودين، ولكن الألماني جعلهم يصمتون بإشارة من يده وقال:

"الرجال الموتى لا يروون القصص".

قال تومي: "آه، ولكني لم أمت بعد".

قال الألماني: "ولكنك ستموت قريبًا صديقي الشاب".

تصاعدت الهمهمات من الباقين، فدق قلب تومي بعنف على الرغم من أن أسلوبه العفوي اللامبالي لم يتغير على الإطلاق.

قال تومي بحزم: "لا أعتقد هذا. سيكون عليَّ أن أعترض على الموت".

حيرهم جميعًا ما قاله، فقد رأى هذا جليًا على وجه مختطفه الذي سأله: "هل يمكن أن تخبرني بالسبب الذي يمنعنا من قتلك؟".

أجابه تومي: "هناك الكثير من الأسباب. اسمع، لقد طرحت عليَّ الكثير من الأسئلة. دعني أطرح عليك واحدًا من باب التغيير. لماذا لم تقتلني على الفور قبل أن أستعيد وعيي؟".

تردد الألماني، فاغتنم تومي الفرصة وقال:

"لأنك لا تعلم كم من المعلومات أعرف - ومن أين حصلت على هذه المعلومات. وإذا ما قتلتني الآن، فإنك لن تعرف أبدًا".

عند هذه المرحلة، لم يحتمل بوريس الوقوف للمشاهدة، فخطا للأمام وهو يلوح بذراعيه ويقول:

"أيها الجاسوس. إننا لن نتهاون معك. اقتله. اقتله".

وارتفع التصفيق.

قال الألماني وهو ينظر لـ تومي: "أتسمع؟ ما رأيك في هذا؟".

هز تومي كتفيه وقال: "ماذا؟ مجموعة من الحمقى. دعهم يطرحوا على أنفسهم بعض الأسئلة. كيف دخلت هذا المكان؟ تذكر ما قاله عزيزنا كونراد - *لقد دخلت بكلمة السر الخاصة بكم*، أليس كذلك؟ كيف عرفت كلمة سركم؟ أعتقد أنك لا تعتقد أنني قد وصلت إلى هنا بمحض المصادفة وأنني قد قلت له أول كلمة تبادرت إلى ذهني، أليس كذلك؟".

كان تومي سعيدًا بالكلمات الأخيرة التي قالها. الأمر الوحيد الذي كان نادمًا عليه هو أن توبينس ليست هنا لتحييه عليها.

قال الألماني فجأة: "هذا صحيح. أيها الرفاق، لقد تعرضنا للخيانة".

تصاعدت الغمغمات كالهدير، وابتسم لهم تومي مشجعًا. وقال:

"هذا أفضل. كيف تأمل في النجاح في أي عمل إذا لم تعمل عقلك فيه؟".

قال الألماني: "ستخبرنا بمن خاننا، ولكن هذا لن ينقذ حياتك - أوه لا. يجب أن تخبرنا بكل ما تعرفه. إن بوريس هذا يعرف طرقًا رائعة تجعل أي شخص يتكلم".

قال تومي بازدراء وهو يقاوم شعورًا غير مستحب استقر في معدته: "هراء. إنك لن تعذبني ولن تقتلني".

سأله بوريس: "ولم لا؟".

قال تومي بهدوء: "لأنك ستقتل الإوزة التي تبيض ذهبًا".

خيم الصمت على المكان، وكان يبدو أن ثقة تومي قد استحوذت على تفكيرهم، فقد فقدوا ثقتهم بأنفسهم، ونظر الرجل ذو الملابس الرثة إلى تومي في حيرة، وقال بهدوء: "إنه يخدعك يا بوريس".

شعر تومي بالمقت تجاه الرجل. هل كان هذا الرجل يقرأ أفكاره؟

التفت الرجل الألماني بصعوبة نحو تومي وقال:

"ما الذي تقصده؟".

قال تومي وهو يعتصر أفكاره بشدة: "ماذا تعتقد أني أقصد؟".

خطا بوريس فجأة إلى الأمام ولكم تومي في وجهه لكمة كالقنبلة وقال:

"تحدث، أيها الإنجليزي الحقير - تحدث".

قال تومي بهدوء: "لا تنفعل لهذه الدرجة يا صديقي العزيز. هذا أسوأ ما فيكم أيها الأغراب، لا يمكنكم أن تصمتوا. والآن، دوري لأسألك، هل أبدو كشخص فكر في وجود أية فرصة تمنعكم من قتلي؟".

نظر حوله بثقة، وكان سعيدًا بأنهم غير قادرين على سماع نبضات قلبه المنتظمة التي أعطت المصداقية لكلماته.

أقر بوريس في النهاية: "لا، لا تبدو كذلك".

فكر تومي في نفسه قائلاً: "حمدًا لله أنه لا يستطيع قراءة الأفكار"، ثم قال بصوت عالٍ مستغلاً الأفضلية التي حصل عليها:

"ولماذا تعتقد أني واثق من أنكم لن تقتلوني لهذه الدرجة؟ لأنني أعلم أمرًا ما يسمح لي بالمساومة".

نظر له الرجل ذو اللحية بحدة وقال: "مساومة؟".

قال تومي: "نعم - المساومة. حياتي وحريتي في مقابل -"، ثم توقف عن الحديث.

قال الرجل ذو اللحية: "مقابل ماذا؟".

خيم الصمت على المكان لدرجة أنه يمكنك سماع صوت الإبرة إذا ما سقطت على الأرض.

تحدث تومي ببطء قائلاً:

"مقابل الوثائق التي أحضرها دنفرز معه من أمريكا على متن السفينة *لوزيتانيا*".

كان تأثير كلماته عليهم كالصاعقة، فقد نهضوا جميعًا واقفين، فأشار لهم الألماني بالصمت وانحنى على تومي ووجهه مشتعل من فرط الانفعال وقال:

"أنت تمتلكها إذن؟".

بهدوء شديد، هز تومي رأسه نفيًا.

قال الألماني: "هل تعلم مكانها؟".

هز تومي رأسه مرة أخرى وقال: "على الإطلاق".

قال الألماني: "إذن - إذن"، ثم تلعثمت كلماته من فرط الغضب والحيرة.

نظر تومي حوله فرأى الغضب والحيرة على وجوه جميع من في الغرفة، ولكن نجح أسلوبه الهادئ الواثق - لم يشك أي منهم في صدق كلماته.

قال تومي: "أنا لا أعلم أين الأوراق - ولكني أعتقد أني قادر على العثور عليها لديّ نظرية بخصوصها ـــــ"

قال الألماني: "هراء".

رفع تومي يده، فصمت الجميع، فعاد ليقول:

"أنا أدعوها نظرية، ولكني واثق تمامًا من الحقائق، الحقائق التي لا يعلمها أحد غيري أنا. على أية حال، ماذا ستخسرون؟ إذا كنت قادرًا على العثور على الوثائق - فستمنحونني حياتي وحريتي في المقابل. هل قبلتم المساومة؟".

قال الألماني بهدوء: "وإذا رفضنا؟".

اضطجع تومي على الأريكة وقال:

"يوم التاسع والعشرين سيحل بعد أقل من أسبوعين ـــــ"

تردد الألماني للحظة ثم أشار إلى كونراد وقال:

"خذه إلى الغرفة الأخرى".

ظل تومي جالسًا على الفراش في الغرفة الحقيرة المجاورة، وكان قلبه يدق بعنف. لقد قامر بكل ما يملك من معلومات في هذه المحاولة. ماذا سيقررون؟ وبينما كانت هذه الأفكار تعصف بعقله، كان يتحدث بتهكم مع كونراد، مثيرًا غضب حارس الباب سيئ الطباع لدرجة الجنون.

في النهاية، انفتح باب الغرفة، وأمر الرجل الألماني كونراد باصطحاب تومي إلى الغرفة الأولى مرة أخرى، فقال تومي:

"أمل ألا يكونوا قد حكموا عليَّ بالإعدام. هيا يا كونراد، خذني إلى الغرفة الأخرى. لقد وصل السجين إلى المحكمة أيها السادة".

جلس الرجل الألماني خلف الطاولة، وطلب من تومي أن يجلس في المقعد المقابل له، وقال لـ تومي:

"لقد قبلنا شروطك. يجب أن نحصل على الوثائق قبل أن نتركك ترحل".

قال تومي بلطف: "أحمق. كيف تعتقد أني سأتمكن من البحث عنها وأنا محبوس هنا؟".

قال الألماني: "ماذا تتوقع إذن؟".

قال تومي: "يجب أن أذهب حرًا طليقًا للبحث عنها".

ضحك الألماني وقال: "هل ترانا مجموعة من الأطفال الصغار لنتركك ترحل من هنا بدون أية ضمانات سوى قصتك المليئة بالوعود؟".

قال تومي مفكرًا بعمق: "لا، على الرغم من أن هذه الخطة تناسبني تمامًا إلا أنني لم أعتقد أنكم ستوافقون عليها. حسنًا، علينا أن نتوصل إلى حل وسط. ماذا لو كلفت كونراد هذا بمرافقتي. إنه رجل وفي، ومستعد دائمًا للكمي".

قال الألماني ببرود: "إننا نفضل أن تظل هنا، وسيقوم أحد الأعضاء باتباع تعليماتك بالحرف الواحد. إذا ما واجه أية صعوبات، فسيعود لك لتعطيه المزيد من التعليمات".

قال تومي شاكيًا: "لقد أتعبتني كثيرًا. إنه أمر شائك، وقد لا يقوم به الرجل الآخر بالكفاءة المطلوبة، وأين سأكون أنا؟ لا أعتقد أن أيًا منكم يمتلك أية لباقة".

ضرب الألماني الطاولة وقال: "هذه هي شروطنا، وإلا، الموت".

أسند تومي ظهره إلى المقعد متململاً وقال:

"يعجبني أسلوبك. فظ، ولكنه جذاب. حسنًا، لقد قضي الأمر، ولكن هناك أمرًا واحدًا ضروريًا، وهو أن أقابل الفتاة".

قال الألماني: "أية فتاة؟".

قال تومي: "جاين فين بالطبع".

نظر له الرجل الألماني بدهشة، ثم قال ببطء كما لو كان يختار كلماته بعناية:

"ألا تعلم أنها لا يمكنها أن تخبرك بأي شيء؟".

بدأ قلب تومي يدق بسرعة أكبر. هل من الممكن أن يقابل الفتاة التي يبحث عنها وجهًا لوجه؟

قال تومي بهدوء: "أنا لن أطلب منها أن تخبرني بأي شيء. لن ألح عليها هذا ما في الأمر".

قال الألماني: "ولما تريد رؤيتها إذن؟".

توقف تومي قليلاً.

قال أخيرًا: "لأرى تعبيرات وجهها عندما أطرح عليها سؤالاً واحدًا".

مرة أخرى ظهرت نظرة غريبة على وجه الرجل الألماني لم يستوعبها تومي.

قال الألماني: "إنها لن تتمكن من الإجابة على أي شيء".

قال تومي: "هذا لا يهم. سأراقب وجهها عندما أطرح السؤال".

قال الألماني: "وهل تعتقد أن هذا سيخبرك بأي شيء؟"، قالها ثم بدأ يضحك ضحكة كريهة، فشعر تومي أكثر من أي وقت مضى بأن هناك شيئًا خفيًا لا يعلمه.

نظر له الرجل الألماني بحيرة وقال بهدوء: "لقد بدأت في التساؤل عما إذا كنت تعلم الكثير كما نظن أم لا".

شعر تومي بأن سيطرته عليهم قد وهنت عن ذي قبل، ولكنه شعر بالحيرة. هل قال شيئًا خاطئًا؟ لقد كان يتحدث بعفوية.

قال تومي: "ربما تعلم أمورًا أكثر مما أعلم. كما أنني لم أتظاهر بأنني مدرك لجميع تفاصيل عملكم، ولكنني أعلم أيضًا أمرًا لا تعلم عنه شيئًا، وهذه هي ضمانتي للبقاء على قيد الحياة. لقد كان دانفرز ماهرًا -"، ثم توقف عن الحديث عندما شعر بأنه أخبره بأكثر مما يجب.

انفرجت أسارير الرجل الألماني قليلاً.

وغمغم قائلاً: "دانفرز، لقد فهمت -"، ثم توقف عن الحديث قليلاً وأشار إلى كونراد وقال: "خذه إلى الطابق العلوي - كما تعلم".

قال تومي: "انتظر قليلاً، ماذا عن الفتاة؟".

قال الألماني: "سنرتب الأمر".

قال تومي: "أرجو هذا".

قال الرجل الألماني: "سنرى ما يمكننا فعله. هناك شخص واحد فقط يمكنه البت في مثل هذا الأمر".

سأله تومي على الرغم من أنه يعلم الإجابة: "من؟".

قال الألماني: "السيد براون ——".

قال تومي: "هل يمكنني أن أقابله؟".

قال الألماني: "ربما".

قال كونراد بخشونة: "هيا".

نهض تومي في طاعة. عندما خرجا من الغرفة أمره سجانه بأن يصعد الدرج وتبعه صاعدًا الدرج. في الطابق العلوي، فتح كونراد باب إحدى الغرف ودخل تومي غرفة صغيرة الحجم. أضاء كونراد مصباحًا غازيًا يصدر صوتًا كالفحيح ثم خرج من الغرفة. سمع تومي صوت مفتاح الباب وهو يدور في مزلاجه.

بدأ تومي في استكشاف الغرفة التي سُجن فيها. كانت الغرفة أصغر حجمًا من الغرفة التي تقع في الطابق السفلي، ولم تكن جيدة التهوية، ثم أدرك أنه لا توجد بها أية نوافذ. بدأ يدور في الغرفة التي كانت ذات حوائط قذرة، مثلها مثل كل ما يوجد في المنزل. كانت هناك أربع صور معلقة على أحد حوائط الغرفة تصور مشاهد من فيلم "فاوست" - مارجريت وهي تحمل صندوق حليها، مشهد دار العبادة، سيبل وزهوره وفاوست وميفستوفوليس. جعل الأخير تومي يذكر السيد براون مرة أخرى. كان تومي يشعر، في تلك الغرفة المغلقة بإحكام ببابها المغلق الثقيل، كمعزول عن العالم، وبأن القوة الشريرة لهذا المجرم العنيد المسمى بالسيد براون حقيقة. يمكنه أن يصرخ كما يحلو له، ولكن لن يسمعه أحد. لقد كانت الغرفة مثل القبر الذي دُفن فيه حيًا...

حاول تومي أن يجمع بصعوبة شتات نفسه، فرقد على الفراش وبدأ يفكر. كان رأسه يؤلمه بشدة، كما أنه كان جائعًا، وكان الصمت الذي يحيط به كئيبًا.

قال تومي محاولاً تهدئة نفسه: "على أية حال، ربما أقابل الزعيم - السيد براون الغامض، ومع القليل من الحظ والخداع، قد أقابل جاين فين أيضًا. بعد ذلك ــــ"

بعد ذلك، أقر تومي بأن ما كان يفكر فيه أمر كئيب.

السابع عشر

آنيت

إن مشكلات المستقبل سرعان ما تختفي أمام مشكلات الحاضر، ومن بين المشكلات الحالية الأكثر إلحاحًا كان الجوع. كان تومي يمتلك شهية صحية وقوية، وبدا كما لو كانت شرائح اللحم مع البطاطس التي تناولها على الغداء تنتمي إلى عقد بعيد من الزمان. أدرك نادمًا أنه لن يتمكن من النجاح مادام يشعر بالجوع.

بدأ تومي يذرع الغرفة التي سُجن فيها جيئة وذهابًا بدون هدف، ولمرة أو مرتين تخلى عن كرامته وبدأ يطرق الباب بعنف، ولكن لم يجبه أحد.

قال تومي: "لا يمكنهم هذا. لا يمكن أن يكونوا يقصدون أن يتركوني لأموت جوعًا. تنامى في داخله خوف جديد من أنه ربما كان هذا أحد "الأساليب الرائعة" التي تجعل السجين يتكلم، والتي يتميز بها بوريس، ولكنه عندما بدأ التفكير فيها شعر بأنها فكرة سخيفة.

قرر في نفسه قائلاً: "إنه كونراد القبيح. سأستمتع بالانتقام منه في أحد الأيام. أعتقد أنه ينتقم مني، لا شك في هذا".

غرس المزيد من التفكير في نفسه شعورًا بأنه يجب أن يضرب كونراد ضربة شديدة على رأسه بيضاوي الشكل. بدأ تومي يضرب رأسه برفق وغرق في تخيلاته، وطرأت عليه فجأة فكرة. لم لا يحول الخيال إلى واقع؟ لا شك في أن كونراد هو مستأجر المنزل، أما الآخرون، ربما عدا الرجل ذا اللحية، يستخدمون المنزل لعقد الاجتماعات فقط. لذا، لم لا يتربص بكونراد خلف الباب ليباغته عند الدخول بضربة بأحد المقاعد أو اللوحات المهترئة على رأسه. يجب عليه بدون شك، أن يضربه بقوة شديدة، وبعد هذا - بعد هذا يمكنه أن يخرج من الغرفة بكل بساطة. إذا ما قابل شخصًا آخر في أثناء خروجه من المنزل، حسنًا - كان تومي سعيدًا بفكرة مواجهة شخص ما بقبضتيه العاريتين. كانت مثل هذه المواجهة تروقه أكثر من المواجهة اللفظية التي حدثت عصر هذا اليوم. قام تومي الذي أعجبته الخطة بإزاحة اللوحة التي يظهر فيها الشيطان وفاوست من الجدار ووقف خلف الباب. كانت آماله تصل إلى عنان السماء، فقد كانت تبدو له الخطة بسيطة ولكن ممتازة.

مر الوقت بدون أن يظهر كونراد. لم يكن تومي قادرًا على إدراك الليل من الصباح في محبسه، ولكن ساعة تومي، التي كانت تتمتع بقدر كبير من الدقة أخبرته بأن الساعة التاسعة مساءً. فكر تومي أنه إن لم يحضر كونراد العشاء له فعليه أن ينتظر الإفطار. عندما دقت الساعة العاشرة، بدأ يفقد الأمل، وارتمى على الفراش عله يجد العزاء في النوم. في خلال خمس دقائق، نسي كل شيء من محنته.

أيقظه صوت المفتاح وهو يدور في المزلاج من نومه. لم يكن تومي من نوعية الأبطال الذين يستيقظون من النوم كاملي الوعي، حدق تومي في سقف الغرفة وبدأ يتساءل أين يكون، ثم تذكر كل شيء ونظر في ساعته وكانت تشير إلى الثامنة.

قال تومي لنفسه: "هذا إما شاي الصباح أو الإفطار، وأدعو الله أن يكون الأخير".

انفتح الباب. تذكر تومي خطته بضرب كونراد على رأسه، ولكن سبق السيف العذل. بعد دقيقة، شعر بالسعادة، حيث إن من دخل الغرفة لم يكن كونراد، ولكن فتاة كانت تحمل صينية وضعتها على الطاولة.

في ضوء المصباح الغازي الخافت، نظر لها تومي، وأقر على الفور بأنها كانت واحدة من أجمل الفتيات اللاتي رأتهن عيناه في حياته. كان شعرها غزيرًا بني اللون، تتخلله بعض الخصلات الذهبية كما لو كان هناك بعض من أشعة الشمس المحبوسة في أعماقه، والتي تناضل من أجل حريتها. كان وجهها يشبه الزهور البرية، وكانت عيناها الواسعتان في لون البندق، لون البندق الذهبي الذي ذكره مرة أخرى بأشعة الشمس.

مرت بعقل تومي فكرة قوية فقال:

"هل أنت جاين فين؟".

قالت الفتاة: "اسمي آنيت يا سيدي".

تكلمت الإنجليزية بلهجة ركيكة ولكن ناعمة.

قال تومي في دهشة: "أوه، هل أنت فرنسية؟".

قالت آنيت: "نعم يا سيدي. هل تتحدث الفرنسية؟".

قال تومي: "لا، على الإطلاق. ما هذا؟ هل هذا هو الإفطار؟".

أومأت الفتاة برأسها موافقة، فجلس تومي على طرف الفراش وبدأ في فحص مكونات الصينية. كان إفطاره مكونًا من الخبز والسمن النباتي المصنع وقدح من القهوة.

قال تومي متنهدًا: "إن الحياة هنا ليست مثل الريتز، ولكني أشكر الله على ما منحني إياه أخيرًا".

جذب أحد المقاعد في حين استدارت الفتاة نحو الباب، فصاح تومي قائلاً:

"انتظري قليلاً. هناك الكثير من الأمور التي أرغب في أن أسألك عنها يا آنيت. ماذا تفعلين في هذا المنزل؟ لا تقولي لي إنك ابنة أخي كونراد أو ابنته أو أي شيء من هذا القبيل، لأنني لن أصدقك".

قالت آنيت: "أنا أقوم بالخدمة هنا يا سيدي، ولست أمت بصلة قرابة لأي أحد".

قال تومي: "فهمت. هل تعلمين شيئًا عما سألتك عنه منذ قليل؟ هل سمعت بهذا الاسم من قبل؟".

قالت آنيت: "أعتقد أنني سمعت بعض الناس يتحدثون عن جاين فين".

قال تومي: "أتعلمين أين هي؟".

هزت الفتاة رأسها نفيًا، فقال تومي:

"أهي موجودة في هذا المنزل؟".

قالت آنيت: "لا يا سيدي. يجب أن أذهب الآن - إنهم ينتظرونني".

أسرعت بالخروج من الغرفة وأغلقت الباب بالمفتاح.

تساءل تومي وقد بدأ في تناول إفطاره:

"من الذين ينتظرونها؟ مع بعض الحظ، قد تساعدني هذه الفتاة على الخروج من هنا. لا يبدو أنها أحد أفراد العصابة".

في تمام الواحدة، ظهرت آنيت مرة أخرى حاملة صينية أخرى، ولكن كان معها كونراد هذه المرة.

قال تومي بلطف: "صباح الخير. يبدو أنك لم تستحم بعد".

زمجر كونراد مهددًا، فقال تومي:

"لا يمكنك الرد بهدوء، أليس كذلك يا عزيزي؟ مرحى، مرحى، لا يمكن أن نكون أذكياء وجميلي الشكل في الوقت ذاته. ماذا سأتناول على الغداء؟ حساء؟ كيف عرفت؟ أمر بديهي عزيزي واتسون - رائحة البصل تملأ المكان".

زمجر الرجل قائلاً: "تحدث كما يحلو لك. أعتقد أنك لن تعيش طويلاً لتواصل الحديث".

لم يكن ما قاله الرجل بالأمر المحبب، ولكن تومي تجاهله وجلس إلى الطاولة، وقال وهو يلوح بذراعه:

"ارحل أيها الوغد، إنك لا تجيد الحديث".

في المساء، رقد تومي في الفراش وهو يفكر بعمق. هل سيرافق كونراد الفتاة مرة أخرى؟ إذا لم يفعل، فهل سيخاطر بأن يجتذبها في صفه؟ قرر أن يجرب جميع الاحتمالات، فقد كان في موقف لا يحسد عليه.

في تمام الثامنة، جعله صوت المفتاح المألوف وهو يدور في مزلاج الباب يقفز واقفًا على قدميه. كانت الفتاة بمفردها فقال لها:

"أغلقي الباب، أرغب في التحدث معك قليلاً".

أطاعته الفتاة.

قال تومي: "اسمعي يا آنيت. أريدك أن تساعديني على الخروج من هنا".

هزت الفتاة رأسها وقالت: "مستحيل. هناك ثلاثة منهم جالسون في الدور الأرضي".

قال تومي الذي كان ممتنًا من المعلومات التي أخبرته بها:

"أوه، ولكن هل ستساعدينني إذا ما واتتك الفرصة؟".

قالت الفتاة: "لا، يا سيدي".

قال تومي: "ولم لا؟".

ترددت الفتاة قليلاً ثم قالت:

"أعتقد - لأنهم أقراني، وأنت تجسست عليهم، ومن حقهم أن يحبسوك هنا".

قال تومي: "إنهم أشرار يا آنيت. إذا ما قمت بمساعدتي، فسأبعدك عنهم، وقد تحصلين على مبلغ جيد من المال".

ولكن الفتاة هزت رأسها مرة أخرى وقالت:

"لا يمكنني هذا. أنا خائفة منهم".

ثم استدارت لتغادر الغرفة.

حينذاك صاح تومي: "ألن تفعلي أي شيء لمساعدة فتاة أخرى؟ إنها في مثل سنك. ألن تساعديها على الفرار من هؤلاء الأشرار؟".

قالت آنيت: "هل تقصد جاين فين؟".

قال تومي: "نعم".

قالت آنيت: "إنها من حضرتَ إلى هنا بحثًا عنها، أليس كذلك؟".

قال تومي: "نعم".

نظرت له الفتاة، ثم مسحت جبهتها بيدها وقالت:

"جاين فين. لطالما سمعت هذا الاسم. إنه مألوف بالنسبة لي".

تقدم تومي نحوها وقال:

"لابد أنك تعرفين شيئًا عنها، أليس كذلك؟".

ولكن الفتاة استدارت فجأة وقالت:

"أنا لا أعرف أي شيء عنها - أعرف اسمها فقط"، سارت نحو الباب ولكنها صرخت فجأة. حدق فيها تومي فوجدها تنظر إلى اللوحة التي كان قد أسندها إلى الحائط في الليلة السابقة. للحظة رأى نظرة الرعب في عينيها، ولكن حلت محلها نظرة الراحة بشكل غير مفهوم، ثم غادرت الغرفة فجأة. لم يفهم تومي شيئًا مما فعلته الفتاة. هل تخيلت أنه كان سيهاجمها بهذه اللوحة؟ بالطبع لا. أعاد تثبيت اللوحة على الجدار بعناية.

مرت ثلاثة أيام مملة أخرى، وبدأ تومي يشعر بالعصبية. لم يكن قد رأى أي أحد خلال تلك الفترة سوى كونراد وآنيت، وأصبحت الفتاة بكماء، لم تكن تتحدث سوى بكلمات مقتضبة، وكان الارتياب يبدو جليًا في عينيها. شعر تومي بأنه إن استمرت عزلته هذه لفترة أطول من ذلك فقد يصاب بالجنون. فهم من كونراد أنهم ينتظرون أوامر السيد براون. اعتقد تومي أنه ربما كان خارج البلاد وأنه كان يجب عليهم انتظار عودته.

ولكن ليلة اليوم الثالث حملت صحوة جديدة.

كانت الساعة تقترب من السابعة عندما سمع صوت خطوات أقدام خارج باب الغرفة. بعد وقت قليل انفتح الباب ودخل كونراد، ومعه كان الرقم أربعة عشر الذي يوحي شكله بالشر. اضطرب قلب تومي عندما رآه.

قال الرجل وفي عينيه نظرة شريرة: "مساء الخير أيها الحاكم. هل أحضرت الحبال معك؟".

أخرج كونراد في صمت حبلاً قويًا، وبعد ذلك كانت يدا الرقم أربعة عشر القاسيتان تربطان الحبل حول أطراف تومي، في حين كان كونراد يثبته أرضًا.

قال تومي: "ما الأمر بحق السماء؟".

ولكن ابتسامة كونراد الصامتة البطيئة جعلته يصمت.

تابع الرقم أربعة عشر عمله متجاهلاً ما قاله تومي. وبعد دقيقة كان تومي مقيدًا وعاجزًا بالكامل، ثم تحدث كونراد أخيرًا:

"هل كنت تعتقد أنك قادر على خداعنا بكل ما تعرفه وما لا تعرفه؟ كنت تساومنا. وطوال هذا الوقت كنت تخدعنا. إنك لا تعرف شيئًا على الإطلاق. لقد انكشف أمرك أيها الحقير".

ظل تومي صامتًا، فلم يكن هناك ما يقال. لقد كشف السيد براون البارع سره، ولكن خطرت له فكرة مفاجئة فقال:

"خطاب جميل يا كونراد، ولكن لم كل هذه القيود؟ لم لا تجعل هذا الرجل المهذب يذبحني على الفور؟".

قال الرقم أربعة عشر فجأة: "هراء. هل تعتقد أننا ساذجون لدرجة أن نقتلك هنا ونجعل الشرطة تأتي لتستطلع الأمر؟ بالطبع لا. لقد تلقينا الأوامر بنقل جلالتك صباح الغد، ولكننا لا نترك أي شيء للمصادفة كما ترى".

قال تومي: "لا يمكن أن تكون هناك كلمات أكثر سذاجة من كلماتك - عدا وجهك".

قال رقم أربعة عشر: "اخرس".

قال تومي: "يسعدني هذا. إنك ترتكب خطأ فادحًا - ولكن خطأك لن يمكن تداركه".

قال الرقم أربعة عشر: "لن يمكنك أن تخدعنا بهذا مرة أخرى. إنك تتحدث كما لو كنت لا تزال مقيمًا في فندق الريتز، أليس كذلك؟".

لم يجبه تومي. كان يتساءل عن الكيفية التي اكتشف بها السيد براون هويته. فكر في أن توبينس عندما شعرت بالقلق أبلغت الشرطة، وأن الشرطة قد أذاعت أمر اختفائه على الملأ، ولم تبذل العصابة جهدًا كبيرًا في ربط الأمرين بعضهما بالآخر.

خرج الرجلان من الغرفة وأغلقا الباب، وتركا تومي غارقًا في أفكاره التي لم تكن أفكارًا مبهجة. كان قد بدأ يشعر بتيبس أطرافه وتشنجها. لقد كان عاجزًا من دون أي أمل يلوح في الأفق.

مرت ساعة تقريبًا عندما سمع المفتاح يدور في المزلاج والباب ينفتح. كانت آنيت، فدق قلب تومي بعنف. كان قد نسي كل شيء عن الفتاة. هل من الممكن أن تكون قد حضرت من أجل مساعدته؟

سمع تومي فجأة صوت كونراد يقول:

"اخرجي من عندك يا آنيت. إنه لن يرغب في العشاء الليلة".

قالت آنيت: "نعم، نعم. أعلم هذا، ولكني أريد أن آخذ الصينية الأخرى، إننا بحاجة إليها".

صاح كونراد: "حسنًا، أسرعي".

توجهت الفتاة نحو الطاولة من دون أن تنظر لـ تومي وحملت الصينية ورفعت يدها وأطفأت الأنوار.

قال كونراد - الذي كان واقفًا خارج الباب:

"اللعنة عليك يا آنيت. لماذا فعلت ذلك؟".

قالت آنيت: "أنا أفعل هذا على الدوام. كان يجب أن تخبرني بألا أفعل هذا. هل أضيئها مرة أخرى يا سيد كونراد؟".

قال كونراد: "لا، اخرجي من عندك".

صاحت آنيت وهي تنحني بجانب فراش تومي في الظلام:

"على الفور سيدي. هل قيدت الرجل جيدًا؟ إنه مثل الدجاجة المعدة للطهي"، ضايقت نبرة صوتها تومي ولكنه شعر بالدهشة عندما شعر بيدها تتلمس قيوده بهدوء، وتضع شيئًا ما صغيرًا وباردًا في يده.

قال كونراد: "هيا يا آنيت".

قالت آنيت: "ها أنا ذا قادمة".

أُغلق الباب وسمع تومي كونراد يقول:

"أغلقي الباب جيدًا وأعطيني المفتاح".

اختفى صوت خطوات الأقدام، وظل تومي متسمرًا في مكانه من فرط الدهشة. كان الشيء الصغير البارد الذي وضعته آنيت في يده عبارة عن مدية صغيرة، وكان نصلها مفتوحًا. من الأسلوب الذي اتبعته في عدم النظر إليه، وما فعلته مع أنوار الغرفة، استنتج أن الغرفة مراقبة. لابد أن هناك فتحة مراقبة في أحد حوائط الغرفة. تذكر كيف كانت حريصة دائمًا في تعاملها معه، واستنتج أنه ربما كان خاضعًا للمراقبة طوال الوقت. هل قال أي شيء جعله يكشف نفسه؟ بالكاد. كان قد كشف عن رغبته في الهرب وإيجاد جاين فين، ولكنه لم يفصح عن أي شيء يكشف هويته. بالفعل، كان السؤال الذي طرحه على آنيت يدل على أنه لا توجد بينه وبين جاين فين صلة شخصية، ولكنه لم يتظاهر بعكس هذا. السؤال المطروح الآن هو، هل تعلم آنيت المزيد من المعلومات بالفعل؟ هل كان إنكارها موجهًا بالأساس لمن يستمعون لحديثهما؟ عند هذه النقطة لم يتمكن من التوصل لأي استنتاج.

ولكن كان هناك سؤال آخر مهم جعله يتجاهل جميع التساؤلات الأخرى. هل سيمكنه، وهو مقيد بهذه الطريقة، قطع قيوده؟ بدأ بحذر في قطع الحبل الذي يقيد معصميه بنصل المدية صعودًا وهبوطًا. كان عملاً دقيقًا، وأحيانًا كان يتأوه من الألم عندما كان نصل المدية يجرح معصمه، ولكنه واصل قطع الحبل ببطء وإصرار. كان تومي قد جرح معصمه بشدة ولكنه شعر في النهاية بأن الحبل يرتخي. عندما تحررت يداه، كانت البقية سهلة. بعد خمس دقائق كان يقف في منتصف الغرفة بصعوبة بسبب أطرافه المتشنجة. كان اهتمامه الأول هو أن يضمد معصمه المجروح، ثم جلس على طرف الفراش يفكر. لقد أخذ كونراد مفتاح الباب، لذا لم يكن يتوقع الكثير من المساعدة من آنيت. كان المخرج الوحيد للغرفة هو بابها، لذا يبدو أنه يجب عليه أن ينتظر حضور

الرجلين لنقله، ولكن عندما يفعلان... ابتسم تومي، وتحرك بحذر شديد في الظلام الدامس وتحسس اللوحة التي على الجدار حتى عثر عليها ورفعها، وشعر بالسعادة لأن خطته الأولى لم تضع هباءً. كل ما كان عليه فعله الآن هو الانتظار وقد فعل.

مر الليل ببطء شديد، وشعر تومي بأن الساعات لا تنتهي، ولكنه سمع أخيرًا صوت خطوات أقدام، فوقف منتصبًا وسحب نفسًا عميقًا وأمسك باللوحة بشدة.

انفتح الباب، وتدفقت أشعة الضوء الخافتة من الخارج. توجه كونراد ليشعل المصباح الغازي، وشعر تومي بالأسف لأن كونراد هو من دخل أولاً، فقد كان يرغب في أن يرد له الصاع صاعين. تبعه الرقم أربعة عشر. بمجرد أن عبر عتبة الباب، ضربه تومي باللوحة ضربة قوية، فسقط رقم أربعة عشر على الأرض بدوي شديد جراء تحطم كوب زجاجي، وخرج تومي على الفور من الغرفة وأغلق الباب، وكان المفتاح في المزلاج فأداره مغلقًا الباب حين بدأ كونراد في ضرب الباب من الداخل مطلقًا اللعنات.

تردد تومي للحظة، فقد كان يسمع صوت شخص ما يعدو على الأرضية في الطابق السفلي، ثم سمع صوت الرجل الألماني يقول وهو يصعد الدرج:

"ما الأمر يا كونراد؟".

شعر تومي بيد توضع على كتفه، وكانت آنيت تقف بجانبه، فأشارت إلى سلم مهترئ يقود إلى العليَّة.

جذبته آنيت خلفها صاعدة السلم وقالت:

"أسرع - إلى أعلى"، وسرعان ما كانا يقفان في عليَّة مغبرة مليئة بأشياء مبعثرة هنا وهناك. نظر تومي حوله وقال: "لن يفيدنا وجودنا هنا. إنه فخ. لا يوجد مخرج".

وضعت الفتاة إصبعها على شفتيها وقالت:

"صه. انتظر"، وزحفت حتى وصلت إلى قمة السلم وبدأت في التنصت على ما يحدث في الأسفل.

كانت أصوات الطرقات على الباب عالية، فقد كان الرجل الألماني ورجل آخر يحاولان فتح الباب عنوة. قالت آنيت هامسة:

"سيعتقدان أنك ما زلت في الداخل. لا يمكنهما أن يسمعا ما يقوله كونراد. إن الباب سميك للغاية".

قال تومي: "كنت أعتقد أنك قادرة على سماع ما يحدث بالغرفة؟".

قالت آنيت: "هناك فتحة تنصت في جدار الغرفة المجاورة. إن إدراكك هذا يدل على الذكاء، ولكنهما لن يفكرا في هذا - كل ما يهمهما الآن هو دخول الغرفة".

قال تومي: "نعم - ولكن انظري ـــــ"

انحنت الفتاة وقالت: "اترك الأمر لي"، ولدهشته، رأى الفتاة تربط طرف خيط طويل بمقبض دورق كبير مشروخ، وتأكدت من ربطه جيدًا، ثم التفتت إلى تومي وقالت: "هل معك مفتاح باب الغرفة؟".

قال تومي: "نعم".

قالت آنيت: "أعطني إياه".

أعطاها المفتاح.

فقالت: "سأهبط لأسفل. هل تعتقد أنك قادر على الهبوط نحو منتصف السلم ثم القفز خلفه، بحيث لا يمكنهما رؤيتك؟".

أومأ تومي برأسه أن نعم.

قالت آنيت: "هناك خزانة في الجزء المظلم من الممر. اختف خلفها. أمسك بطرف هذا الخيط في يدك، وعندما أخرج الآخرين - قم بشده".

قبل أن يتمكن من أن يطرح عليها أي سؤال آخر، كانت تهبط السلم بخفة، وأصبحت بين الجمع وهي تصرخ:

"يا إلهي، يا إلهي، ماذا حدث؟".

التفت الرجل الألماني إليها وقال متوعدًا:

"لا شأن لك بهذا. اذهبي إلى غرفتك".

قام تومي بالقفز بحذر إلى خلف السلم، وطالما لن يقوم أي منهم بالنظر نحوه، فسيكون كل شيء على خير ما يرام. زحف تومي حتى وصل خلف الخزانة، وكان الجمع لا يزال يفصل بينه وبين الدرج.

تظاهرت آنيت بأنها تعثرت بشيء ما فقالت:

"يا إلهي، ها هو المفتاح؟".

اختطف الرجل الألماني المفتاح من يدها، وفتح الباب، فخرج منه كونراد متوعدًا، وقال:

"أين هو؟ هل أمسكتم به؟".

قال الألماني بحدة وقد شحب وجهه:

"إننا لم نر أي أحد. من تعني؟".

أطلق كونراد وعيدًا آخر ثم قال:

"لقد هرب".

قال الألماني: "مستحيل. كان يجب أن يمر بنا".

في اللحظة ذاتها قام تومي، وهو يبتسم، بجذب الخيط، فتصاعد صوت تحطم في العليَّة. في لحظات كان الرجال يتدافعون صاعدين سلم العليَّة المهترئ واختفوا في الظلام في الأعلى.

وفي لمح البصر، قفز تومي من مكان اختبائه وهبط الدرج مسرعًا ساحبًا الفتاة خلفه. لم يكن هناك أحد في ردهة المنزل، وبدأ يحاول فتح باب المنزل، ونجح أخيرًا، وانفتح الباب، التفت للخلف، ولكنه لم يجد آنيت.

وقف تومي مشدوهًا. هل عادت للطابق العلوي مرة أخرى؟ أي جنون هذا! كان لا يطيق الانتظار طويلاً ولكن بقي مكانه، لم يكن من الممكن أن يتركها ويهرب.

سمع فجأة صوت صرخة عالية، وصوت استفسار من الرجل الألماني، ثم صوت آنيت تقول:

"يا إلهي، لقد هرب، بسرعة، من كان يتصور هذا؟".

بقي تومي واقفًا مكانه. هل كان هذا أمرًا منها له بالفرار؟ أعتقد أنه كذلك.

بعد هذا سمع صوت آنيت العالي يقول:

"هذا منزل سيئ. أريد العودة إلى مارجريت. إلى مارجريت، إلى مارجريت".

عدا تومي عائدًا نحو الدرج. هل كانت تريده أن يهرب ويتركها؟ ولكن لماذا؟ على أية حال، يجب أن يحاول أن يأخذها معه. ولكن بعد ذلك، شعر برعب شديد، فقد كان كونراد يقفز هابطًا الدرج مطلقًا صيحة بربرية عندما رآه، وكان الآخرون خلفه.

أوقف تومي اندفاع كونراد بلكمة كالقنبلة وجهها إلى وجهه ارتطمت بفكه فسقط على الأرض دون حراك، وتعثر الرجل الذي كان يهبط الدرج خلفه بجسده. من على قمة السلم، ظهر ضوء لامع، واحتكت طلقة رصاص بأذن تومي. أدرك تومي أنه يجب أن يخرج من هذا المنزل في أسرع وقت ممكن، فلم يكن بوسعه فعل أي شيء لـ آنيت. لقد رد لـ كونراد الصاع صاعين، الأمر الذي جعله يشعر بالرضا، فقد كانت اللكمة التي وجهها له قوية للغاية.

قفز تومي خارجًا من الباب وصفقه خلفه. كان الحي خاليًا من المارة عدا شاحنة تخص أحد الخبازين. يبدو أن هذه الشاحنة هي التي كان سيتم نقله فيها إلى خارج لندن، وكان سيتم العثور على جثته على بعد عدة أميال من المنزل في ضاحية سوهو. قفز السائق من السيارة وحاول اعتراض طريق تومي. تحركت قبضة تومي مرة أخرى موجهة لكمة أخرى قوية إلى فك السائق الذي رقد على الرصيف من دون حراك.

بدأ تومي بالعدو بأقصى ما أوتي من قوة. انفتح الباب الأمامي للمنزل، وانهمرت عليه طلقات الرصاص كالسيل. لحسن الحظ لم تصبه أي منها حتى وصل أخيرًا إلى ناصية الميدان.

فكر تومي في نفسه: "هناك أمر واحد مؤكد، أنهم لن يستمروا في إطلاق النار. سيلفتون انتباه الشرطة إذا ما فعلوا. هل سيجرؤون على إطلاق النار هنا؟".

سمع صوت خطوات أقدام من يطاردونه تقترب، فضاعف من سرعة عدوه. بمجرد أن يتمكن من الخروج من تلك الشوارع الجانبية، سيكون في أمان. سيجد رجال الشرطة في مكان ما - ليس لأنه سيطلب منهم المساعدة إلا إذا كان بحاجة لذلك. كان الأمر يتطلب توضيحًا، الأمر الذي لم يكن ممكنًا. في اللحظة التالية لعب الحظ دوره. كان قد تعثر في شخص راقد على الأرض، والذي أطلق صيحة خوف ونهض وبدأ يعدو. توارى تومي في مدخل إحدى البنايات، وسرعان ما رأى اثنين ممن يطاردونه - كان أحدهما الرجل الألماني - وهما يعدوان خلف الرجل الآخر.

جلس تومي بهدوء على عتبة الباب ليلتقط أنفاسه، ثم نهض وسار في الاتجاه المعاكس. نظر إلى ساعته، وكانت تشير إلى الخامسة والنصف، وكانت أشعة الشمس قد بدأت تشق السماء بسرعة. على ناصية الشارع التالي، مر أحد رجال الشرطة وألقى على تومي نظرة متشككة. شعر تومي بالإهانة. عندما مرر يده على وجهه بدأ في الضحك. لم يكن قد حلق ذقنه أو استحم طوال ثلاثة أيام. من المؤكد أنه سيبدو قذرًا.

توجه على الفور إلى مبنى حمام تركي كان يعرف أنه يفتح أبوابه طوال الليل. خرج منه بعد ذلك في ضوء النهار وهو يشعر بأنه قد استعاد نفسه، وأصبح قادرًا على وضع الخطط مرة أخرى.

قبل أي شيء، يجب أن يتناول وجبة شهية. لم يكن قد أكل شيئًا منذ ظهر يوم أمس. دخل أحد المطاعم وطلب بعض البيض واللحم المقدد والقهوة. وبينما كان يتناول الطعام، تصفح جريدة الصباح التي كانت موضوعة أمامه على الطاولة. لفت انتباهه مقال طويل عن كرامينين، الرجل الذي يقال عنه إنه "العقل المدبر للبلشفية" في روسيا، والذي وصل للتو إلى لندن - اعتقد البعض أنها زيارة غير رسمية. ذكر المقال بعض المعلومات المختصرة عن مسيرته المهنية، كما أكد بشدة أنه، وليس القادة الكبار، هو من دبر الثورة الروسية.

كانت صورة الرجل ظاهرة في منتصف تلك الصفحة من الجريدة.

قال تومي وفمه ممتلئ بالبيض واللحم المقدد:

"هذا إذن هو رقم واحد. أنا واثق من هذا. يجب أن أواصل العمل".

دفع تومي ثمن إفطاره، وتوجه نحو مقر الحكومة البريطانية. عندما وصل إلى هناك، أخبرهم باسمه وبأنه يحمل رسالة بالغة الأهمية. في خلال دقائق، كان يجلس مع الرجل الذي لم يكن معروفًا هنا باسم السيد كارتر. كان الرجل ينظر له وحاجباه معقودان وقال:

"اسمع، لم يكن يجب عليك أن تأتي لتطلب مقابلتي بهذه الطريقة. كنت أعتقد أننا قد اتفقنا على هذا".

قال تومي: "بالفعل يا سيدي، ولكن لم يكن من الممكن أن أضيع ثانية واحدة".

قص عليه تومي ما حدث خلال الأيام الماضية باختصار شديد.

في منتصف حديث تومي، قاطعه السيد كارتر ليلقي بعض التعليمات عبر الهاتف، وكانت جميع مظاهر الضيق قد اختفت من على وجهه حاليًا. أومأ السيد كارتر برأسه في انفعال عندما أنهى تومي حديثه وقال:

"لقد كنت محقًا. لقد كانت كل ثانية مهمة. أخشى أن نكون قد تأخرنا كثيرًا بالفعل. إنهم لن ينتظروا لثانية واحدة قبل الهرب. سيتضح كل شيء على الفور. إلا إنهم ربما يكونون قد تركوا شيئًا ما خلفهم قد يصلح كخيط نتبعه. لقد قلت إنك اكتشفت أن الرقم واحد هو كرامينين، أليس كذلك؟ هذا أمر غاية في الأهمية. لقد كنا بحاجة ماسة إلى أي دليل ضده كي لا تقوم الحكومة بالقبض عليه دون أن نستفيد من وضعه. ماذا عن الآخرين؟ لقد قلت إن هناك شخصين يبدوان مألوفين بالنسبة لك، أليس كذلك؟ انظر إلى هذه الصور فقد تجد صورتيهما بينها".

بعد دقيقة، أخرج تومي إحدى الصور، فنظر لها السيد كارتر مندهشًا، وقال:

"آه، ويستواي، لم أتخيل هذا، لقد كان يتظاهر بأنه شخص عادي. أما بالنسبة للشخص الآخر، فأعتقد أنه يمكنني التخمين"، ثم سلم صورة أخرى لـ تومي، وابتسم قائلاً: "أنا محق إذن. من هذا؟ أيرلندي، اتحادي بارز، عضو في مجلس النواب. كل هذا على سبيل التغطية عليه من دون شك. كنا نرتاب في

أمـره، ولكننـا لم نكن نملك دليلاً. نعـم، لقد قمت بعمل رائع أيها الشاب. تقول إن التاريـخ سيكـون في يـوم التاسع والعشرين. هذا يعطينا القليـل جدًا من الوقت - القليل جدًا".

تردد تومي: "ولكن ـــــ"

قرأ السيد كارتر أفكاره فقال:

"أعتقد أنه يمكننا التعامل مع الإضراب العام. إنها مقامرة - ولكننا نملك فرصة ذهبية، ولكن إذا ما ظهرت مسودة الاتفاقية تلك - فقد انتهى أمرنا. ستعم الفوضى أرجاء إنجلترا. ما الأمر؟ السيارة؟ هيا يا بيريسيفورد. سنذهب لنلقي نظرة على هذا المنزل".

كان هنـاك شرطيـان مكلفان بحراسة المنزل فـي ضاحية سوهو، وتحدث أحد المحققين بصوت خافت مع السيد كارتر الذي التفت إلى تومي وقال:

"لقد هربوا - كما اعتقدنا. ربما يجب علينا أن نتحرى أمر المنزل".

كان دخول المنزل مرة أخرى يبدو بالنسبة لـ تومي كالحلم. كان كل شيء كما تركه تمامًا. الغرفة التي تم حبسه فيها واللوحة المهشمة، والدورق المكسور في العليّة، غرفة الاجتماعات بطاولتها الطويلة، ولكن لم يكن هناك أثر لأية أوراق. يبـدو أنـه قد تم تدميرها جميعًا أو أخذها معهم فـي أثناء الهرب. ولم تكن هناك أية إشارة على وجود آنيت.

قال السيد كارتر: "إن ما قلته لي عن الفتاة يجعلني أشعر بالحيرة. هل تعتقد أنها عادت إلى داخل المنزل متعمدة؟".

قـال تومـي: "يبدو هـذا يا سيدي. لقـد عادت إلـى الطابق العلـوي بينما كنت أحاول فتح الباب".

قـال السيـد كارتـر: "يبدو أنها أحد أفـراد العصابة إذن، ولكـن كونها امرأة لم تستطع رؤية رجل فاتن مثلك يُقتل. ولكن يبدو أنها متورطة في الأمر معهم، وإلا لم تكن لتعود إليهم".

قال تومي: "لا يمكنني أن أصدق أنها أحد أفراد العصابة يا سيدي. لقد - بدت - مختلفة ـــــ"

قال السيد كارتر وهو يبتسم ابتسامة جعلت وجهه يحمر خجلاً:

"إنها جميلة، أليس كذلك؟".

أقـر تومـي بجمال آنيت في خجل، فقال السيد كارتـر: "بالمناسبة، هل ذهبت إلى الآنسة توبينس بعد؟ لقد أرسلت لي الكثير من الرسائل بخصوصك".

قال تومي: "كنت أخشى أن تشعر بالقلق. هل أبلغت الشرطة؟".

هز السيد كارتر رأسه نفيًا، فقال تومي:

"أتعجب إذن عن كيفية كشفهم أمري".

نظر له السيد كارتر في حيرة، فشرح له تومي الأمر. أومأ السيد كارتر برأسه وقال:

"حقًا، إنـه أمـر مثير للريبة، إلا إذا كان ذكـر الريتز مجرد مصادفة، أليس كذلك؟".

قـال تومـي: "ربما كان الأمر كذلك يا سيـدي، ولكن لابد من أنهم تمكنوا من كشف أمري بشكل مفاجئ بطريقة ما".

قال السيد كارتر وهو ينظر حوله: "حسنًا، لا يوجد شيء آخر يستحق وجودنا هنا. ما رأيك في أن تتناول الغداء معي؟".

قال تومي: "شكرًا لك سيدي، ولكني أفضل أن أعود إلى توبينس لأطمئنها".

قـال السيـد كارتـر: "بالطبـع. أبلغهـا خالص تحياتـي وأخبرهـا بـألا تصدق بسهولة أنك قتلت في المرة القادمة".

ابتسم تومي وقال: "لا يمكنني أن أُقتل بهذه السهولة يا سيدي".

قـال السيد كارتـر باقتضاب: "هـذا ما أعتقـده. حسنًا، إلى اللقـاء. تذكر أنك رجل مستهدف حاليًا، فاعتن بنفسك". قال تومي: "شكرًا لك سيدي".

أشـار تومـي لواحـدة مـن سيارات الأجـرة وقفز داخلهـا، فانطلقـت نحو فندق الريتز، ووقف يفكر قليلاً في رد فعل توبينس عندما تراه.

قال تومي لنفسه: "ما الذي تخطط له توبينس في الوقت الحالي. ربما تخطط لمطاردة ريتا. بالمناسبة، ما الذي كانت تقصده آنيت باسم مارجريت. لم أتمكن من فهم ما تقصده في حينها"، أحزنته الفكرة قليلاً، حيث إنه كان يثبت أن السيدة فانديماير والفتاة كانتا على صلة وثيقة.

اقتربت سيارة الأجرة من فندق الريتز، فاندفع تومي عابرًا أبوابه بسرعة، ولكن بمجرد أن دخل إلى الفندق، فترت حماسته. فقد أخبره موظف الاستقبال بأن الآنسة كاولي قد غادرت منذ ربع الساعة.

الثامن عشر

البرقية

دخل تومي مطعم الفندق، وهو يشعر بالحيرة، وطلب وجبة كبيرة، فقد علمته الأيام الأربعة التي كان حبيسًا فيها قيمة الطعام الجيد.

كان على وشك أن يضع في فمه بعضًا من الوجبة التي اختارها بعناية من قائمة الطعام، عندما رأى جوليوس وهو يدخل الغرفة. لوح تومي بقائمة الطعام ببهجة ونجح في جذب انتباه جوليوس. عندما رأى جوليوس تومي، بدا كما لو كانت عيناه ستقفزان من محجريهما. توجه نحو تومي وصافحه بقوة شعر الأخير بأنها غير ضرورية.

قال جوليوس: "يا إلهي، هل هذا أنت حقًا؟".

قال تومي: "بالطبع هذا أنا، ولم لا؟".

قال جوليوس: "ولم لا؟ ألم تعلم يا رجل أننا اعتقدنا أنك قد مت؟ لقد كنا بصدد إقامة جنازتك بعد بضعة أيام".

سأله تومي: "من الذي اعتقد أنني قد مت؟".

قال جوليوس: "توبينس".

قال تومي: "أعتقد أنها قد تذكرت المثل عن موت الشاب الطيب. أعتقد أنني قمت بالكثير من الآثام لذا فقد نجوت. أين هي توبينس؟".

قال جوليوس: "أليست هنا؟".

قال تومي: "لا، لقد قال لي موظف الاستقبال إنها قد خرجت".

قال جوليوس: "أعتقد أنها ذهبت للتسوق. لقد قمت بتوصيلها بالسيارة إلى هنا منذ حوالي الساعة، ولكن ألن تنفض عنك هذا الهدوء البريطاني وتخبرني بما حدث؟ ماذا كنت تفعل طوال هذه الفترة بحق السماء؟".

أجابه تومي: "إذا ما كنت ستتناول طعامك هنا، فاطلبه الآن، حيث إنها قصة طويلة".

جذب جوليوس مقعدًا إلى الجانب المقابل من الطاولة، ونادى النادل، وأخبره بالطعام الذي يريده، ثم التفت إلى تومي وقال:

"هيا أخبرني، أعتقد أنك قد قمت ببعض المغامرات".

رد عليه تومي في تواضع: "بواحدة أو اثنتين"، ثم بدأ يقص عليه ما حدث.

استمع له جوليوس دون أن ينبس ببنت شفة، ونسي أن يتناول ما في نصف الأطباق التي وضعت أمامه. وعندما انتهى تومي أطلق جوليوس تنهيدة طويلة وقال:

"إنك شجاع للغاية. إن ما حدث لك يشبه أحداث الروايات الرخيصة".

قال تومي وهو يمد يده ليلتقط ثمرة خوخ:

"والآن ماذا عنك؟".

قال جوليوس: "حسنًا، يجدر بي أن أقر بأننا قد قمنا ببعض المغامرات نحن أيضًا".

قام هو أيضًا بدور الراوي، وبدأ بمهمته الفاشلة في بورتسموث، ثم أخبره بما حدث عندما عاد إلى لندن، وشرائه السيارة والقلق الذي كان يتزايد في صدر توبينس، والأحداث الاستثنائية التي وقعت الليلة السابقة.

سأله تومي: "ولكن، من قتلها؟ لا يمكنني استيعاب هذا".

أجابه جوليوس باقتضاب: "لقد قال الطبيب إنها قد تناولت السم بنفسها".

قال تومي: "وماذا عن السير جايمس؟ ماذا يعتقد؟".

أجابه جوليوس: "كونه أحد نجوم القضاء، فإنه شخص كتوم. أعتقد أنه احتفظ بالحكم على الأمر لنفسه"، ثم بدأ يقص على تومي تفاصيل ما حدث صباح هذا اليوم.

قال تومي باهتمام: "فقدت ذاكرتها؟ بحق السماء، هذا يفسر سبب نظرتهم إلي بغرابة عندما طلبت استجوابها. لقد أخطأت في هذا الأمر. ولكني لا أعتقد أن هذا من نوعية الأمور التي قد يتمكن المرء من تخمينها".

قال جوليوس: "ألم يعطوك أي تلميح عن المكان الذي قد تتواجد فيه جاين؟".

هز تومي رأسه في أسف وقال:

"لا شيء على الإطلاق. أنا أحمق كما تعلم. كان يجب عليَّ أن أحصل على المزيد من المعلومات منهم بطريقة ما".

قال جوليوس: "أعتقد أنك محظوظ بكونك هنا الآن. إن خداعك إياهم كان جيدًا. لا يمكنني أن أتصور كيف أنك تمكنت من التفكير في كل هذا بهذه السرعة".

قال تومي ببساطة: "لقد كنت في موقف يحتم عليَّ التفكير في أمر ما".

خيم الصمت للحظات، ثم عاد تومي ليتحدث عن وفاة السيدة فانديماير قائلاً:

"لا يوجد شك في أنها ماتت جراء تسمم الكلورال، أليس كذلك؟".

قال جوليوس: "أعتقد هذا. إن الأطباء يقولون على الأقل إنها أزمة قلبية سببتها جرعة زائدة من العقار، أو هراء من هذا القبيل. لا بأس، لن يكون علينا أن نقلق بشأن إجراء تحقيق حول موتها، ولكني أعتقد أنني وتوبينس والسير جايمس المبجل نفكر في الأمر ذاته".

قال تومي: "السيد براون، أليس كذلك؟".

قال جوليوس: "بكل تأكيد".

أومأ تومي برأسه وقال:

"ولكن السيد براون لا يمتلك أجنحة. لا يمكنني تصور كيف دخل المنزل وخرج منه".

قال جوليوس: "ماذا عن نوع من التواصل التخاطري؟ تأثير مغناطيسي أجبر السيدة فانديماير على الانتحار؟".

نظر له تومي باحترام وقال:

"أمر جيد يا جوليوس، جيد للغاية، خاصة أسلوب تعبيرك عن الأمر ولكن هذه الفكرة تربكني. أنا أتوق إلى رؤية السيد براون وجهًا لوجه. أعتقد أن المحققين الماهرين الشباب يجب أن يبدأوا العمل، ويقوموا بدراسة المداخل والمخارج، وأن يطرقوا التفكير حتى يتوصلوا إلى حل اللغز. دعنا نذهب إلى مسرح الجريمة، وأرجو أن نعثر على توبينس، إن فندق الريتز بأكمله سيستمتع برؤية لم الشمل المبتهج".

عندما سألا موظف الاستقبال أخبرهما بأن توبينس لم تعد بعد.

قال جوليوس: "أعتقد أني سأذهب للبحث عنها في الطابق العلوي، ربما كانت جالسة في غرفة معيشتي"، وانصرف.

فجأة تحدث صبي صغير قائلاً بصوت خجل:

"أعتقد أن السيدة الشابة - قد استقلت القطار، يا سيدي".

نظر له تومي وقال: "ماذا؟".

احمر وجه الصبي الصغير أكثر وقال:

"سيارة الأجرة يا سيدي. لقد سمعتها تخبر السائق بالتوجه إلى محطة شايرينج كروس وأن يسرع".

حدق به تومي، وقد جحظت عيناه في دهشة، فتشجع الصبي الصغير وواصل حديثه قائلاً:

"أعتقد أنها لهذا السبب قد طلبت مني جدول مواعيد القطارات".

قاطعه تومي قائلاً: "متى طلبت منك جدول مواعيد القطارات؟".

قال الصبي: "بعدما سلمتها البرقية يا سيدي".

قال تومي: "برقية؟".

قال الصبي: "نعم".

قال تومي: "متى كان ذلك؟".

قال الصبي: "حوالي الثانية عشرة والنصف يا سيدي".

قال تومي: "أخبرني بما حدث بالتفصيل".

سحب الصبي نفسًا عميقًا ثم قال:

"لقد أخذت برقية إلى الغرفة رقم ٨٩١ - كانت السيدة هناك. فتحت البرقية ثم شهقت وقالت لي بسعادة: أحضر لي جدول مواعيد القطارات، وأسرع يا هنري. هذا اسمي يا سيدي. هنري، ولكن ــــ"

قال تومي بنفاد صبر: "لا يهمني اسمك، أكمل".

قال هنري: "حسنًا يا سيدي. أحضرت لها ما طلبت، وطلبت مني أن أنتظر، وبدأت في البحث عن موعد بعينه، ثم نظرت إلى الساعة، وقالت:

أسرع وأخبرهم بأن يطلبوا سيارة أجرة، وبدأت في ارتداء قبعتها أمام المرآة، وسرعان ما كانت في الطابق السفلي للفندق، تقريبًا وصلت في الوقت الذي وصلتُ فيه، ثم رأيتها تخرج من الفندق وتستقل سيارة الأجرة، وسمعتها تخبر السائق بما أخبرتك به".

توقف الصبي عن الحديث وبدأ في التقاط أنفاسه، وواصل تومي التحديق في وجهه. في اللحظة ذاتها عاد جوليوس ممسكًا بخطاب مفتوح في يده، فالتفت له تومي وقال:

"أعتقد يا هيرشايمر أن توبينس قد ذهبت للتحقيق بمفردها".

قال جوليوس: "اللعنة".

قال تومي: "نعم، لقد استقلت سيارة أجرة إلى محطة شايرينج كروس وكانت على عجلة من أمرها بعدما تلقت برقية". ثم وقعت عيناه على الخطاب الذي يمسك به جوليوس وقال: "أوه، لقد تركت لك رسالة. هذا جيد، إلى أين ذهبت؟".

وبحركة عفوية، مد يده ليأخذ الخطاب من جوليوس، الذي قام بطيه ووضعه في جيبه، وكان يشعر بالحرج فقال:

"لا أعتقد أن هذه الرسالة تتعلق بالأمر، إنها بخصوص أمر آخر - أمر ما سألتها أن تخبرني به".

بدا تومي حائرًا وينتظر الحصول على المزيد من المعلومات قائلاً:

"أوه".

قال جوليوس فجأة:

"اسمع. أعتقد أنه من الأفضل أن أخبرك بالأمر. لقد طلبت من الآنسة توبينس أن تتزوجني".

قال تومي بشكل آلي وقد شعر بالدوار من المفاجأة:

"أوه"، فقد كانت كلمات جوليوس مفاجئة، وجعلت عقله يدور للحظات.

أضاف جوليوس قائلاً: "يجدر بي أن أخبرك بأني قبل أن أطلب منها مثل هذا الطلب، تأكدت منها أنني لم أتدخل بأي شكل من الأشكال بينكما ——"

أيقظ تومي نفسه وقال في سرعة: "لا بأس. أنا وتوبينس أصدقاء منذ سنوات، لا أكثر". ثم أشعل سيجارة ويداه ترتعشان قليلاً وقال:

"لا بأس، لطالما قالت توبينس إنها تبحث عن ——"

توقف عن الحديث فجأة، وقد أحمر وجهه، ولكن جوليوس لم يكن منزعجًا وهو يقول:

"أوه، أعتقد أني الرجل الثري الذي تبحث عنه. لقد أخبرتني الآنسة توبينس بكل شيء على الفور. إنها لم تحاول خداعي. أعتقد أن كلًا منا سيكون مناسبا للآخر".

نظر له تومي بفضول للحظات، وبدا أنه سيتكلم، ولكنه غير رأيه ولم يقل شيئًا. توبينس وجوليوس. حسنًا، ولم لا؟ ألم تعترف بحقيقة أنها لم تتعرف على أي رجل ثري؟ ألم تفصح برغبتها في الزواج من أجل المال إذا ما واتتها الفرصة لذلك؟ إن لقاءها مع هذا المليونير الأمريكي قد أتاح لها هذه الفرصة - ومن غير المرجح أن تترك تلك الفرصة تنسل من بين يديها. لقد كانت تعشق المال. لطالما قالت هذا. لماذا يلقي عليها باللوم على أنها تتصرف وفقًا لاعتقادها؟

ولكن، ألقى تومي باللوم عليها بالفعل. لقد كان يشعر باستياء شديد لا تفسير له. من السهل قول هذا - ولكن يجب ألا تتزوج الفتاة العاقلة من أجل المال. كانت توبينس باردة وأنانية، وسيكون سعيدًا إذا لم يرها مرة أخرى. يا له من عالم قبيح!

أيقظه صوت جوليوس من أفكاره حين قال:

"نعم، أعتقد أن كلًا منا يصلح للآخر تمامًا. لقد سمعت أن الفتيات عادة ما يرفضونك في المرة الأولى - أعتقد أنه عرف متفق عليه".

أمسك تومي بذراعه وقال: "رفضت؟ هل تقول رفضت؟".

قال جوليوس: "نعم. ألم أخبرك بهذا؟ لقد قالت لي لا بدون أي سبب مقنع. كما يقول المغول: الأنثى المطلقة، ولكنها ستوافق بعد أن تفكر بشكل كاف. لقد استعجلت الحصول على الرد منها ——"

قاطعه تومي بدون أدب قائلاً:

"ماذا كتبت في هذه الرسالة؟".

سلمه جوليوس الرسالة وهو يقول:

"لا يوجد بالرسالة أي ذكر عن المكان الذي ستذهب إليه، ولكن يمكنك أن تنظر بنفسك إذا لم تكن تصدقني".

كانت الرسالة المكتوبة بخط توبينس الطفولي تقول:

عزيزي جوليوس،

من الأفضل دائمًا توضيح الأمور. لا أعتقد أنه يمكنني التفكير في الزواج قبل أن يتم العثور على تومي. دعنا نترك هذا الأمر حتى ذلك الحين.

المخلصة،

توبينس

أعاد تومي الرسالة إلى جوليوس مرة اخرى، وعيناه تلمعان. كانت مشاعره تخضع لردة فعل حادة، فقد شعر الآن بأن توبينس فتاة نبيلة وغير مهتمة بأمر المال. ألم ترفض جوليوس بدون تردد؟ صحيح أن الرسالة قد حملت دلالات الضعف، ولكنه قد يغفر هذا. كانت الرسالة تبدو كرشوة لـ جوليوس لتحفيزه على بذل المزيد من الجهد من أجل العثور على تومي، ولكنه افترض أنها لم تكن تعني هذا. العزيزة توبينس، لا توجد فتاة في الكون تشبهها. عندما رآها - ولكن انقطعت أفكاره بفعل رعشة عنيفة.

فقال وهو يحاول جمع شتات نفسه:

"كما تقول، لا توجد أية إشارة إلى المكان الذي توجهت إليه، مرحبًا هنري".

توجه الصبي الصغير نحوه ملبيًا نداءه، فأعطاه تومي خمسة شلنات.

قال تومي: "هناك أمر آخر، هل تتذكر ما فعلته السيدة الشابة بالبرقية؟".

شهق هنري وقال: "لقد كورتها وألقتها في المدفأة، وأصدرت هتافًا مثل: لها يا سيدي".

قال تومي: "لقد صورت الأمر ببراعة يا هنري. ها هي الشلنات الخمسة الخاصة بك. هيا يا جوليوس، دعنا نعثر على البرقية".

أسرعا صاعدين الدرج. كانت توبينس قد تركت مفتاح غرفتها في الباب. كانت الغرفة على الحال نفسها التي تركتها عليها، وكان في المدفأة كرة من الورق

مصبوغة باللونين الأبيض والبرتقالي. فرد تومي كرة الورق وقرأ البرقية التي كانت تقول:

تعالي على الفور، منزل موت، إيبوري، يوركشاير، جريت ديفيلوبمنتس

- تومي

نظر كل منهما للآخر في حيرة، وكان جوليوس هو من تحدث أولاً؛ حيث قال:

"أنت لم ترسل هذه البرقية، أليس كذلك؟".

قال تومي: "بالطبع لم أفعل. ما الذي تقصده؟".

قال جوليوس بهدوء: "أعتقد أن الأمر يعني الأسوأ. لقد تمكنوا منها".

قال تومي: "ماذا؟".

قال جوليوس: "أمر مؤكد. لقد وقعوا البرقية باسمك، وقد التقطت الطعم بكل سذاجة".

قال تومي: "يا إلهي، ماذا سنفعل؟".

قال جوليوس: "أن نتحرك، ونذهب وراءها على الفور. لا يوجد وقت لنضيعه. من حسن حظنا أنها لم تأخذ البرقية معها، لأنها لو كانت قد فعلت هذا لم نكن سنتمكن من اقتفاء أثرها، ولكن علينا أن نسرع. أين جدول مواعيد القطارات؟".

انتقلت حماسة جوليوس إلى تومي، فلو كان تومي بمفرده، فإنه كان سيجلس ليفكر في الأمر لنصف الساعة قبل أن يقرر ما سيفعله، ولكن مع وجود جوليوس هيرشايمر، كانت العجلة أمرًا محتمًا.

بعد أن أطلق بعض التمتمة أعطى جوليوس جدول مواعيد القطارات إلى تومي الذي كان قادرًا على فك رموزها، ولكن تومي تركه ليلتقط جدولاً آخر.

قال تومي: "ها نحن ذا. إيبوري، يورك، من محطة كينجز كروس، أو من محطة سانت بانكراس. (لابد أن الصبي قد أخطأ. إنها محطة كينجز كروس

وليست شايرينج كروس) في الثانية عشرة وخمسين دقيقة. هذا هو القطار الذي استقلته. إنها الآن الثانية وعشر دقائق، لقد رحل القطار. القطار التالي في الثالثة والثلث، وهو قطار بطيء للغاية".

قال جوليوس: "ماذا عن السيارة؟".

هز تومي رأسه وقال:

"إذا ما أردت أن ترسلها إلى هناك فلا بأس، ولكن من الأفضل أن نستقل القطار. علينا أن نلتزم الهدوء في جميع الأحوال".

ابتسم جوليوس وقال:

"حسنًا، ولكني أصاب بالرعب كلما فكرت في أن هذه الشابة البريئة معرضة للخطر".

أومأ تومي برأسه شاردًا، فقد كان يفكر، ثم قال بعد لحظات:

"جوليوس، فيم يريدونها في رأيك؟".

قال جوليوس: "ماذا؟ لا أفهم".

قال تومي وهو يقطب حاجبيه مفكرًا:

"ما أعنيه هو أنني لا أعتقد أنهم يرغبون في إيذائها، بل سيحتجزونها رهينة. إنها غير معرضة لخطر وشيك، لأننا إن توصلنا لأية معلومات، فإنها ستكون مفيدة بالنسبة لهم. ماداموا يحتجزونها، فستكون أيدينا مقيدة. هل فهمت؟".

قال جوليوس وهو يفكر بعمق: "بالطبع. هذا صحيح".

تابع تومي حديثه قائلاً: "هذا إلى جانب أنني أثق كثيرًا بقدرات توبينس".

كانت الرحلة بالقطار مرهقة، فقد توقف في الكثير من المحطات، وكانت العربات مزدحمة. واضطرا إلى تغيير القطارات مرتين، مرة في دونكاستر ومرة في محطة صغيرة. كانت محطة إيبوري خالية من الركاب وكان بها حمال واحد توجه نحوه تومي قائلاً:

"هل يمكنك أن تخبرني بالطريق إلى منزل موت؟".

قال الحمال: "منزل موت؟ إنه بعيد عن هنا. إنه المنزل الكبير الذي يطل على البحر".

نظر إليه تومي بوقاحة، وبعد أن استمعا إلى توجيهات الحمال الدقيقة والمحيرة، استعدا لمغادرة المحطة. كانت السماء قد بدأت تمطر، فرفعا ياقتي معطفيهما وبينما كانا يسيران في قارعة الطريق توقف تومي فجأة وقال: "انتظر"، ثم عاد مسرعًا إلى المحطة وبدأ التحدث مع الحمال مرة أخرى، قائلاً: "اسمع. هل تتذكر وصول امرأة شابة في قطار سابق، قطار الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق قادمة من لندن؟ ربما تكون قد سألتك عن منزل موت".

وصف توبينس للحمال بأقصى ما مكنته ذاكرته، ولكن الحمال هز رأسه نفيا. كان هناك الكثير من الركاب الذين وصلوا في هذا القطار. لم يكن بإمكانه أن يتذكر امرأة شابة واحدة بعينها، ولكنه كان واثقًا من أن لا أحد قد سأله عن الطريق لمنزل موت.

عاد تومي لـ جوليوس وأخبره بما حدث. كان اليأس يتملكه بشدة. كان يشعر بأنهما لن ينجحا في تحقيق ما حضرا من أجله. كان العدو متقدمًا عليهما بثلاث ساعات كاملة. كانت الساعات الثلاث أكثر من كافية بالنسبة للسيد براون، فلم يكن ليتجاهل احتمال أن يتم العثور على البرقية.

بدا أن الطريق لا نهاية له. كانا قد استدارا حول ناصية خطأ وسارا لنصف ميل تقريبًا بعيدًا عن الوجهة التي يرغبانها. كانت الساعة قد تجاوزت السابعة عندما أخبرهما صبي صغير بأن منزل موت يقع على ناصية الشارع التالي.

كانت بوابة المنزل الصدئة تهتز بشكل كئيب وهي معلقة في مفصلاتها. كان الطريق المؤدي للمنزل مغطى بطبقة سميكة من أوراق الأشجار. كان هناك شيء ما بخصوص المنزل، أرسل قشعريرة باردة في جسديهما. سارا في الطريق الخالي المؤدي للمنزل، وكتمت أوراق الأشجار وقع أقدامهما. كانت الشمس قد غابت، وكان الأمر يشبه السير في عالم الأشباح. كانت أغصان الأشجار فوق

رأسيهما تتصادم وتتصدع بصوت حزين، ومن وقت لآخر كانت أوراق الأشجار المبللة تسقط في صمت إلى الأسفل، وتفاجئهما بملمسها البارد على وجنتيهما.

عندما التفا حول أحد أركان الطريق، ظهر لهما المنزل الذي بدا لهما فارغًا ومهجورًا. كانت النوافذ مغلقة، وكانت الأعشاب تنمو على الدرج المؤدي للمنزل. هل كان هذا المنزل هو المكان المنعزل الذي استدرجت إليه توبينس؟ من الصعب تصديق أن هناك أقدامًا آدمية قد خطت على هذا الطريق منذ أشهر مضت.

قرع جوليوس جرس الباب الصدئ، فتصاعد صدى رنين الجرس في الفراغ الكبير داخل المنزل. لم يفتح أحد الباب. قرعا الجرس عدة مرات - ولكن لم تكن هناك أية دلالة على الحياة داخل المنزل. دارا بعد ذلك حول المنزل، وكان الصمت يخيم على المكان والنوافذ مغلقة. إذا ما صدقا ما تخبرهما به أعينهما لاقتنعا بأن المنزل خال.

قال جوليوس: "لا يمكننا فعل شيء".

عادا أدراجهما مرة أخرى إلى البوابة، فقال الأمريكي الشاب:

"يجب أن تكون هناك قرية ما بالقرب من هنا. يمكننا أن نستفسر عن المنزل. ربما كان هناك من يعلم أي شيء عن المكان، وما إذا كان هناك أي شخص أقام فيه مؤخرًا".

قال تومي: "نعم، إنها فكرة جيدة".

سارا على الطريق حتى وصلا إلى قرية صغيرة. قابلا في أحد شوارع القرية عاملاً يسير مؤرجحًا حقيبة أدواته، فأوقفه تومي سائلاً، فقال الرجل:

"منزل موت؟ لا يوجد من يقطنه. لم يقطنه أحد منذ سنوات. إن السيدة سويني تملك مفتاحه إذا ما أردت دخوله - منزلها بجانب مكتب البريد".

شكره تومي، وسرعان ما وجدا مكتب البريد، الذي كان عبارة أيضًا عن متجر للحلوى والسلع المتنوعة، فطرقا باب الكوخ المجاور. فتحت لهما الباب امرأة نظيفة ومفعمة بالصحة، وسلمتهما مفتاح منزل موت على الفور وهي تقول:

"ولكني لا أعتقد أن هذا المنزل من النوعية التي قد تصلح لكما يا سيدي، إنه

في حاجة ماسة للكثير من الإصلاحات. السقف يسرّب الماء، وسيكون بحاجة إلى الكثير من المال ليصلح للسكنى".

قال تومي مبتهجًا: "شكرًا جزيلاً. أعتقد أنه سيكون منزلاً سيئًا، ولكن المنازل أصبحت نادرة هذه الأيام".

قالت السيدة بصدق: "نعم، إنها كذلك. إن ابنتي وزوجها ظلا يبحثان عن كوخ يناسبهما لفترة طويلة. كل هذا بسبب الحرب، إنها تخل بالكثير من الموازين. ولكن اعذرني يا سيدي، سيكون المنزل مظلمًا للغاية ولن تتمكن من رؤية الكثير بداخله. أليس من الأفضل أن تنتظر للغد؟".

قال تومي: "لا بأس. سنلقي نظرة عليه الليلة. لقد مررنا من هنا من قبل ولكننا ضللنا الطريق، ما أفضل مكان لنقضي فيه ليلتنا بالقرب من هنا؟".

بدت السيدة سويني غير واثقة وهي تقول:

"هناك فندق يوركشاير أرمز، ولكنه ليس بالمكان الراقي الذي يناسب نبيلين مثلكما".

قال تومي: "سيناسبنا كثيرًا، شكرًا لك. بالمناسبة، هل مرت عليك فتاة شابة طلبت منك مفتاح المنزل اليوم؟".

هزت المرأة رأسها نفيًا وقالت:

"لم يأت أحد من أجل هذا المنزل منذ وقت طويل".

قال تومي: "شكرًا جزيلاً لك".

عادا أدراجهما إلى منزل موت. بعدما فتحا باب المنزل الأمامي بصعوبة كبيرة، أشعل جوليوس عود ثقاب وفحص أرضية المنزل باهتمام، ثم هز رأسه وقال:

"يمكنني أن أقسم بأنه لم يمر أحد من هنا. انظر إلى الغبار. هناك طبقة سميكة منه، ولا توجد أية آثار أقدام".

بدآ في التجول في أجراء المنزل المقفر التي كانت على الوضع ذاته، طبقات سميكة من الغبار لا توجد عليها أية آثار.

قال جوليوس: "لا يمكنني أن أصدق أن توبينس قد دخلت هذا المنزل".

قال تومي: "لا بد أنها فعلت".

هز جوليوس رأسه بدون أن يعلق.

قال تومي: "سنعود لفحصه مرة أخرى غدًا، ربما أمكننا رؤية المزيد في ضوء الشمس".

في اليوم التالي، بحثا في أرجاء المنزل مرة أخرى، واستنتجا مترددين أن المنزل لم يدخله أي شخص منذ وقت طويل. كانا على وشك مغادرة القرية عندما منعهما اكتشاف تومي المحظوظ عن ذلك، فعندما كانا يعودان أدراجهما إلى البوابة الرئيسية للمنزل، توقف تومي فجأة وهو يصيح، وانحنى ليلتقط شيئًا ما بين أوراق الأشجار المتناثرة على الطريق. لقد كان حلية ذهبية صغيرة.

قال تومي: "هذه الحلية تعود لـ توبينس".

قال جوليوس "هل أنت واثق من هذا؟".

قال تومي: "واثق تمامًا. لطالما رأيتها وهي ترتديها".

سحب جوليوس نفسًا عميقًا وقال:

"أعتقد أن هذا يحسم الأمر. لقد حضرت توبينس إلى هنا. سنجعل من هذا المكان مقر قيادتنا، وسنفتح أبواب الجحيم على هذه القرية حتى نجدها. لابد أن هناك شخصًا ما قد رآها".

بمجرد أن بدأت مهمتهما، كان تومي وجوليوس يعملان معًا ومتفرقين ولكن النتيجة كانت واحدة. لم ير أحد فتاة تحمل أوصاف توبينس. كانا يشعران بالحيرة - ولكنهما لم يفقدا الأمل. في النهاية غيرا من طريقة بحثهما. من المؤكد أن توبينس لم تبق لوقت طويل في الحي الذي يقع به منزل موت، مما يشير إلى أنه لابد من أنها قد تمت السيطرة عليها وأخذها داخل سيارة إلى مكان آخر. جددا من أسلوب استفساراتهما بناءً على ذلك. هل رأى أحد ما سيارة تقف أمام منزل موت في ذلك اليوم؟ ولكن لم تكلل جهودهما بالنجاح.

أرسل جوليوس برقية إلى المدينة يطلب فيها إرسال سيارته، وبدأ في مسح

الحي يوميًا دون كلل. كانت هناك سيارة ليموزين رمادية اللون كانا قد علقا عليها آمالًا كبيرًا وتبعاها حتى منزل هاروجايت، واتضح فيما بعد أن المكان مملوك لسيدة معروفة للغاية في تلك الأنحاء.

كانا يبدآن سعيهما يوميًا دون كلل. كان جوليوس مثل كلب الصيد، فقد كان يتبع أصغر الخيوط التي قد تدله على مكان توبينس. كان قد تتبع جميع السيارات التي مرت بالقرية في ذلك اليوم، حتى إنه كان يقتحم المنازل الموجودة بالقرية وكان يطلب من ملاكها أن يسمحوا له بفحص سياراتهم. كانت اعتذاراته تشبه إلى حد كبير أساليبه، ونادرًا ما كان يواجه مقاومة من ضحاياه، ولكن مرت الأيام دون أن تلوح بادرة أمل بإيجاد توبينس. لقد كانت خطة الاختطاف معدة جيدًا بحيث بدا أن الفتاة قد اختفت بلا أثر.

كان هناك أمر آخر يشغل عقل تومي، فسأل جوليوس في صباح أحد الأيام بينما كانا يجلسان متواجهين أمام مائدة الإفطار: "هل تعلم كم من الوقت ظللنا هنا؟ حوالي أسبوع، ولم نقترب من إيجاد توبينس، إن الأحد القادم هو يوم التاسع والعشرين".

قال جوليوس: "تبًا. لقد نسيت كل شيء عن يوم التاسع والعشرين. لم أكن أفكر في أي شيء سوى توبينس".

قال تومي: "وأنا أيضًا. ولكني على الأقل لم أنس أمر يوم التاسع والعشرين، ولكن يبدو أنه لا يهمني كثيرًا بالمقارنة بالعثور على توبينس. اليوم هو الثالث والعشرون، ولم يعد أمامنا الكثير من الوقت. إذا ما كنا سنتمكن من العثور عليها، فيجب أن نفعل ذلك قبل يوم التاسع والعشرين - إن حياتها لن تساوي شيئًا بعد هذا التاريخ. لن تكون هناك حاجة للاحتفاظ برهينة بعد ذلك التاريخ. لقد بدأت أعتقد أننا قد ارتكبنا خطأ فظيعًا بالطريقة التي اتبعناها في محاولة العثور عليها. لقد أضعنا الكثير من الوقت بدون أن نتحرك قيد أنملة".

قال جوليوس: "أتفق معك على هذا. لقد تصرفنا كزوج من الحمقى حاولا أن يحلا مشكلة أكبر منهما. سأتوقف عن التصرف كأحمق على الفور".

قال تومي: "ماذا تعني؟".

قال جوليوس: "سأخبرك. سأفعل ما كان علينا فعله منذ أسبوع مضى. سأعود إلى لندن وأخبر الشرطة بكل شيء عن هذه القضية. لقد تخيلنا أنفسنا محققين. محققين! لقد كان ما فعلناه حتى الآن قمة الحمق. لقد اكتفيت من هذا الأمر. سأبلغ اسكوتلانديارد بكل شيء".

قال تومي ببطء: "أنت محق. أسأل الله أن نكون على المسار الصحيح".

قال جوليوس: "أن تصل متأخرًا أفضل من ألا تصل على الإطلاق. إننا نبدو كزوج من الأطفال يلعبان حول شجرة التوت، أما الآن، فسأذهب مباشرة إلى اسكوتلانديارد وأطلب منهم أن يوجهوني للطريق الذي يجب أن أسلكه. أعتقد أن المحترفين دائمًا ما يتفوقون على المبتدئين في النهاية. هل ستأتي معي؟".

هز تومي رأسه، وقال:

"لا حاجة لهذا. أحدنا يكفي. ربما سأظل هنا وأتقصى الأمر لمزيد من الوقت. ربما يظهر أمر ما. من يعلم!".

قال جوليوس: "لا بأس. حسنًا، إلى اللقاء. سأعود في القريب ومعي عدد من المحققين، وسأطلب منهم أن يستخدموا أفضل مهاراتهم".

ولكن لم تسر الأحداث كما خطط لها جوليوس، فقد تلقى تومي في وقت لاحق من اليوم برقية تقول:

تعال إلى فندق مانشستر ميدلاند. أخبار مهمة - جوليوس.

في السابعة والنصف مساءً، كان تومي يخرج من أحد القطارات الريفية البطيئة، وكان جوليوس بانتظاره على رصيف المحطة.

قال جوليوس: "اعتقدت أنك ستستقل القطار عندما تصل برقيتي".

أمسك تومي بذراعه وقال: "ما الأمر؟ هل وجدت توبينس؟".

هز جوليوس رأسه نفيًا وقال:

"لا، ولكني وجدت هذه البرقية تنتظرني في لندن بمجرد وصولي".

أعطى جوليوس البرقية إلى تومي الذي اتسعت عيناه وهو يقرأ التالي:

لقد وجدت جاين فين. تعال إلى فندق مانشستر ميدلاند على الفور - بيل هارتون.

أخذ جوليوس البرقية مرة أخرى وطواها ثم قال:

"أمر غريب. كنت أعتقد أن هذا المحامي قد تخلى عن القضية".

التاسع عشر

جاين فين

قال جوليوس وهو يوجه تومي إلى خارج المحطة:

"لقد وصلت بالقطار منذ نصف الساعة. اعتقدت أن البرقية ستصلك قبل أن أغادر لندن، فأرسلت برقية إلى السير جايمس الذي حجز لنا الغرف وسيقابلنا على العشاء في الثامنة مساءً".

سأله تومي بفضول: "ما الذي جعلك تعتقد أن السير جايمس سيتخلى عن القضية؟".

رد عليه جوليوس باقتضاب: "ما قاله بنفسه. إنه رجل كتوم للغاية. مثله مثل غيره من المحامين، لم يكن ليورط نفسه في الأمر إلا إذا كان واثقًا من أنه سيحقق نتائج مبهرة".

قال تومي مفكرًا: "أنا أتساءل".

التفت إليه جوليوس وقال: "عم تتساءل؟".

قال تومي: "عما إذا كان هذا هو السبب الحقيقي".

قال جوليوس: "لا شك في هذا".

هز تومي رأسه في عدم اقتناع.

قابلهما السير جايمس في تمام الثامنة، فقدم جوليوس تومي له، فتصافحا بحرارة وقال السير جايمس:

"لقد أسعدني لقاؤك يا سيد بيريسفورد. لقد سمعت من الآنسة توبينس الكثير عنك" - ثم ابتسم وتابع قائلاً: "يبدو الأمر كما لو كنت أعرفك منذ زمن طويل".

قال تومي وهو يبتسم: "شكرًا جزيلاً لك يا سيدي". كان تومي يتفحص المحامي العظيم بحماسة، فقد كان مثل توبينس، يمكنه الشعور بجاذبية الآخرين. كان السير جايمس يذكره بالسيد كارتر. على الرغم من أن الرجلين لا يشبهان بعضهما من حيث الشكل، فإنهما يتركان الانطباع ذاته. تحت المظهر المرهق لأحدهما والتحفظ المهني للآخر، كان يرقد أسلوب التفكير ذاته - تفكير حاد مثل السيف.

في الوقت ذاته، كان تومي يدرك أن السير جايمس يتفحصه بدقة هو أيضًا. عندما كانت عينا المحامي تقعان عليه، كان تومي يشعر بأنه يقرأ أفكاره مثل الكتاب المفتوح. لم يتمكن من منع نفسه من التفكير في حكمه النهائي عليه، ولكن لم يكن هناك مجال لمعرفة هذا. كان السير جايمس يحصل على كل شيء، ولكنه لا يفصح إلا عما يختار الإفصاح عنه فقط - حدث أمر ما يدل على هذا على الفور.

بمجرد أن انتهى الترحيب، اندفع جوليوس طارحًا سيلاً من الأسئلة على الفور. كيف تمكن السير جايمس من العثور على الفتاة؟ ولمَ لم يخبرهم بأنه سيواصل العمل على القضية؟ وغيرها.

داعب السير جايمس ذقنه وابتسم قائلاً:

"بالضبط، بالضبط. حسنًا، لقد عثرت عليها، وهذا أمر رائع في حد ذاته، أليس كذلك؟ إنه أمر رائع".

قال جوليوس: "بالطبع، ولكن كيف تمكنت من العثور عليها؟ لقد اعتقدت أنا والآنسة توبينس أنك قد تخليت عن الأمر".

رمقه المحامي بنظرة حادة ثم واصل مداعبة ذقنه وقال:

"آه، لقد اعتقدت هذا، أليس كذلك؟ هل اعتقدت هذا حقًا؟ يا عزيزي".

قال جوليوس: "ولكني أعتقد الآن أننا كنا مخطئين".

قال السير جايمس: "حسنًا، لا أعلم إذا ما كان يجدر بي قول هذا، ولكني أعتقد أنه من حسن حظنا جميعًا أننا تمكنا من العثور على الفتاة".

قال جوليوس وقد انتقلت أفكاره إلى مسار آخر:

"ولكن، أين هي؟ لقد اعتقدت أنك ستحضرها معك".

قال السير جايمس باقتضاب: "لن يكون هذا ممكنًا".

قال جوليوس: "لماذا؟".

قال السير جايمس: "لأن الفتاة وقعت ضحية حادث سير، وأصيب ببعض الإصابات الطفيفة في رأسها. تم اصطحابها إلى المستشفى، وعندما أفاقت قالت إن اسمها جاين فين. عندما سمعت هذا، نقلتها إلى منزل أحد الأطباء - أحد أصدقائي، وأرسلت لك البرقية على الفور. بعد ذلك، فقدت وعيها مرة أخرى ولم تتحدث منذ ذلك الحين".

قال جوليوس: "إنها لم تصب بإصابات خطرة، أليس كذلك؟".

قال السير جايمس: "بعض الجروح والكدمات - من وجهة النظر الطبية لا يمكن لهذه الإصابات الطفيفة أن تتسبب في مثل هذه الحالة. يمكن أن تكون حالتها الحالية عبارة عن صدمة ذهنية جراء استعادة ذاكرتها".

صاح جوليوس بانفعال: "هل ستستعيد ذاكرتها؟".

طرق السير جايمس على الطاولة بنفاد صبر وقال:

"لا شك في هذا يا سيد هيرشايمر، فقد كانت قادرة على تذكر اسمها الحقيقي. كنت أعتقد أنك فهمت هذه النقطة".

قال تومي: "وهل كنت هنا بالمصادفة؟ لا يمكنني تصديق هذا".

ولكن السير جايمس كان متحفظًا لدرجة أنه لم يكن لأحد أن يتمكن من استدراجه ليبوح بما لا يرغب في البوح به، فقال باقتضاب:

"إن للمصادفات طرقًا غريبة".

إلا أن تومي تأكد مما كان يرتاب فيه، لم يكن وجود السير جايمس في مانشستر من باب المصادفة. لم يكن السير جايمس قد تخلى عن التحقيق في القضية، كما اعتقد جوليوس، بل ولقد تمكن بطرقه الخاصة من أن يتتبع أثر الفتاة المفقودة. الأمر الذي حير تومي هو، ما السبب في كل هذه السرية؟ استنتج تومي أن هذا كان من نقاط ضعف العقول القانونية.

تحدث جوليوس قائلاً: "بعد العشاء، أرغب في الذهاب ورؤية جاين على الفور".

قال السير جايمس: "أخشى أن هذا ليس ممكنًا. لا أعتقد أن الطبيب سيسمح بوجود زوار في فترة الليل. أقترح أن نذهب صباح الغد في العاشرة صباحًا".

احمر وجه جوليوس. لطالما شعر بأن السير جايمس يعامله بعدوانية، كان الأمر عبارة عن صراع بين شخصيتين قياديتين.

قال جوليوس: "ولكني أعتقد أنني سأذهب إلى هناك الليلة وأرى إذا ما كان بمقدوري أن أجعلهم يتجاهلون قواعدهم السخيفة".

قال السير جايمس: "سيذهب جهدك هباءً يا سيد هيرشايمر".

كان لكلمات السير جايمس وقع كالصاعقة، فنظر تومي إلى جوليوس الذي كان عصبيًا ومنفعلاً، وكانت يده التي رفعت كأس الشراب نحو فمه ترتعش قليلاً، وكان ينظر للسير جايمس بتحد. للحظات، بدا أن مشاعر العداوة بينهما ستنفجر، ولكن في النهاية نظر جوليوس لأسفل شاعرًا بالهزيمة، وقال:

"أعتقد أنك القائد في الوقت الحالي".

قال السير جايمس: "شكرًا لك. سنتقابل في العاشرة صباحًا إذن؟". ثم التفت إلى تومي وقال: "يجب أن أقر لك يا سيد بيريسفورد، بأني قد فوجئت بوجودك هنا الليلة، فإن آخر ما سمعته عنك من صديقيك أنهما كانا قلقين للغاية على

سلامتك. لم يكونا قد سمعا شيئًا عنك منذ أيام، وكانت الآنسة توبينس تعتقد أنك قد واجهت بعض المشكلات".

ابتسم تومي وقال: "لقد واجهت بعضها بالفعل يا سيدي. لم أواجه أية مواقف في حياتي أصعب من التي واجهتها خلال تلك الأيام".

بناءً على طلب السير جايمس، بدأ تومي يقص عليه أحداث مغامرته باختصار، فنظر له السير جايمس باهتمام عندما انتهى من روايته وقال:

"لقد تمكنت من إخراج نفسك من ذلك الموقف العصيب ببراعة. هنيئًا لك. لقد أظهرت قدرًا كبيرًا من البراعة وأديت دورك بتمكن شديد".

احمر وجه تومي خجلاً بفعل هذا الإطراء، وقال:

"لم أكن لأتمكن من الفرار لولا تلك الفتاة يا سيدي".

ابتسم السير جايمس قليلاً ثم قال: "لقد كنت محظوظًا لأنها فكرت في مساعدتك"، كان تومي على وشك الاعتراض عندما تابع السير جايمس قائلاً: "لا شك في أنها أحد أفراد العصابة، أليس كذلك؟".

قال تومي: "لا أعتقد هذا يا سيدي. أعتقد أنهم يحتجزونها هناك بالقوة، ولكن الطريقة التي كانت تتعامل بها لم تتفق مع هذه الفرضية. لقد عادت إليهم على الرغم من أنها كانت قادرة على الهرب".

أومأ السير جايمس برأسه وقال:

"ماذا قالت لك؟ شيئًا ما عن رغبتها في الذهاب إلى مارجريت، أليس كذلك؟".

قال تومي: "نعم يا سيدي. أعتقد أنها كانت تقصد السيدة فانديماير".

قال السير جايمس: "لطالما كانت تُعرف باسم ريتا فانديماير. إن جميع أصدقائها يعرفونها باسم ريتا، ولكني أعتقد أن الفتاة كانت معتادة مناداتها باسمها الحقيقي. في تلك اللحظة التي كانت تصرخ باسمها، كانت السيدة فانديماير إما قد ماتت أو كانت تحتضر. هناك أمر أو اثنان يصدمانني بغموضهما - تغير أسلوب تعاملهم معك على سبيل المثال. بالمناسبة، هل اقتحمت الشرطة المنزل؟".

قال تومي: "نعم يا سيدي ولكنهم كانوا قد لاذوا بالفرار".

قال السير جايمس باقتضاب: "أمر طبيعي".

قال تومي: "لم تجد الشرطة أي خيط لتتبعه".

طرق المحامي على الطاولة وهو يفكر، وقال:

"عجبًا ــــ"

كان هناك شيء في صوته جعل تومي ينظر إليه. هل أدرك هذا الرجل شيئًا لم يتمكنوا من إدراكه؟ فقال تومي بعفوية: "كنت أتمنى وجودك هناك يا سيدي، لتفحص المنزل بنفسك".

قال السير جايمس بهدوء:

"كنت أتمنى هذا أنا أيضًا"، ثم صمت قليلاً وعاد ليقول: "منذ فرارك، ماذا كنت تفعل؟".

حدق به تومي للحظات، ثم أدرك أنه لم يكن يعلم، فقال له:

"لقد نسيت أنك لا تعلم شيئًا عما حل بـ توبينس"، كان قد نسي أن يخبر السير جايمس بما حدث بسبب القلق الشديد وانفعال العثور على جاين فين.

وضع المحامي الشوكة والسكين على الطاولة بحدة وقال:

"هل حدث شيء للآنسة توبينس؟".

قال جوليوس: "لقد اختفت".

قال السير جايمس: "متى؟".

قال جوليوس: "منذ أسبوع".

قال السير جايمس: "كيف؟".

كان سؤال السير جايمس مباشرًا، فأخبره كل من جوليوس وتومي بما حدث خلال الأسبوع الماضي.

دخل السير جايمس صلب الموضوع مباشرة قائلاً:

"برقية موقعة باسمك؟ إنهم يعرفون الكثير عنكما. إنهم لم يعلموا مقدار المعلومات التي حصلت عليها من هذا المنزل. لقد اختطفوا الآنسة توبينس كرد فعل على فرارك، وعند الضرورة قد يمنعونك من الكلام مهددين بإيذائها".

أومأ تومي برأسه وقال: "هذا ما اعتقدته يا سيدي".

نظر له السير جايمس بحدة وقال:

"هل فكرت في هذا؟ جيد. الأمر الغريب هو أنهم لم يكونوا يعلمون أي شيء عنك عندما قبضوا عليك. هل أنت واثق من أنك لم تبح بهويتك بأية حال من الأحوال؟".

هز تومي رأسه نافيًا، فقال جوليوس: "هذا صحيح، لهذا أعتقد أن هناك من أخبرهم - ولم يفعل هذا قبل عصر يوم الأحد".

قال السير جايمس: "ولكن من؟".

قال جوليوس: "لابد من أنه السيد براون الخارق بلا شك".

كانت هناك نبرة سخرية بادية في صوت الأمريكي، الأمر الذي جعل السير جايمس ينظر له بحدة ويقول: "أنت لا تعتقد بوجود السيد براون يا سيد هيرشايمر، أليس كذلك؟".

قال جوليوس مؤكدًا: "لا يا سيدي، لا أعتقد بوجوده. ليس لدرجة كبيرة. أعتقد أنه رئيس صوري - مجرد اسم مخيف للأطفال. أعتقد أن الرئيس الحقيقي لكل ما يحدث هو ذلك الروسي كرامينين. أعتقد أنه قادر على إشعال الثورات في ثلاثة بلدان في الوقت ذاته إن رغب في هذا. ومن المحتمل أن يكون ويتنجتون رئيس الفرع الإنجليزي".

قال السير جايمس باقتضاب: "لا أتفق معك في هذا. السيد براون موجود". ثم التفت إلى تومي وقال: "هل لاحظت أين تم تسليم البرقية إلى توبينس؟".

قال تومي: "لا يا سيدي".

قال السير جايمس: "هل أحضرتها معك؟".

قال تومي: "إنها في الأعلى ضمن أشيائي".

قال السير جايمس: "أرغب في الاطلاع عليها. ليس الآن. لقد أضعتما أسبوعًا بأكمله" - أحنى تومي رأسه - "فلن يهم لو أضعنا يومًا آخر أو اثنين. سنتولى أمر الآنسة جاين فين أولاً، ثم سنحاول فك أسر الآنسة توبينس. لا أعتقد أنها معرضة لخطر محدق، طالما أنهم لم يعلموا أننا وجدنا الآنسة جاين فين، وأنها استعادت ذاكرتها. يجب أن نحافظ على عدم إفشاء هذا السر مهما كلفنا الأمر. هل فهمتما؟".

أومأ الآخران برأسيهما، وبعد أن اتفقا على كيفية اللقاء في الصباح التالي، غادرهما المحامي العظيم.

في العاشرة من صباح اليوم التالي، كان الشابان يقفان في المكان الذي اتفقا عليه مع السير جايمس، الذي لحق بهما على عتبة الباب. كان السير جايمس وحده من لا تظهر عليه أمارات الانفعال، حيث قدمهما إلى الطبيب قائلاً:

"السيد هيرشايمر - السيد بيريسفورد - الطبيب رويلانس. كيف حال مريضتنا؟".

قال الطبيب: "بخير. لا فكرة لديها عن الفترة التي فقدت فيها الذاكرة، فقد سألتنا هذا الصباح عن عدد الركاب الذين تم إنقاذهم من على متن السفينة *لوزيتانيا*، وهل تم نشر خبر غرقها بالصحف بعد؟ هذا، بلا شك، ما توقعناه. ولكن يبدو أن هناك ما يشغل بالها".

قال السير جايمس: "أعتقد أنه يمكننا أن نهدئ من روعها. هل يمكننا أن نصعد لها؟".

قال الطبيب: "بالطبع".

كان قلب تومي يدق بسرعة هائلة وهو يتبع الطبيب إلى الطابق العلوي. أخيرًا، جاين فين. الفتاة الغامضة التي بحثوا عنها طويلاً، جاين فين المراوغة. لم يكن يتوقع النجاح بهذه الطريقة. هنا في هذا المنزل، وقد استعادت ذاكرتها بأعجوبة، ترقد الفتاة التي تمسك بمستقبل إنجلترا بين يديها. ظهرت ابتسامة خفيفة على شفتي تومي. آه لو كانت توبينس هنا بجانبه لتشاركه لحظة النصر ونجاح مغامرتهما المشتركة. نحى فكرة وجود توبينس جانبًا، وكانت ثقته

في السير جايمس تتزايد، فقد كان هو الرجل الذي سيتمكن، بدون شك، من العثور على مكان توبينس. في الوقت ذاته، جاين فين. راوده فجأة شعور بالخوف الشديد، ماذا لو وجدوها ميتة... قتلها السيد براون؟

في اللحظة التالية كان يسخر من أفكاره المبالغ فيها، فقد فتح الطبيب باب الغرفة ودخلوا جميعًا. على الفراش الأبيض، والضمادات تحيط برأسها، كانت ترقد الفتاة. للحظة، بدا المشهد بأكمله ضربًا من الخيال، فقد كان كما لو أنه أعد بعناية ليظهر بهذا الشكل.

نقلت الفتاة بصرها بينهم بعينين حائرتين، وكان السير جايمس هو أول من تحدث قائلاً:

"آنسة فين. هذا ابن خالك السيد جوليوس بي. هيرشايمر".

اصطبغ وجه الفتاة باللون الأحمر عندما تقدم منها جوليوس وأمسك يدها وقال:

"كيف حالك يا ابنة عمتي جاين؟".

لم تخفَ على أذني تومي الارتعاش الذي بدا في صوته.

سألته الفتاة: "هل أنت حقًا ابن خالي هيرام؟".

كان صوتها، الذي يحمل اللكنة الغربية، رقيقًا ورائعًا. بدا صوتها مألوفًا على أذني تومي بشكل غريب، ولكنه تجاهل هذا الانطباع قدر الإمكان.

قال جوليوس: "نعم".

تابعت الفتاة حديثها بصوتها الرقيق قائلة:

"لقد كنا نقرأ عن خالي هيرام في الصحف، ولكني لم أتخيل أن أقابلك في أحد الأيام. لقد اعتقدت والدتي أن خالي هيرام لن يسامحها أبدًا".

أقر جوليوس قائلاً: "لم يكن أبي ليسامحها بالفعل، ولكني أعتقد أن الجيل الجديد مختلف. لا حاجة بنا إلى استمرار العداوة بين أفراد العائلة الواحدة. أول ما تبادر إلى ذهني بعد انتهاء الحرب هو أن آتي إلى هنا للعثور عليك".

امتقع وجه الفتاة قليلاً وقالت:

"لقد أخبروني ببعض الأمور الغريبة: أني فقدت ذاكرتي، وأن هناك أعوامًا قد مرت لا أعلم عنها شيئًا - أعوامًا ضاعت من حياتي".

قال جوليوس: "ألم تلاحظي هذا بنفسك؟".

اتسعت عينا الفتاة وقالت: "لا، يبدو لي أنه لم يمر وقت طويل منذ تم وضعنا في زوارق النجاة. ما زلت أرى ما حدث كما لو كان يحدث أمامي الآن"، ثم أغمضت عينيها وهي ترتجف.

نظر جوليوس إلى السير جايمس الذي أومأ له، فقال جوليوس:

"لا تقلقي. لا يوجد ما يستحق القلق. اسمعي يا جاين، هناك أمر ما نرغب في معرفته. كان هناك رجل على متن السفينة كان يحمل وثائق مهمة معه، وهناك رجال مهمون في هذه الدولة يعتقدون أنه أعطاك هذه الوثائق. هل هذا صحيح؟".

ترددت الفتاة وبصرها يتنقل بين الرجلين الآخرين، ففهم جوليوس ما تقصده وقال:

"هذا السيد بيريسفورد، فوضته الحكومة البريطانية بالعثور على الوثائق وإعادتها. وهذا السير جايمس بيل إدجارتون، عضو البرلمان، وأحد كبار رجال الحكومة. يعود الفضل له في العثور عليكِ أخيرًا. هل يمكنك أن تقصي علينا ما حدث؟ هل أعطاك دانفرز الوثائق؟".

قالت جاين: "نعم، قال إن فرصة وصولها لبر الأمان أكبر معي، لأنهم كانوا يجلون النساء والأطفال أولاً من على ظهر السفينة".

قال السير جايمس: "كما اعتقدنا تمامًا".

قالت جاين: "لقد قال إنها وثائق غاية في الأهمية - وأنها ستصنع فارقًا كبيرًا في صالح قوات الحلفاء، ولكن إذا كان هذا منذ وقت طويل، وأن الحرب انتهت، فما أهميتها في الوقت الحالي؟".

قال جوليوس: "أعتقد أن التاريخ يعيد نفسه يا جاين. في البداية كانت هناك رغبة ملحة للعثور على الوثائق، ولكن انتهت هذه الرغبة، ولكن الآن، عادت تلك الرغبة من جديد - ولكن لأسباب أخرى. هل يمكنك أن تسلميها لنا الآن؟".

قالت جاين: "لا يمكنني هذا".

قال جوليوس: "ماذا؟".

قالت جاين: "إنها ليست معي".

قال جوليوس: "ليست معك".

قالت جاين: "لا، لقد خبأتها".

قال جوليوس: "خبأتها؟".

قالت جاين: "نعم، كنت أشعر بالخوف. كنت أشعر بأن هناك من يراقبني، فشعرت بالذعر"، ثم وضعت يدها على رأسها وتابعت قائلة: "إن هذا آخر ما أتذكره قبل الاستيقاظ هنا في هذا المستشفى..."

قال السير جايمس بنبرة صوته الحادة:

"أكملي. ما الذي تتذكرينه؟".

التفتت إليه في طاعة وقالت:

"كان هذا في هوليهيد. ذهبت إلى هناك، لا أتذكر لماذا..."

قال السير جايمس: "هذا لا يهم، أكملي".

قالت جاين: "في خضم الزحام الشديد على رصيف المرفأ، تسللت مبتعدة. لم يكن هناك من يراني. ركبت سيارة، وأخبرت السائق بأن يأخذني خارج المدينة. نظرت إلى الخلف عندما خرجنا إلى الطريق السريع فوجدت أنه لم يكن هناك أحد يتبعنا. رأيت طريقًا ضيقًا على جانب الطريق، فأخبرت السائق بأن ينتظرني".

توقفت للحظة ثم تابعت قائلة:

"قادني الطريق الجانبي إلى جرف صخري، يهبط وصولاً إلى البحر تحيطه الشجيرات الصفراء من الجانبين - كانت تبدو مثل ألسنة اللهب الذهبية. نظرت حولي، ولم يكن هناك أي شخص على مرمى البصر، ولكن على مستوى بصري، رأيت فتحة بين الصخور، كانت فتحة صغيرة تمكنت بالكاد من أن أدخل يدي فيها، ولكنها كانت عميقة. أخذت لفافة القماش المشمع من حول رقبتي وأدخلتها

في عمق الفتحة قدر إمكاني. ثم قطعت بعضًا من الشجيرات - ووخزتني بشدة - ووضعتها داخل الفتحة بحيث لا يمكن لأحد أن يتصور وجود فتحة في هذا المكان. ثم علمت المكان بعناية في ذاكرتي، حتى أتمكن من العودة إليه مرة أخرى. كانت هناك صخرة ضخمة غريبة الشكل في هذا المكان - تشبه كلبًا جالسًا يستعطف صاحبه. ثم عدت أدراجي على الطريق ذاته إلى حيث كانت تنتظرني السيارة، وعدنا إلى المدينة. ثم ركبت القطار. كنت خجلة من نفسي عندما تخيلت أن الرجل الذي يجلس في المقعد الذي أمامي في القطار يغمز إلى المرأة الجالسة بجانبي، فشعرت بالخوف مرة أخرى، وشعرت بالامتنان بأن الأوراق في أمان. خرجت إلى ممر عربة القطار لأستنشق بعض الهواء. فكرت في التسلل إلى عربة أخرى، ولكن نادتني المرأة وقالت لي إنني أسقطت شيئًا ما، وعندما انحنيت لأرى ما وقع مني، شعرت بضربة قوية على رأسي - هنا". وضعت يدها على مؤخرة رأسها وقالت: "ولا أتذكر أي شيء آخر حتى استيقاظي في المستشفى".

خيم الصمت، ثم قال السير جايمس:

"شكرًا لك آنسة فين. أرجو ألا نكون قد أرهقناك".

قالت جاين فين: "لا بأس. إن رأسي يؤلمني قليلاً، ولكني أشعر بأنني بخير".

خطا جوليوس نحوها وأمسك بيدها مرة أخرى وقال:

"إلى اللقاء يا ابنة عمتي جاين. سأذهب للعثور على تلك الوثائق، ولكني سأعود سريعًا، وسأصطحبك إلى لندن لنستمتع قليلاً قبل أن نعود إلى الولايات المتحدة. أعني هذا - لذا أسرعي وتعافي".

العشرون

سبق السيف العذل

قاموا في الشارع بعقد اجتماع للتخطيط للحرب، حيث أخرج السير جايمس ساعته من جيبه وقال:

"لقد توقف قطار نقل المسافرين من السفينة في محطة شيستر الساعة الثانية عشرة وأربع عشرة دقيقة، وإذا ما بدأتما على الفور، فأعتقد أنكما ستتمكنان من اكتشاف الصلة".

نظر له تومي في حيرة وقال:

"هل يجب أن نسرع بهذا الشكل؟ إن اليوم هو الرابع والعشرون".

قال جوليوس، قبل أن يجيب المحامي:

"أعتقد أنه من الأفضل دائمًا الاستيقاظ مبكرًا. سنبدأ في البحث عن هذا الشيء على الفور".

قطب السير جايمس حاجبيه قليلاً وقال:

"كنت أتمنى أن أذهب معكما، ولكن يجب أن أكون في اجتماع في تمام الثانية، للأسف".

كان التردد يبدو جليًا في صوته، وعلى النقيض، كان جوليوس يبدو مرتاحًا لعدم ذهابه معهما، حيث قال:

"لا أعتقد أن الأمر سيكون صعبًا، إنه مجرد لعبة غمضية بسيطة".

قال السير جايمس: "آمل ذلك".

قال جوليوس: "بالتأكيد. ماذا تعتقد أنه سيكون؟".

قال السير جايمس: "إنك ما زلت شابًا يا سيد هيرشايمر. عندما تصل إلى مثل عمري ستتعلم درسًا واحدًا: لا تستهن بمغامرتك".

أذهلت جاذبية نبرة صوته تومي، ولكنها لم تترك تأثيرًا كبيرًا على جوليوس، الذي قال:

"هل تعتقد أن السيد براون قد يحاول هو أيضًا الحصول على الوثائق؟ إذا ما حاول هذا، فأنا مستعد له"، ثم وضع يده في جيبه وقال: "أنا أحمل مسدسًا. إني أحمله معي في كل مكان". ثم أخرج مسدسًا آليًا، وطرق عليه بإعجاب قبل أن يعيده إلى مكانه وهو يقول:

"ولكني أعتقد أني لست بحاجة له في هذه الرحلة، فمن سيخبر السيد براون بالأمر".

هز المحامي كتفيه وقال:

"لم يكن هناك من يخبر السيد براون بأن السيدة فانديماير ستخونه، ولكنها ماتت بدون أن تتحدث".

صمت جوليوس على الفور، وأضاف السير جايمس بهدوء:

"كل ما أرغب فيه هو أن أجعلك تأخذ حذرك، إلى اللقاء، وحظًا سعيدًا. لا تقوما بأية مخاطرات غير ضرورية عندما تحصلان على الوثائق، إذا كان هناك أي شيء يجعلكما تعتقدان أنكما مراقبان، فدمروها على الفور. حظًا سعيدًا لكما. إن الأمر بين أيديكما الآن"، وصافحهما بقوة.

بعد عشر دقائق كان الشابان يستقلان القطار متوجهين إلى شيستر.

مر وقت طويل بدون أن ينبس أي منهما بكلمة، حتى كسر جوليوس أخيرًا حاجز الصمت بقول أمر لم يتوقعه تومي على الإطلاق، حيث قال:

"اسمع، هل شعرت بأنك أحمق عند رؤية وجه فتاة من قبل؟".

قال تومي: "لا يمكنني أن أجزم، ليس على ما أتذكر، ولكن لماذا؟".

قال جوليوس: "لأنني خلال الشهرين الماضيين كنت أتصرف تجاه جاين كأنني أحمق. عندما رأيت صورتها للوهلة الأولى، دق قلبي بحبها مثلما يحدث في الروايات الرومانسية. أعتقد أنني أشعر بالخجل من الاعتراف بهذا، ولكني حضرت إلى هنا وكلي إصرار على العثور عليها وتصحيح مسار الأمور، وأن أعود بها إلى الولايات المتحدة وهي زوجتي".

قال تومي بدهشة: "أوه".

اعتدل جوليوس في جلسته وقال باهتمام:

"يدل هذا على كم يمكن للرجل أن يجعل من نفسه أحمق، وبمجرد أن يرى الفتاة بشحمها ولحمها يشفى من حبها".

قال تومي: "أوه"، ولم يكن قادرًا على قول أي شيء آخر.

استطرد جوليوس قائلاً: "أنا لا أحط من قدر جاين. إنها فتاة رائعة، وأعتقد أن أي رجل آخر قد يقع في حبها على الفور".

قال تومي أخيرًا: "ولكني أعتقد أنها فتاة بارعة الجمال".

قال جوليوس: "بلا شك، ولكنها لا تشبه صورتها على الإطلاق. أعتقد أنها كذلك على أقل تقدير، لأني كنت سأتعرف عليها على الفور. إذا ما رأيتها ضمن جمع من الناس كنت سأقول: أنا أعرف هذه الفتاة، ولكن ربما كان هناك خطب ما بهذه الصورة"، ثم هز جوليوس رأسه وتنهد قائلاً:

"أعتقد أن الرومانسية أمر غريب للغاية".

قال تومي ببرود: "بلا أدنى شك، خاصة إذا ما كنت قد حضرت إلى هنا من أجل حبك لفتاة، ثم تطلب يد أخرى للزواج بعد أسبوعين".

بدا جوليوس منزعجًا مما قاله تومي، وقال:

"حسنًا، اسمع. لقد كنت أشعر باليأس من العثور على جاين - كما أن الأمر بأكمله يدل على الحماقة، كما أن - حسنًا - الفرنسيين على سبيل المثال، يتعاملون مع تلك الأمور بصورة أكثر منطقية، حيث إنهم يفرقون بين الحب والزواج".

احمر وجه تومي وقال: "حسنًا، أعتقد أن ما تقوله ــــ"

قاطعه جوليوس مسرعًا: "اسمع، لا تكن متسرعًا. أنا لا أقصد ما فهمته. أعتقد أن الأمريكيين يهتمون بحسن الخلق أكثر مما تهتمون به أنتم. ما كنت أعنيه هو أن الفرنسيين يتعاملون مع الزواج كما لو كان صفقة - ستجد شخصين يصلحان بعضهما للآخر، ويهتمان بالأمور المالية، ويستعرضان أمر الزواج بأكمله بشكل عملي، كما لو كان صفقة".

قال تومي: "إذا ما كان رأيي مهمًا، لقد أصبح الجميع يتصرفون بعملية هذه الأيام. لقد أصبحنا نقول طوال الوقت: بم سيفيدني الزواج؟ لقد أصبح الرجال سيئين والنساء أسوأ".

قال جوليوس: "اهدأ قليلاً يا بني. لا تنفعل لهذه الدرجة".

قال تومي: "أنا منفعل بالفعل".

نظر له جوليوس وقرر أنه من الحكمة ألا يقول أي شيء آخر.

كان أمام تومي وقت طويل ليهدأ قبل أن يصلا إلى هوليهيد، وعادت الابتسامة الجذلة إلى وجهه عندما شرعا في التوجه إلى المكان الذي يبغيانه.

بعد أن سألا عددًا من الأشخاص وبمساعدة خريطة، شعرا بأنهما على الطريق الصحيح، لذلك أوقفا سيارة أجرة على الفور، توجهت بهما نحو طريق يؤدي إلى خليج تريادور. طلبا من السائق ألا يسير بسرعة كبيرة، وكانا يراقبان الطريق بعناية حتى لا تفوتهما رؤية الطريق الترابي الضيق. وصلا إلى ذلك الطريق بعد وقت قصير من مغادرة المدينة، فأخبر تومي السائق بالتوقف على الفور، وسأله بعفوية عما إذا كان هذا الطريق يؤدي للبحر أم لا، وعندما أخبره السائق بأنه يؤدي للبحر، قام تومي بدفع أجرة السائق بسخاء.

بعد لحظات، كانت سيارة الأجرة تسير ببطء عائدة إلى هوليهيد. راقبها كل من جوليوس وتومي حتى توارت عن الأنظار ثم عادا إلى الطريق الترابي الضيق مرة أخرى.

سأل تومي بارتياب: "هل هذا هو الطريق الصحيح؟ يجب أن يكون هناك عدد كبير من الشجيرات على جانبيه".

قال جوليوس: "بالطبع. انظر إلى جميع هذه الشجيرات. أتذكر ما قالته جاين؟".

نظر تومي إلى الشجيرات الصغيرة التي تشبه البراعم الذهبية التي كانت تحيط بجانبي الطريق واقتنع بأنه الطريق الصحيح.

سار كل منهما في طابور، وكان جوليوس في المقدمة. عندما نظر تومي خلفه منزعجًا للمرة الثانية، التفت له جوليوس وقال:

"ما الأمر؟".

قال تومي: "لا أعلم. أعتقد أن هناك من يتبعنا".

قال جوليوس: "مستحيل. كنا سنراه".

أقر تومي بأن جوليوس كان محقًا، ولكن تعمق شعوره بالانزعاج أكثر. رغمًا عنه، بدأ يصدق قدرة عدوه اللامحدودة.

قال جوليوس وهو يربت جيبه:

"أتمنى أن يظهر هذا الشخص. إن مسدسي يتوق للعمل".

سأله تومي بفضول شديد: "هل تحمله معك دائمًا؟".

قال جوليوس: "أغلب الوقت. أعتقد أن لا أحد يعلم ما قد يواجهه".

صمت تومي في احترام، فقد كان منبهرًا بالمسدس الصغير. بدا أنه يدرأ خطر السيد براون بدرجة كبيرة.

كان الطريق قد أصبح الآن يجاور حافة الجرف الصخري موازيًا للبحر. توقف جوليوس فجأة مما دفع تومي إلى الإسراع نحوه، وسأله قائلاً: "ما الأمر؟".

قال جوليوس: "انظر هناك. أليست هذه هي الصخرة؟".

نظر تومي إلى ما يشير جوليوس إليه فرأى في منتصف الطريق تقريبًا، صخرة ضخمة لا شك في أنها تشبه لحد كبير كلبًا يستجدي العطف من صاحبه.

قال تومي رافضًا أن يشارك جوليوس مشاعره:

"هذا ما كنا نتوقع رؤيته، أليس كذلك؟".

نظر له جوليوس بحزن وهز رأسه أسفًا وقال:

"يا لهدوئك البريطاني المزعج! بالطبع هذا ما كنا نتوقع رؤيته - ولكن هذا بالذات ما يزعجني، أن نجد الصخرة في المكان الذي توقعنا أن نراها فيه".

تومي الذي كان يلتزم الصمت، كان يتوقع المزيد، فتحرك نحو الصخرة وقال:

"واصل السير. ماذا عن الفجوة؟".

بدآ يفحصان جوانب الجرف الصخري بدقة، وسمع تومي نفسه يقول:

"أعتقد أن الشجيرات لن تكون هنا بعد كل هذه السنوات".

قال جوليوس: "أعتقد أنك محق".

فجأة، أشار تومي إلى شيء ما ويده ترتجف وقال:

"ماذا عن تلك الفجوة هناك؟".

قال جوليوس بصوت تملؤه الرهبة:

"إنها هي بلا شك".

نظرا بعضهما إلى الآخر.

قال تومي: "عندما كنت في فرنسا، كان جندي المراسلة الخاص بي عندما يفشل في استدعائي، كان يقول دائمًا إنه شعر بأمر غريب. لم أكن أصدقه. ولكن سواء كان يشعر بهذا أو لا، فإن هذا الشعور موجود، وأنا أشعر به الآن، وبشدة".

نظر تومي إلى الصخرة بشغف وصاح قائلاً:

"اللعنة. مستحيل. خمس سنوات. فكر في الأمر. هناك الكثير من الأطفال الذين يبحثون عن أعشاش الطيور وحفلات الهواء الطلق وآلاف الأشخاص يمرون من هذا الطريق. لا يمكن أن تظل الوثائق هنا. هناك احتمال ضئيل للغاية أن تظل هنا في مكانها. إنه أمر مناف للمنطق".

لاشك في أنه كان يشعر بأن الأمر مستحيل - ربما بسبب أنه لم يكن يصدق ما فشل فيه الكثيرون. كان الأمر سهلاً للغاية، لذا لم يكن يصدق أنه حقيقي يجب أن تكون الفجوة فارغة.

نظر إليه جوليوس وابتسامة واسعة مرتسمة على وجهه وقال:

"أعتقد أنك قد فقدت أعصابك، ها نحن ذا"، ومد يده داخل الفجوة وقال: "إنها ضيقة. يبدو أن يد جاين أصغر كثيرًا من يدي. لا يمكنني أن أستشعر وجود أي شيء - لا - ما هذا؟ يا إلهي"، وأخرج لفافة صغيرة وأخذ يلوح بها ببهجة وقال:

"إنها الوثائق، ملفوفة في لفافة من القماش المشمع. أمسكها حتى أخرج مديتي".

لقد تحقق المستحيل. كان تومي يمسك باللفافة الغالية بين يديه. لقد نجحا.

غمغم تومي: "أمر غريب، من المفترض أن تكون غرز الخياطة قديمة ومهترئة، ولكنها جديدة".

مزقا الخيط، وفتحا لفافة القماش المشمع. كانت في داخلها ورقة مطوية قاما بفرد الورقة بأيد مرتعشة، ولكن كانت الورقة فارغة، فنظرا لبعضهما البعض في حيرة.

صاح جوليوس: "هراء. هل كان دانفرز مجرد غطاء؟".

هز تومي رأسه نفيًا، فلم تكن هذه الإجابة مرضية بالنسبة له، ثم فجأة تهلل وجهه وقال:

"وجدتها. الحبر السري".

قال جوليوس: "هل تعتقد هذا؟".

قال تومي: "إن الأمر يستحق المحاولة. إن الحبر يظهر عادة عند تسخينه. أحضر بعض الحطب. سنوقد نارًا".

خلال دقائق معدودة، كانت النار تستعر في أعواد الحطب وأغصان الأشجار. أمسك تومي بالورقة وقربها من ألسنة اللهب، فتجعدت الورقة قليلاً بفعل الحرارة بدون أية نتيجة أخرى.

أمسك جوليوس بذراع تومي فجأة وأشار إلى الورقة التي بدأت الأحرف تظهر عليها بلون بني خافت.

قال جوليوس: "يا إلهي، لقد كنت محقًّا. إن فكرتك كانت رائعة. إنها لم تخطر ببالي".

واصل تومي تقريب الورقة من النار لبضع دقائق أخرى حتى أتمت الحرارة عملها، ولكن عندما قرأ المكتوب على الورقة صاح بشدة.

فعلى الورقة، وبخط بني أنيق كانت الكلمات الآتية:

مع تحيات السيد براون.

الحادي والعشرون

اكتشاف تومي

ظلا لبضع لحظات يحدقان أحدهما في الآخر من دون أن يستوعبا الأمر مصدومين من وقع المفاجأة. لقد تمكن السيد براون بشكل ما من أن يسبقهما تقبل تومي الهزيمة بهدوء، على العكس من جوليوس الذي قال:

"كيف تمكن بحق السماء من أن يسبقنا؟ هذا ما يزعجني بشدة".

هز تومي رأسه وقال بأسى:

"لقد كانت غرز خياطة اللفافة جديدة، كان يجب أن نخمن..."

قال جوليوس: "لا عليك من الغرز اللعينة. كيف وصل إلى الوثائق قبلنا؟ لقد بدأنا رحلتنا بمجرد أن علمنا بالمكان. من المستحيل أن يصل أي شخص إلى هنا أسرع منا. على أية حال، كيف علم بمكانها؟ هل تعتقد أنه كان هناك جهاز تنصت في غرفة جاين؟ أعتقد هذا".

ولكن لم يتمكن تومي من تقبل هذا.

قال تومي: "لم يكن أحد يعلم أنها ستُنقل إلى هذا المنزل - وفي تلك الغرفة بالذات".

أقر جوليوس قائلاً: "هذا صحيح. إذن، ربما كانت واحدة من الممرضات محتالة ووقفت تتسمع من خارج باب الغرفة. ما رأيك في هذا؟".

قال تومي بحزن: "لا أعتقد أن هذا الأمر أصبح مهمًا. ربما كان السيد براون قد عثر عليها منذ أشهر مضت، وأخذ الوثائق، ثم - لا، يا إلهي، هذا ليس مرجحًا. إن كان قد حصل عليها، كان سينشرها على الملأ على الفور".

قال جوليوس: "بلا شك. لابد من أن شخصًا ما قد سبقنا إلى هنا بوقت قصير، ولكن ما يحيرني هو كيف وصلوا إلى هنا بهذه السرعة".

قال تومي وهو يفكر بعمق:

"كنت أرجو لو كان هذا الرجل، بيل إدجارتون، معنا الآن".

حدق به جوليوس وهو يقول:

"لماذا؟ لقد وقع الأمر قبل أن نصل".

تردد تومي قليلاً ثم قال:

"نعم"، ولكنه لم يتمكن من وصف ما يشعر به - الفكرة اللامنطقية عن أن وجود مستشار الملك كان سيمنع وقوع الكارثة. عاد تومي مرة أخرى إلى وجهة نظره السابقة وقال: "لا فائدة من الجدال حول كيفية حدوث ذلك. لقد انتهى الأمر، فشلنا. هناك أمر واحد يجب أن أقوم به".

قال جوليوس: "ما هو؟".

قال تومي: "العودة إلى لندن بأسرع وقت ممكن. يجب تحذير السيد كارتر. لن يمر وقت طويل الآن حتى تقع الكارثة، ولكن على أية حال، يجب أن يعلم ما سيحدث".

لم تكن مهمة تومي بالمهمة المحببة، ولكنه لم يفكر في التخلي عنها. يجب أن يخبر السيد كارتر بفشل مهمته، بعد هذا ستكون مهمته قد انتهت. ركب تومي قطار البريد في منتصف الليل متوجهًا إلى لندن، في حين فضل جوليوس البقاء في هوليهيد لهذه الليلة.

بعد وصوله إلى لندن بنصف الساعة، كان تومي يقف أمام رئيسه منهكًا وشاحبًا.

قال تومي: "لقد جئت لإخبارك يا سيدي بأني قد فشلت في مهمتي فشلا ذريعًا".

نظر له السيد كارتر بحدة وقال:

"هل تعني أن المعاهدة..."

قال تومي: "وقعت في يد السيد براون".

قال السيد كارتر بهدوء: "آه"، بدون أن يتغير التعبير الذي يعلو وجهه، ولكن لاحظ تومي ظهور اليأس في عينيه. أقنعه هذا أكثر من أي شيء آخر بأنه لم يعد هناك أمل.

قال السيد كارتر بعد بضع دقائق:

"حسنًا، أعتقد أنه يجب ألا نتوقف عن العمل. يسرني أن أعلم أن الأمر انتهى، ولكن يجب أن نبذل قصارى جهدنا".

قال تومي لنفسه: "إن الوضع ميئوس منه، وهو يعلم هذا جيدًا".

نظر السيد كارتر له وقال: "لا تحزن يا بني. لقد بذلت قصارى جهدك. لقد كنت تواجه أحد أعتى العقول الإجرامية في هذا القرن، وقد كنت على وشك النجاح. تذكر هذا".

قال تومي: "شكرًا لك سيدي. هذا لطف منك".

قال السيد كارتر: "أنا ألوم نفسي. لطالما كنت ألوم نفسي منذ علمت بتلك الأخبار الأخرى".

جذبت نبرة صوته انتباه تومي، وتصاعد خوف جديد في نفسه فقال:

"هل هناك أمر آخر يا سيدي؟".

قال السيد كارتر بحزن:

"أخشى هذا"، ثم مد يده ليمسك بورقة من على مكتبه.

قال تومي: "توبينس ــــ؟"

قال السيد كارتر: "اقرأ الورقة بنفسك".

كانت الكلمات المطبوعة بالآلة الكاتبة تتراقص أمام عينيه. كان الوصف عبارة عن العثور على قبعة نسائية خضراء اللون ومعطف في جيبه منديل يحمل الحروف الأولى لاسم توبينس، فنظر تومي متسائلاً إلى السيد كارتر الذي أجابه قائلاً:

"لقد حملتها الأمواج إلى شاطئ يوركشاير - بالقرب من إيبوري. أخشى أنها قد قُتلت".

شهق تومي وقال: "يا إلهي، توبينس. هؤلاء الشياطين - لن يهدأ لي بال حتى أرد لهم الصاع صاعين. سأقتفي أثرهم. سوف ــــ"

أوقفته نظرة الشفقة التي ظهرت على وجه السيد كارتر الذي قال:

"أقدر تمامًا ما تشعر به يا بني العزيز، ولكن لا فائدة من هذا. ستضيع جهودك هباءً. قد يبدو ما أقوله قاسيًا ولكن نصيحتي لك: قلل من خسائرك. ستنساها بمرور الزمن".

قال تومي: "أنسى توبينس؟ مستحيل".

هز السيد كارتر رأسه وقال:

"هذا ما تعتقده في الوقت الحالي، ولكن الأمر لن يدوم طويلاً - هذه الفتاة الصغيرة الشجاعة. أنا آسف على كل ما حدث. آسف للغاية".

قال تومي: "حتى لا أضيع وقتك. يجب ألا تلقي باللوم على نفسك يا سيدي. لقد كنا أحمقين بقبول مثل هذا العمل. لقد حذرتنا من مغبة ما قد يحدث، ولكني كنت أتمنى أن أكون أنا من يُقتل. إلى اللقاء يا سيدي".

عاد تومي إلى فندق الريتز، ولملم متعلقاته القليلة بشكل آلي، فقد كان مشغول البال للغاية. كان لا يزال غارقًا في المأساة التي حدثت لأفضل من عرفه في حياته. كم من المرح قاما به معًا، هو وتوبينس، أما الآن - أوه، لا يمكنه

أن يصدق - لا يمكن أن يكون الأمر حقيقيًا. توبينس - ماتت. توبينس العزيزة المفعمة بالحياة. لقد كان هذا كابوسًا ليس أكثر.

وصلته رسالة تحمل بعض كلمات التعزية من بيل إدرجارتون الذي قرأ الخبر في الصحف (كان هناك عنوان كبير في الجريدة يقول: ممرضة متطوعة سابقة: عُثر عليها غارقة). انتهى الخطاب بعرض عمل في إحدى مزارع المواشي في الأرجنتين، حيث تدور بعض أعمال السير جايمس.

غمغم تومي قائلاً وهو يلقي بالرسالة جانبًا:

"رجل عطوف".

انفتح الباب، ودخل جوليوس كالإعصار، بطريقته المعتادة، وكان يمسك بالجريدة في يده، وقال:

"ما هذا؟ يبدو أنهم يملكون فكرة خاطئة عن توبينس".

قال تومي بهدوء: "هذا صحيح".

قال جوليوس: "هل تعني أنهم نالوا منها؟".

أومأ تومي برأسه وقال:

"أعتقد أنهم بعد أن حصلوا على المعاهدة - لم تعد توبينس مهمة بالنسبة لهم، وكانوا يخشون مما قد تفعله إذا ما تركوها ترحل".

قال جوليوس: "اللعنة. توبينس العزيزة. لا شك في أنها أكثر الفتيات شجاعة في العالم ـــــ"

ولكن فجأة، بدا أن أمرًا ما قد طرأ على عقل تومي، نهض واقفًا وقال:

"أوه، أنت لا تكترث لأمرها. اللعنة عليك. لقد طلبت الزواج منها بكل برود، ولكني كنت أحبها. كنت على استعداد لأن أخرج روحي من جسدي لأحميها. كنت سأقف عاجزًا وأشاهدها تتزوجك، لأنك كنت ستمنحها الحياة التي تستحقها، أما أنا ففقير لا أملك قوت يومي، ولكن لم أكن أتركها تتزوجك لأنني لا أكترث لأمرها".

قال جوليوس متمالكًا نفسه:

"اسمع".

قال تومي: "اخرج. لا يمكنني احتمال حديثك عن توبينس العزيزة. اذهب واهتم بابنة عمتك. إن توبينس فتاتي. لطالما كنت أحبها منذ أن كنا نلعب معًا ونحن أطفال. وكبرنا وظلت الحال كما هي عليه. لن أنسى ما حييت عندما دخلت المستشفى، وظهرت هي بقبعتها ومئزرها السخيفين. لقد كان الأمر أشبه بالمعجزة أن أرى الفتاة التي أحب وهي ترتدي زي الممرضات ـــــ"

قاطعه جوليوس قائلاً: "زي الممرضات. يا إلهي، أعتقد أنني سأجن. يمكنني أن أقسم بأنني قد رأيت جاين وهي ترتدي زي الممرضات هي الأخرى، ولكن هذا مستحيل. لا، لقد تذكرت. لقد رأيتها تتحدث مع ويتنجتون في تلك العيادة في بورتسموث. إنها لم تكن مريضة هناك، بل كانت ممرضة".

قال تومي غاضبًا: "يمكنني أن أقول إنها كانت شريكة معهم منذ البداية. لا عجب أن تكون هي من سرق الوثائق من دانفرز".

صاح جوليوس: "مستحيل. إنها ابنة عمتي، وهي أكثر فتاة وطنية في العالم".

قال تومي وهو يصيح أيضًا بصوت عالٍ:

"لا يهمني من تكون، اخرج".

كان الشابان على وشك الشجار، ولكن فجأة، كما لو كان الأمر قد حدث بفعل السحر، تلاشى غضب جوليوس، وقال بهدوء:

"حسنًا، يا صديقي. سأذهب. لا يمكنني أن ألومك على ما تقول. من حسن الحظ أنك قلت هذا. أنا أكثر رجل أحمق يمكنك أن تتخيله. اهدأ" - نظر له تومي بنفاد صبر - فقال جوليوس: "سأذهب الآن على الفور - سأذهب إلى محطة قطار المدن الشمالية الغربية إذا ما أردت أن تعرف".

صاح تومي: "لا أهتم بأين تذهب".

عندما انغلق الباب خلف جوليوس، عاد ليعد حقائبه وهو يغمغم:

"هذا كل شيء"، ثم قرع الجرس وقال لعامل الغرف:

"خذ حقائبي إلى أسفل".

قال الرجل: "حسنًا سيدي. هل ستسافر؟".

قال تومي بدون أن يهتم بما سيقوله الخادم:

"سأذهب إلى الجحيم".

رد عليه الخادم باحترام: "هل أطلب لك سيارة أجرة يا سيدي؟".

أومأ تومي برأسه أن نعم.

إلى أين سيذهب؟ لم تكن لديه أدنى فكرة. على الرغم من إصراره على أن يرد الصاع صاعين للسيد براون، لم يكن قد خطط للأمر. قرأ تومي رسالة السير جايمس مرة أخرى وهز رأسه. يجب أن ينتقم لمقتل توبينس، ولكن كان عرض العمل لطفًا من السير جايمس.

قال تومي: "من الأفضل أن أرد عليه برسالة"، وتوجه نحو طاولة الكتابة وكان هناك عدد كبير من الأظرف ولكن بدون أية أوراق. قرع الجرس ولكن لم يجبه أحد. غضب تومي من تأخر الرد، ولكنه تذكر وجود كم كبير من الأوراق في غرفة جلوس جوليوس. كان جوليوس قد رحل. لم يكن هناك مانع من الذهاب خلفه، هذا إلى جانب أنه كان قد بدأ يشعر بالخجل مما قاله. لقد ساعدهم جوليوس كثيرًا. سيعتذر له عما بدر منه إذا تمكن من اللحاق به.

كانت الغرفة خالية، فتوجه تومي نحو طاولة الكتابة، وفتح الدرج الأوسط. ظهرت صورة بمجرد أن فتح الدرج، ولفتت انتباهه. وقف للحظات متسمرًا في مكانه، ثم أمسك بالصورة وسار نحو أحد المقاعد، وجلس وهو يحدق في الصورة التي في يده.

ماذا تفعل صورة الفتاة الفرنسية آنيت في درج مكتب جوليوس هيرشايمر؟

الثاني والعشرون

في شارع داونينج

طرق رئيس الوزراء سطح المكتب أمامه بعصبية، وكانت تعلو وجهه أمارات الإرهاق والقلق. واصل رئيس الوزراء حديثه مع السيد كارتر من النقطة التي انقطع عندها قائلاً:

"لا أفهم. هل تعني أن الوضع ليس ميئوسًا منه رغم كل ما حدث؟".

قال السيد كارتر: "وكذلك يظن هذا الشاب".

قال رئيس الوزراء: "دعنا نلق نظرة على الرسالة مرة أخرى".

سلمه السيد كارتر الرسالة المكتوبة بخط يد رديء.

عزيزي السيد كارتر،

لقد حدث أمر ما صدمني بشدة. ربما أكون أحمق، ولكني لا أظن هذا. إذا ما كانت استنتاجاتي صحيحة، فإن هذه الفتاة في مانشستر لم تكن سوى مجرد عميلة لهم. لقد كان كل شيء معدًا مسبقًا ومصطنعًا، حتى نعتقد أن الأمر انتهى لذا أعتقد أننا كنا نسير على الطريق الصحيح.

أعتقد أنني أعلم من هي جاين فين الحقيقية، وأعتقد أنني أعرف أين توجد الوثائق. ولكن هذا مجرد تخمين، ولكني أشعر بأنه تخمين صائب. على أية حال لقد وضعت جميع التفاصيل المهمة في ظرف مغلق، وسأطلب منك ألا تفتحه إلا في اللحظة الأخيرة في منتصف ليلة يوم الثامن والعشرين. ستدرك حينها سبب طلبي ذاك. لقد أدركت أيضًا أن قصة موت توبينس قصة ملفقة هي الأخرى وأنها لم تغرق على الإطلاق. فكرتي هي: كفرصة أخيرة، سيتركون جاين فين تهرب على أمل أن يساعدها هذا على استعادة ذاكرتها، وأنها بمجرد أن تشعر بأنها حرة ستتوجه مباشرة لاستعادة الوثائق. لاشك أن في هذا الأمر مخاطرة كبيرة من قبلهم، لأنها تعرف كل شيء عنهم - ولكنهم يشعرون بالحاجة الملحة للحصول على تلك الوثائق. ولكن إن أدركوا أننا قد استعدنا الوثائق، فإن حياة هاتين الفتاتين لن تساوي شيئًا في نظرهم. يجب أن أعثر على توبنس قبل أن تهرب جاين.

أرغب في أن أؤكد الحصول على مصدر تلك البرقية التي وصلت إلى توبينس في فندق الريتز. لقد أخبرني السير جايمس بيل إدجارتون بأنك قادر على مساعدتي. إنه رجل ذكي للغاية.

هناك أمر أخير - أرجو أن تراقب المنزل في سوهو ليلاً ونهارًا.

المخلص،

توماس بيريسفورد

نظر رئيس الوزراء إلى السيد كارتر وقال:

"أين الظرف؟".

ابتسم السيد كارتر بجفاء وقال:

"في واحدة من خزائن البنك. لا يمكنني أن أخاطر بذلك".

تردد رئيس الوزراء للحظة ثم قال:

"هل تعتقد أنه من الأفضل أن نفتحه الآن؟ لا شك في أنه يجب علينا أن نحصل على تلك الوثائق، شريطة أن يكون تخمين هذا الشاب في محله، وعلى الفور. ويمكننا أن نحتفظ بهذه المعلومات سرًا".

قال السيد كارتر: "هل يمكننا هذا؟ لا أعتقد. هناك جواسيس في كل مكان. بمجرد أن يُعرف الأمر ستنتهي حياة الفتاتين على الفور. لا، إن الشاب يثق بي، ولن أخذله".

قال رئيس الوزراء: "حسنًا، حسنًا، سنترك الأمر على حاله إذن. كيف يبدو هذا الشاب؟".

قال السيد كارتر: "ظاهريًا، يبدو شخصًا عاديًا، شابًا إنجليزيًا أحمق، بطيء الفهم، لا يمتلك أي خيال - لذا فإنه من الصعب خداعه. إنه يفهم الأمور ببطء، ولكن بمجرد أن يستحوذ على أمر ما، لا يتركه بسهولة. أما الفتاة فهي تختلف عنه تمامًا - ذات حدس رائع ولكنها تفتقد المنطق السليم. إنهما يشكلان فريقًا رائعًا. السرعة وقوة الاحتمال".

قال رئيس الوزراء: "إنه يبدو واثقًا".

قال السيد كارتر: "نعم، وهذا ما ينعش الأمل في قلبي. إنه من نوع الأشخاص الحذرين والذين لا يقدمون على أمر ما إلا إذا كانوا واثقين تمام الثقة مما سيفعلون".

ظهر شبح ابتسامة على شفتي رئيس الوزراء وقال:

"وهل هذا الفتى هو من سيهزم أعظم مجرمي هذا العصر؟".

قال السيد كارتر: "هذا الفتى، كما تطلق عليه، أتخيل أحيانًا وجود شخص ما خلفه".

قال رئيس الوزراء: "من تعني؟".

قال السيد كارتر: "بيل إدجارتون".

قال رئيس الوزراء في دهشة: "بيل إدجارتون؟".

قال السيد كارتر: "يمكنني أن أشعر بضلوعه في الأمر"، وربت الخطاب المفتوح وهو يقول: "إنه هناك - يعمل في الخفاء، بصمت، وبدون أن يظهر. لطالما شعرت بأنه أيًا كان من يمكنه هزيمة السيد براون، فسيكون بيل إدجارتون. أنا واثق من أنه مشارك في الأمر، ولكنه لا يرغب في أن يتم الكشف عن هذا. بالمناسبة، لقد طلب مني طلبًا غريبًا منذ أيام".

قال رئيس الوزراء: "ما هو؟".

قال السيد كارتر: "لقد أرسل لي جزءًا من صحيفة أمريكية، وكان الخبر عن العثور على جثة رجل بالقرب من الميناء في مدينة نيويورك منذ ثلاثة أسابيع. وقد طلب مني جمع أكبر كم ممكن من المعلومات عن هذا الأمر".

قال رئيس الوزراء: "وماذا بعد؟".

هز كارتر كتفيه وقال:

"لم أتمكن من الحصول على الكثير. كان شابًا في الخامسة والثلاثين من العمر - رث الثياب - مشوه الوجه بشدة. لم يتم التعرف على هويته".

قال رئيس الوزراء: "هل تعتقد أن هناك صلة بين الأمرين؟".

قال كارتر: "أعتقد هذا، وقد أكون مخطئًا".

خيم الصمت قليلاً، ثم واصل السيد كارتر حديثه قائلاً:

"لقد طلبت منه الحضور إلى هنا. لن يمكننا الحصول منه على أية معلومات لا يرغب في إطلاعنا عليها. إن غريزته القانونية قوية للغاية، ولكنه قد يكشف لنا عن واحدة أو أكثر من النقاط الغامضة في خطاب بيريسفورد. آه، ها هو ذا".

نهض الرجلان ليرحبا بالزائر، ومرت بخاطر رئيس الوزراء فكرة "أن هذا الرجل قد يكون رئيس الوزراء القادم".

قال السيد كارتر: "لقد وصلنا خطاب من بيريسفورد، لقد قابلته، أليس كذلك؟".

قال المحامي: "لا، لم أقابله".

شعر السيد كارتر بالحيرة فقال:

"أوه".

ابتسم السير جايمس وداعب ذقنه وقال:

"لقد اتصل بي هاتفيًا".

قال السيد كارتر: "هل تمانع أن تخبرنا بما حدث بينكما؟".

قال السير جايمس: "بكل سرور. لقد شكرني على الخطاب الذي أرسلته له في الحقيقة، لقد عرضت عليه عملاً. ثم ذكرني بأمر ما قلته له في مانشستر بشأن تلك البرقية الزائفة التي أوقعت بالآنسة كاولي. كنت سألته عما إذا كان قد حدث أي أمر غريب. قال إنه حدث بالفعل - في درج مكتب السيد هيرشايمر، كانت هناك صورة"، توقف المحامي عن الحديث قليلاً ثم قال: "سألته إن كانت الصورة تحمل اسم أحد المصورين وعنوانه في كاليفورنيا، فأجابني: أنت محق، هناك اسمه وعنوانه بالفعل. ثم أخبرني بأمر لم أكن أعرفه. لقد كانت صورة الفتاة التي أنقذته من الأسر - آنيت".

قال كارتر: "ماذا؟".

قال السير جايمس: "هذا ما قلته بالضبط. سألته عما فعل بالصورة. فأجابني بأنه أعادها إلى حيث كانت"، توقف المحامي مرة أخرى ثم قال: "هذا أمر جيد كما تعلم، جيد تمامًا. إنه شاب ذكي. هنأته على اكتشافه، فقد كان اكتشافًا مهمًا للغاية، فمنذ اكتشفنا أن فتاة مانشستر كانت عميلة، تغير كل شيء. لقد اكتشف بيريسفورد هذا وحده دون مساعدتي، ولكنه شعر بأنه غير واثق في حكمه على أمر الآنسة كاولي. هل أعتقد أنها على قيد الحياة؟ أخبرته، بعد فحص الحقائق، بأن هناك احتمال أن تكون كذلك. أعادنا هذا مرة أخرى إلى البرقية".

قال كارتر: "وماذا بعد؟".

قال السير جايمس: "أخبرته بأن يلجأ إليك للحصول على نسخة من البرقية الأصلية. لقد اعتقدت أنه بعدما غادرت الآنسة كاولي، تم محو وتغيير بعض الكلمات ليصل من يبحث عنها إلى وجهة خاطئة".

أومأ كارتر برأسه، وهو يسحب ورقة من جيبه ويقرؤها قائلاً:

تعالي على الفور، آستلي بريورز، جايت هاوس، كنت. أخبار عظيمة - تومي

قال السير جايمس: "أمر بديهي، ولكنه يدل على العبقرية. تغيير بضع كلمات، وتكون المهمة قد تمت. بعد هذا، هناك الخيط المهم الذي اهتموا به".

قال كارتر: "ما هو؟".

قال السير جايمس: "شهادة صبي خدمة الغرف بأن الآنسة كاولي غادرت إلى محطة شايرينج كروس. لقد كانوا واثقين من أنفسهم بشدة حينما أخذوا أمر خطأ الصبي كأمر مسلم به".

قال كارتر: "أين بيريسفورد الآن إذن؟".

قال السير جايمس: "في جايت هاوس، كنت. إن لم أكن مخطئًا بشأنه".

نظر له السيد كارتر بفضول وقال: "إنني أتعجب أنك لست هناك أنت أيضًا يا بيل إدجارتون."

قال السير جايمس: "أنا مشغول بقضية أخرى".

قال كارتر: "كنت أعتقد أنك في إجازة، أليس كذلك؟".

قال السير جايمس: "لم أتمكن من الحصول على الراحة. ربما تكون دقيقًا لو قلت إنني أعد العدة لقضية جديدة. هل هناك أية معلومات عن هذا الشاب الأمريكي لتخبرني بها؟".

قال كارتر: "أخشى ألا تكون هناك أية معلومات. هل من المهم أن تعرف من هو؟".

قال السير جايمس: "أنا أعلم من هو، ولكن لا يمكنني إثبات هذا بعد - ولكني أعلم".

لم يطرح عليه الرجلان الآخران المزيد من الأسئلة، فقد شعرا بأن هذا لا طائل منه.

قال رئيس الوزراء فجأة:

"هناك أمر لا أفهمه، كيف وصلت تلك الصورة إلى درج مكتب السيد هيرشايمر؟".

قال المحامي بهدوء: "ربما لم تغادره منذ البداية".

قال رئيس الوزراء: "ولكن ماذا عن ذلك المحقق الزائف؟ المحقق براون؟".

قال السير جايمس وهو ينهض واقفًا:

"يجب ألا أعطلك أكثر من هذا. واصل عملك في خدمة الأمة، يجب أن أعود إلى قضيتي".

عاد جوليوس هيرشايمر بعد يومين من مانشستر، وكانت هناك رسالة من تومي موضوعة على طاولته تقول:

عزيزي هيرشايمر،

أعتذر عما بدر مني. في حال لم نر بعضنا مرة أخرى، إلى اللقاء. لقد عُرضت عليّ وظيفة في الأرجنتين، وسوف أقبلها.

المخلص،

تومي بيريسفورد.

ظهر شبح ابتسامة على وجه جوليوس للحظات، ثم ألقى الرسالة في سلة المهملات.

ثم غمغم قائلًا: "الأحمق".

الثالث والعشرون

سباق ضد الزمن

بعـد أن أنهـى الاتصـال الهاتفي مـع السير جايمـس، اتصل تومي بعمـارات ساوث أودلـي السكنيـة، ووجد أن ألبرت قد انتهى من عمله، فقـدم نفسه له على أنه أحد أصدقاء توبينس، فهدأ ألبرت على الفور، وقال:

"لقـد كان كل شـيء هادئـا هنـا مؤخـرًا. أرجـو أن تكون سيدتـي الشابـة بخيـر يا سيدي".

قال تومي: "هذا ما أرغب في التحدث معك بشأنه يا ألبرت. لقد اختفت".

قال ألبرت: "هل تعني أن المحتالين تمكنوا منها؟".

قال تومي: "نعم".

قال ألبرت: "هل أخذوها إلى العالم السفلي؟".

قال تومي: "لا، دعك من هذا، إنها في هذا العالم".

قال ألبرت: "إنه مجرد تعبير يا سيدي. عادة ما يظهر المحتالون في الأفلام وهم يمتلكون مطعمًا في العالم السفلي، ولكن هل تعتقد أنهم قتلوها يا سيدي؟".

قـال تومـي: "لا أرجو هذا. بالمناسبة، هل لديك عمة أو ابنة عم أو جدة أو أي من قريباتك النساء مريضة وقد تموت قريبًا؟".

انتشرت ابتسامة على وجه ألبرت وقال:

"بالفعـل يـا سيدي، إن عمتي المسكينة التي تعيش في الريف مريضة منذ وقت طويل، وهي ترغب في رؤيتي قبل أن تموت".

أومأ تومي برأسه موافقًا وقال:

"هـل يمكنـك أن تبلـغ رؤسـاءك فـي العمـل بهـذا، وأن تقابلنـي فـي محطة شايرينج كروس بعد ساعة؟".

قال ألبرت: "سأكون هناك يا سيدي، لا تقلق".

كمـا توقـع تومـي، أثبـت ألبرت المخلص أنه حليـف لا يقدر بثمـن. اتخذ كل منهمـا مقرهمـا في أحد النزُل في جايت هاوس. كانت مهمة جمع المعلومات تقع على عاتق ألبرت الذي لم يواجه أية صعوبات في الحصول عليها.

كان منـزل آستلـي بريورز مملوكًا للطبيب أدامـز. كان ذلك الطبيب قد تقاعد عـن مزاولـة المهنـة، كما يعتقـد مالك المنزل الـذي استأجرا به مـكان إقامتهما، ولكنـه يرعـى بعض المرضـى الخاصيـن. عندهـا ضـرب الرجـل جبهتـه وقـال: "مجانين، كما تعلم".

كان الطبيـب مـن الشخصيـات المعروفة فـي القرية، وكان يشـارك في جميع المسابقـات الرياضيـة المحليـة - "إنه رجل لطيف ومهذب". هـل يعيش هنا منذ وقت طويل؟ أوه، عشر سنوات تقريبًا - وربما أكثر. لقد كان عالمًا، وعادة ما يأتي الأساتـذة والناس من المدينة لمقابلته. على أية حال، لطالما كان المنزل مكتظًا بالزائرين.

في وجه هذه الثرثرة، شعر تومي بالارتياب. هل يمكن أن تكون هذه الشخصية المهذبـة الشهيرة مجرمًـا خطرًا في الحقيقة؟ كانت حياته تبدو منفتحة وعلنية للغايـة، بـدون أي دليـل على قيامه بأعمـال مخالفة للقانـون. ماذا لـو كان الأمر برمتـه عبـارة عـن خطأ جسيـم؟ شعر تومـي برجفة خوف من مجـرد التفكير في ذلك.

تذكر بعد ذلك: المرضى الخاصون - "المجانين". استفسر بعناية عما إذا كان بين هؤلاء المرضى فتاة شابة، وأعطاهم أوصاف توبينس، ولكن لم يجد أي شخص يعلم شيئًا عن المرضى - نادرًا ما كان يراهم أحد خارج المنزل، ولم يُجد أيضًا إعطاء أوصاف آنيت لقاطني البلدة في التوصل لمن يتعرف عليها.

كان منزل آستلي بريورز منزلاً ضخمًا مبنيًا بالطوب الأحمر، وكان محاطًا بأراض كثيفة الأشجار تحجب رؤية المنزل عن الطريق.

في الليلة الأولى، ذهب كل من تومي وألبرت لاستكشاف الأراضي حول المنزل. بفضل إصرار ألبرت، قاما بالزحف على بطنيهما الأمر الذي آلمهما كثيرًا وجعلهما يصدران ضوضاء أكثر مما حدث حينما كانا واقفين على أقدامهما. على أية حال، لم تكن جميع تلك الإجراءات الاحترازية ضرورية، فقد كانت تلك الأراضي المحيطة بالمنزل، تبدو بعد هبوط الظلام، خالية من السكان. تخيل تومي وجود كلب حراسة شرس، وتخيل ألبرت وجود أسد أمريكي أو حية كوبرا مستأنسة، ولكنهما وصلا إلى بعض الشجيرات بجانب المنزل بدون أن يضايقهما أحد.

كانت ستائر نوافذ غرفة الطعام مفتوحة، وكان هناك عدد من الأشخاص مجتمعون حول الطاولة، وكان الشراب ينتقل من شخص لآخر. كان الجمع يبدو طبيعيًا ومبتهجًا. من خلال النافذة المفتوحة، كان الهواء يحمل مقاطع من الحديث الذي يدور في الداخل. كان الحوار المحتدم يدور حول بطولة المقاطعة للعبة الكريكيت.

شعر تومي مرة أخرى بالارتياب، فلم يبد أن هؤلاء الأشخاص يخفون أمرًا شريرًا وراء هيئتهم العادية. هل تم خداعه مرة أخرى؟ كان الرجل النبيل ذو اللحية الشقراء، والذي كان يجلس على رأس الطاولة، رجلاً عاديًا وصادقًا.

لم يتمكن تومي من النوم تلك الليلة. في صباح اليوم التالي، صادق ألبرت، الذي لا يكل، الفتى الذي يعمل في متجر الخضراوات، وأخذ مكانه في العمل وتمكن من التعرف على الطاهية في منزل مولت هاوس. عاد ألبرت إلى تومي وهو يحمل معلومات عن أن الطاهية واحدة من أفراد العصابة بدون شك، ولكن

تومي لم يكن واثقًا من تخيلاته. عندما سأله تومي عن دليله على ذلك، لم يتمكن ألبرت من عرض أي دليل سوى رأيه الشخصي عنها، حيث قال: "يمكنك أن تدرك هذا من الوهلة الأولى".

تم الأمر ذاته في اليوم التالي (بعد أن حصل الصبي الحقيقي الذي يعمل في متجر الخضراوات على مبلغ إضافي من المال)، ولكن هذه المرة تمكن ألبرت من العودة بالخبر الأول الذي أحيا الأمل في قلبيهما. كانت هناك فتاة فرنسية تقطن المنزل. نحى تومي شكوكه جانبًا، فقد ظهر أخيرًا تأكيد على صحة نظريته، ولكن لم يكن هناك الكثير من الوقت لإضاعته، فقد كان اليوم هو يوم السابع والعشرين، وكان يوم التاسع والعشرين الشهير هو يوم عيد العمال، اليوم الذي تدور حوله الكثير من الشائعات. كانت الصحف تزداد ثورة، وتم نشر تلميحات عن احتمال حدوث انقلاب على الحكومة من قبل العمال، والتزمت الحكومة الصمت. كانت هناك شائعات حول حدوث خلافات بين قادة العمال، حيث إنهم لم يكونوا موحدي الفكر. كان العاقلون منهم يعتقدون أن الثورة تعني دمار إنجلترا التي يحبونها في قرارة أنفسهم. كانوا يفكرون في المجاعة والتعاسة اللتين ستسببهما الثورة، وكانوا يرغبون في التوصل إلى حل وسط مع الحكومة، ولكن من خلفهم، كانت هناك قوى عمالية تعمل في الخفاء، تجبرهم على تذكر الانتهاكات السابقة للحكومة، وتؤكد ضعف الحلول الوسط وتثير الخلافات بينهم.

شعر تومي بأنه تمكن من فهم الوضع بالشكل الصحيح بفضل السيد كارتر. مع وقوع الوثائق الخطيرة بين يدي السيد براون، قد يميل الرأي العام بأكمله نحو كفة المتطرفين والثوريين من حزب العمال. إذا لم تقع تلك الوثائق بين يدي السيد براون، فستكون المعركة متكافئة. الحكومة والجيش والشرطة في صفها، قد تفوز - ولكن بعد معاناة كبيرة، ولكن تنامى في قلب تومي حلم جديد مناف للعقل. إذا ما تم القبض على السيد براون وكشف النقاب عن هويته الحقيقية، فإنه يعتقد أن المنظمة بأكملها ستتداعى وبشكل فوري. إن ما يجعل تلك المنظمة مترابطة هو التأثير الغريب النافذ للزعيم الذي لم يره أحد. وبدونه، يعتقد تومي حدوث ذعر فوري، وسيُترك الرجال الشرفاء للتفكير بأنفسهم، ويمكن أن تتم المصالحة في اللحظة الأخيرة.

قال تومي لنفسه: "يجب أن يعتمد المرء على نفسه. ما يجب عليَّ فعله هو القبض على الرجل بنفسي".

كان يعتقد أنه وحده، لأنه طلب من السيد كارتر ألا يفتح الظرف المغلق، فقد كانت مسودة المعاهدة هي الطعم الذي يدلّيه تومي. كان تومي يعتمد بشكل كبير على توقعاته. كيف تجرأ على الاعتقاد بأنه تمكن من اكتشاف ما فشل في اكتشافه الكثير من الرجال الأكثر منه ذكاءً؟ ولكن على الرغم من هذا، تمسك أكثر بفكرته.

في المساء، عاد هو وألبرت لاختراق الأراضي المحيطة بمنزل آستلي بريورز. كان تومي يأمل في أن يتمكن من دخول المنزل نفسه بطريقة ما. عندما اقتربا من المنزل بدرجة كافية، شهق تومي فجأة.

في الطابق الثاني من المنزل، كان هناك شخص ما يقف بين النافذة والضوء، مخلفًا ظله على الستار. كان تومي قادرًا على التعرف على هذا الخيال في أي مكان. إن توبينس في المنزل.

أمسك تومي بكتف ألبرت وقال: "انتظر هنا. عندما أبدأ في الغناء، راقب تلك النافذة".

تراجع مسرعًا نحو مكان ما على الطريق الرئيسي للمنزل، وبدأ في الغناء بصوت عالٍ وهو يمشي متمايلاً على الطريق قائلاً:

أنا جندي

جندي بريطاني مسرور

يمكنك أن ترى أني جندي من قدميَّ ...

كانت هذه هي الأغنية المفضلة لـ توبينس في أثناء الحرب. كان تومي واثقًا من أن توبينس ستسمع الأغنية وستستنتج وجوده. لم يكن صوت تومي جميلاً، ولكن رئتيه كانتا ممتازتين، وكانت الضوضاء التي أصدرها عالية بالدرجة الكافية.

بعد ذلك، ظهر رئيس الخدم ومعه أحد الخدم من باب المنزل الأمامي، واعترض رئيس الخدم طريقه، ولكنه واصل الغناء وهو يقول لرئيس الخدم:

"يا ذا الشوارب الرائعة". أمسك الخادم الآخر بذراعه، وأمسك رئيس الخدم بالذراع الأخرى، وسحباه إلى الطريق المؤدي للمنزل، وألقيا به خارج البوابة الرئيسية. هدده رئيس الخدم باستدعاء الشرطة إذا ما أعاد الكرة مرة أخرى. لقد كان تصرف العصابة ماهرًا، فقد كان أي أحد يرى رئيس الخدم سيقسم بأنه رئيس الخدم، وأيًا كان من يرى الخادم الآخر سيقسم أنه خادم، عدا أن رئيس الخدم كان ويتنجتون.

عاد تومي إلى الحانة وانتظر عودة ألبرت، الذي ظهر أخيرًا.

صاح تومي قائلاً: "ماذا حدث؟".

قال ألبرت: "بينما كان الرجلان يسحبانك إلى الخارج، انفتحت النافذة، وتم إلقاء شيء ما منها"، وأعطى تومي ورقة مجعدة وقال: "لقد كانت ملفوفة حول ثقل تثبيت الأوراق".

كان مكتوبًا على الورقة: "*غدًا في الموعد ذاته*".

صاح تومي: "يا إلهي، لقد اقتربنا كثيرًا".

تابع ألبرت حديثه بأنفاس متقطعة:

"لقد كتبت رسالة على ورقة، ولففتها حول حجر، وألقيتها عبر النافذة".

صرخ تومي قائلاً: "إن حماستك هذه ستتسبب في مقتلنا يا ألبرت. ماذا كتبت فيها؟".

قال البرت: "قلت إننا موجودون في الحانة. إذا ما تمكنت من الهرب، عليها أن تأتي إلى هنا وتطلق صوتًا كالضفدع".

قال تومي وهو يتنهد في راحة:

"ستعرف أن هذا أنت. إن خيالك يتبعك في كل مكان يا ألبرت. إنك لن تتمكن من ملاحظة صوت الضفدع حتى إن سمعته".

شعر ألبرت بالاكتئاب.

قال تومي: "هون عليك. لم يحدث شيء. إن رئيس الخدم هذا شخص أعرفه جيدًا – وأراهن على أنه يعرف من أنا، على الرغم من أنه لم يبد هذا. إنهم لا يرغبون في إثارة الشبهات. لهذا لم نقابل أية مصاعب. إنهم لا يرغبون في تعجيزي تمامًا، ولكنهم في الوقت ذاته لن يجعلوا الأمر سهلاً علينا. إنني عبارة عن بيدق في لعبتهم يا ألبرت، هذا ما يظنونني عليه. إذا ما ترك العنكبوت الذبابة تهرب بسهولة، فستشك الذبابة في أن الأمر مفتعل. إذن، سيستفيدون من هذا الشاب الواعد، السيد توماس بيريسفورد، الذي ظهر أمامهم في اللحظة المناسبة، ولكن السيد توماس بيريسفورد لديه رؤية أخرى".

ذهب تومي للفراش ومعنوياته في عنان السماء، فقد وضع خطة محكمة لليلة التالية. كان واثقًا من أن قاطني منزل آستلي بريورز لن يعترضوا طريقه إلا في وقت بعينه، لذا قرر تومي أن يفاجئهم.

رغم هذا، حدث شيء ما أقلقه في منتصف الليل، فقد أخبره أحد العاملين في النزل بأن هناك شخصًا يرغب في رؤيته في المشرب. تبين بعد هذا أن من يطلب رؤيته سائق عربة مغطى تمامًا بالوحل.

سأله تومي: "ما الأمر يا صديقي؟".

قال السائق: "هذه الرسالة لك يا سيدي"، وأعطاه رسالة مطوية موحلة مكتوبًا على ظهرها: "سلم الرسالة إلى الرجل الذي يقطن في النزل بجانب منزل آستلي بريورز وسيعطيك عشرة شلنات".

كانت الرسالة بخط يد توبينس. شعر تومي بالاحترام نحو سرعة بديهتها حيث إنها أدركت أنه سيقيم في الحانة تحت اسم مستعار، فشعر بارتياح شديد.

قال تومي: "حسنًا".

تمسك الرجل بالرسالة قائلاً:

"ماذا عن العشرة شلنات؟".

أخرج تومي ورقة العشرة شلنات وأعطاها للرجل الذي ترك الرسالة، ففضها تومي بسرعة وقرأها.

عزيزي تومي،

أعلم أنك من كان يغني ليلة البارحة. لا تأت الليلة، فإنهم في انتظارك. سينقلوننا من المنزل هذا الصباح. سمعت أمرًا ما عن ويلز – هوليهيد على ما أعتقد. سألقي بهذه الرسالة على الطريق وربما يحالفني الحظ. لقد أخبرتني أنيت بهروبك. تشجع.

المخلصة،

توبينس

نادى تومي ألبرت قبل حتى أن ينهي قراءة الرسالة قائلاً:

"جهز حقائبي، سنرحل".

قال ألبرت: "على الفور، سيدي"، وكان يمكن سماع قرع حذاء ألبرت وهو يصعد الدرج مسرعًا.

هوليهيد؟ هل هذا ما في الأمر، بعد كل ما حدث – شعر تومي بالحيرة، وتابع قراءة الرسالة ببطء.

كان يسمع صوت حذاء ألبرت وهو يتحرك في الطابق العلوي.

فجأة، تصاعد صوت صيحة من الطابق السفلي، حيث صاح تومي قائلاً:

"ألبرت. أنا أحمق، لا تجهز الحقيبة".

قال ألبرت: "أمرك سيدي".

فرد تومي الورقة بعناية وقال:

"نعم، أنا أحمق، ولكن هناك شخصًا آخر أحمق، ولقد عرفته أخيرًا".

الرابع والعشرون

جوليوس يقدم المساعدة

في جناحه في فندق كلاريدج، كان كرامينين يتكئ على إحدى الأرائك ويلقي بأوامره إلى سكرتيره باللغة الروسية.

في الوقت ذاته، رن جرس الهاتف الذي كان يحمله السكرتير على ذراعه، فرفع السماعة وتحدث لبعض الوقت، ثم التفت إلى رئيسه قائلاً:

"هناك من يريد رؤيتك في بهو الفندق".

قال كرامينين: "من هو؟".

قال السكرتير: "قدم نفسه على أنه السيد جوليوس هيرشايمر".

ردد كرامينين الاسم قائلاً: "هيرشايمر. لقد سمعت بهذا الاسم من قبل".

قال السكرتير الذي كانت وظيفته تحتم عليه الإلمام بجميع الأمور:

"إنه ابن أحد أباطرة صناعة الحديد في أمريكا. لابد أن هذا الشاب مليونير كبير".

ضاقت عينا كرامينين وقال:

"من الأفضل أن تذهب أنت إليه يا إيفان وتكتشف ما يريد".

أطاعه السكرتير، وخرج من الجناح وأغلق الباب خلفه في صمت، ثم عاد بعد بضع دقائق قائلاً:

"لقد رفض أن يبوح لي بما يريد - أخبرني بأن الأمر شخصي وحساس، وأنه لا بد أن يراك".

غمغم كرامينين: "مليونير كبير. دعه يصعد، عزيزي إيفان".

غادر السكرتير الغرفة مرة أخرى، وعاد وبصحبته جوليوس، الذي قال على الفور:

"سيد كرامينين؟".

انحنى الروسي وهو يفحص جوليوس بعينيه الشاحبتين الحاقدتين.

قال الأمريكي: "لقد سعدت بلقائك. هناك أمر على قدر كبير من الأهمية ارغب في الحديث معك بشأنه، على انفراد"، ثم أشار بعينيه إلى السكرتير.

قال كرامينين: "إني لا أخفي عن سكرتيري السيد جرايبر، أية أسرار".

قال جوليوس بجفاء: "ربما كنت كذلك - ولكن يجب أن أقول لك أن تطلب منه المغادرة".

قال كرامينين بهدوء: "إيفان، هل من الممكن أن تنتظر في الغرفة المجاورة ــــ".

قاطعه جوليوس قائلاً: "لن تصلح الغرفة المجاورة، أنا أعلم جيدًا تصميم هذه الأجنحة المكونة من غرفتين - وأرغب في ألا يكون هناك أي شخص في الجناح بأكمله عدا أنا وأنت. أرسله إلى المتجر ليشتري بما قيمته بنس واحد من المكسرات".

على الرغم من عدم راحته لأسلوب الأمريكي المتحرر في الحديث، فإن الفضول كان يقتل كرامينين الذي قال:

"هل سيستغرق الأمر وقتًا طويلاً؟".

قال جوليوس: "قد يستغرق الليل بأكمله إذا ما أثار اهتمامك".

قال كرامينين: "حسنًا إذن. إيفان، لن أحتاج إليك لهذه الليلة مرة أخرى. اذهب إلى المسرح - خذ الليلة إجازة".

قال إيفان: "شكرًا لك سيدي".

انحنى السكرتير ثم غادر الغرفة.

وقف جوليوس على عتبة الباب يراقبه حتى اختفى، ثم تنهد في النهاية في راحة وأغلق الباب، ثم عاد إلى مكانه السابق في منتصف الغرفة.

قال كرامينين: "والآن يا سيد هيرشايمر. أرجو أن تكون عطوفًا وتخبرني بالأمر".

قال جوليوس: "لن يستغرق الأمر طويلاً"، ثم تغير أسلوبه وهو يقول: "ارفع يديك لأعلى - وإلا أطلقت النار عليك".

حدق كرامينين للحظة في المسدس الآلي المصوب نحوه، ثم أسرع بشكل مضحك ورفع يديه فوق رأسه. في تلك اللحظة، قرر جوليوس ما سيفعله. إن الرجل الذي كان عليه التعامل معه تبين أنه جبان - لذا فإن ما يلي سيكون سهلاً.

صاح الروسي بهستيرية: "هذه إهانة بالغة. إهانة. هل تريد قتلي؟".

قال جوليوس: "ليس إذا خفضت صوتك. لا تتحرك نحو الجرس. هذا أفضل".

قال كرامينين: "ماذا تريد؟ لا تفعل أي شيء تندم عليه. تذكر أن حياتي مهمة للغاية بالنسبة لدولتي، ربما وشى بي شخص ما ـــــ".

قال جوليوس: "أعتقد أن الرجل الذي سيقتلك، سيقدم للبشرية جمعاء خدمة جليلة، ولكن لا تقلق، أنا لا أنوي قتلك هذه المرة - هذا ما في الأمر، إذا ما كنت عاقلاً".

ارتجف الروسي جراء النظرة الصارمة التي ظهرت في عيني جوليوس، ولعق شفتيه الجافتين بلسانه، وقال:

"ماذا تريد؟ نقودًا؟".

قال جوليوس: "لا، أنا أريد جاين فين".

قال كرامينين: "جاين فين؟ لم أسمع بهذا الاسم في حياتي".

قال جوليوس: "كاذب. أنت تعلم تمام المعرفة ما أعني".

قال كرامينين: "قلت لك لم أسمع عنها في حياتي".

صاح جوليوس: "وأنا أقول لك إن هذا المسدس يتوق للانطلاق".

شحب وجه الروسي بشدة وقال:

"أنت لن تجرؤ على ـــــ"

قال جوليوس: "بل سأجرؤ".

لاحظ كرامينين شيئًا ما في صوت جوليوس أقنعه على الفور، فقال فجأة:

"حسنًا، افترض أنني أعلم من تتحدث عنها، ماذا سيحدث؟".

قال جوليوس: "ستخبرني الآن - على الفور - أين هي؟".

هز كرامينين رأسه وقال:

"لن أجرؤ على هذا".

قال جوليوس: "ولم لا؟".

قال كرامينين: "لن أجرؤ على هذا، أنت تطلب المستحيل".

قال جوليوس: "أنت خائف، أليس كذلك؟ السيد براون؟ هذا ما يقلقك. هناك شخص ما بالفعل يُدعى السيد براون إذن؟ كنت أشك في هذا، ومجرد ذكر اسمه يجعلك ترتعد خوفًا".

قال له الروسي ببطء: "لقد رأيته، وتحدثت معه وجهًا لوجه. لم أكن أعلم هذا حتى وقت لاحق. لقد كان واحدًا من المجموعة. لا يجب أن أتعرف عليه مرة أخرى. من هو حقيقة؟ لا أعلم، ولكني أعرف أنه رجل يجب أن نخشاه".

قال جوليوس: "إنه لن يعرف أي شيء عما ستقوله".

قال كرامينين: "إنه يعلم كل شيء - كما أن انتقامه سريع. حتى أنا - كرامينين - لن أُعفى من انتقامه".

قال جوليوس: "لن تخبرني بما أريد إذن؟".

هبطا الدرج معًا، وسارا نحو السيارة. كان الروسي يرتجف من الغضب، أحاط بهما خدم الفندق، حاول أن يصرخ مستنجدًا بهم، ولكن خذلته شجاعته في اللحظة الأخيرة، فقد كان الأمريكي يحترم كلمته.

عندما وصلا إلى السيارة، تنفس جوليوس الصعداء، فقد خرجا من منطقة الخطر، كان الخوف قد سيطر على الرجل الروسي تمامًا.

قال جوليوس آمرًا: "اركب السيارة"، وعندما لاحظ النظرة الجانبية التي رمقه بها كرامينين قال: "لا، لن يساعدك السائق. لقد كان بحارًا يخدم على غواصة روسية عندما اندلعت الثورة، وقد قتل رجالك أخاه. جورج".

التفت السائق للخلف وقال: "نعم سيدي".

قال جوليوس: "هذا الرجل روسي بلشفي. إننا لا نرغب في إطلاق النار عليه إلا عند الضرورة. هل تفهم ذلك؟".

قال السائق: "أفهمه تمامًا يا سيدي".

قال جوليوس: "أرغب في الذهاب إلى جايت هاوس في كنت، هل تعرف الطريق؟".

قال السائق: "نعم يا سيدي، سيستغرق الطريق ساعة ونصف الساعة".

قال جوليوس: "اجعلها ساعة، أنا على عجلة من أمري".

قال السائق: "سأبذل أقصى ما بوسعي يا سيدي"، وانطلقت السيارة عبر الزحام.

جلس جوليوس بجانب أسيره واضعًا يده في جيب معطفه، ولكنه كان يتعامل بأدب جم.

قال جوليوس مبتهجًا: "كان هناك رجل أطلقت النار عليه في أريزونا ــــ".

في نهاية الرحلة التي استغرقت ساعة، كان كرامينين سيئ الحظ، أقرب إلى الموت من الحياة. بعد أن استمع إلى ما حدث للرجل في أريزونا، استمع إلى قصة أخرى عن رجل من فريسكو، وأخرى عن رجل في جبال روكي. كان أسلوب جوليوس في رواية القصص، على الرغم من عدم دقته، معبرًا للغاية.

أبطأ السائق من سرعة السيارة، ونظر للخلف وأخبرهما بأنهما على وشك الوصول إلى جايت هاوس. أمر جوليوس الرجل الروسي بأن يدلهما على الطريق. كانت خطته هي أن يدخل بالسيارة حتى باب المنزل، وهناك سيسأل كرامينين عن الفتاتين. قال له جوليوس إن مسدسه لا يتسامح مع الأخطاء. كان كرامينين في ذلك الوقت كالدمية بين يدي جوليوس. كانت السرعة الخارقة التي وصلوا بها إلى وجهتهم قد أفقدته شجاعته بأكملها. كان قد أعد نفسه للموت في أية لحظة.

قطعت السيارة الطريق المؤدي للمنزل وتوقفت أمام الشرفة، فنظر السائق إلى الخلف منتظرًا أوامر جوليوس.

قال جوليوس: "عدل وجهة السيارة أولاً يا جورج، ثم اذهب لقرع الجرس وعد إلى مكانك. ولا توقف المحرك، واستعد لأن تنطلق بأقصى سرعة عندما آمرك بهذا".

قال جورج: "حسنًا يا سيدي".

فتح رئيس الخدم الباب، وشعر كرامينين بالمسدس يضغط على أضلاعه.

همس له جوليوس:

"الآن، وكن حذرًا".

أشار الروسي لرئيس الخدم، وكانت شفتاه شاحبتين وصوته مرتعشًا وهو يقول:

"إنه أنا كرامينين. أحضر الفتاة على الفور، لا يوجد وقت لنضيعه".

هبط ويتنجتون الدرج، وأطلق صيحة تعجب عندما رأى جوليوس وقال:

"أنت، ما الأمر؟ من المؤكد أنك تعرف الخطة ــــ".

قاطعه كرامينين مستخدمًا الكلمات التي طالما سببت الهلع غير المبرر:

"هناك من خاننا. يجب تغيير الخطة. يجب أن ننقذ أنفسنا. أحضر الفتاة على الفور. إنها فرصتك الوحيدة".

هبطا الدرج معًا، وسارا نحو السيارة. كان الروسي يرتجف من الغضب. أحاط بهما خدم الفندق، حاول أن يصرخ مستنجدًا بهم، ولكن خذلته شجاعته في اللحظة الأخيرة، فقد كان الأمريكي يحترم كلمته.

عندما وصلا إلى السيارة، تنفس جوليوس الصعداء، فقد خرجا من منطقة الخطر، كان الخوف قد سيطر على الرجل الروسي تمامًا.

قال جوليوس آمرًا: "اركب السيارة"، وعندما لاحظ النظرة الجانبية التي رمقه بها كرامينين قال: "لا، لن يساعدك السائق. لقد كان بحارًا يخدم على غواصة روسية عندما اندلعت الثورة، وقد قتل رجالك أخاه. جورج".

التفت السائق للخلف وقال: "نعم سيدي".

قال جوليوس: "هذا الرجل روسي بلشفي. إننا لا نرغب في إطلاق النار عليه إلا عند الضرورة. هل تفهم ذلك؟".

قال السائق: "أفهمه تمامًا يا سيدي".

قال جوليوس: "أرغب في الذهاب إلى جايت هاوس في كنت، هل تعرف الطريق؟".

قال السائق: "نعم يا سيدي، سيستغرق الطريق ساعة ونصف الساعة".

قال جوليوس: "اجعلها ساعة، أنا على عجلة من أمري".

قال السائق: "سأبذل أقصى ما بوسعي يا سيدي"، وانطلقت السيارة عبر الزحام.

جلس جوليوس بجانب أسيره واضعًا يده في جيب معطفه، ولكنه كان يتعامل بأدب جم.

قال جوليوس مبتهجًا: "كان هناك رجل أطلقت النار عليه في أريزونا ــــ".

في نهاية الرحلة التي استغرقت ساعة، كان كرامينين سيئ الحظ، أقرب إلى الموت من الحياة. بعد أن استمع إلى ما حدث للرجل في أريزونا، استمع إلى قصة أخرى عن رجل من فريسكو، وأخرى عن رجل في جبال روكي. كان أسلوب جوليوس في رواية القصص، على الرغم من عدم دقته، معبرًا للغاية.

أبطأ السائق من سرعة السيارة، ونظر للخلف وأخبرهما بأنهما على وشك الوصول إلى جايت هاوس. أمر جوليوس الرجل الروسي بأن يدلهما على الطريق. كانت خطته هي أن يدخل بالسيارة حتى باب المنزل، وهناك سيسأل كرامينين عن الفتاتين. قال له جوليوس إن مسدسه لا يتسامح مع الأخطاء. كان كرامينين في ذلك الوقت كالدمية بين يدي جوليوس. كانت السرعة الخارقة التي وصلوا بها إلى وجهتهم قد أفقدته شجاعته بأكملها. كان قد أعد نفسه للموت في أية لحظة.

قطعت السيارة الطريق المؤدي للمنزل وتوقفت أمام الشرفة، فنظر السائق إلى الخلف منتظرًا أوامر جوليوس.

قال جوليوس: "عدل وجهة السيارة أولاً يا جورج، ثم اذهب لقرع الجرس وعد إلى مكانك. ولا توقف المحرك، واستعد لأن تنطلق بأقصى سرعة عندما آمرك بهذا".

قال جورج: "حسنًا يا سيدي".

فتح رئيس الخدم الباب، وشعر كرامينين بالمسدس يضغط على أضلاعه.

همس له جوليوس:

"الآن، وكن حذرًا".

أشار الروسي لرئيس الخدم، وكانت شفتاه شاحبتين وصوته مرتعشًا وهو يقول:

"إنه أنا كرامينين. أحضر الفتاة على الفور، لا يوجد وقت لنضيعه".

هبط ويتنجتون الدرج، وأطلق صيحة تعجب عندما رأى جوليوس وقال:

"أنت، ما الأمر؟ من المؤكد أنك تعرف الخطة ــــ".

قاطعه كرامينين مستخدمًا الكلمات التي طالما سببت الهلع غير المبرر:

"هناك من خاننا. يجب تغيير الخطة. يجب أن ننقذ أنفسنا. أحضر الفتاة على الفور. إنها فرصتك الوحيدة".

تردد ويتنجتون للحظات ثم قال: "هل أتتك الأوامر منه؟".

قال كرامينين: "أمر بديهي. هل كنت سآتي إلى هنا من تلقاء نفسي؟ أسرع لا يوجد وقت لنضيعه. يجب أن تحضر الفتاة الأخرى الحمقاء أيضًا".

استدار ويتنجتون وبدأ يعدو نحو المنزل، ومرت الدقائق ببطء شديد، ثم ظهر شخصان مكبلان بالقيود وتم دفعهما نحو السيارة. حاولت الفتاة الأصغر حجمًا أن تقاوم، ولكن ويتنجتون دفعها إلى داخل السيارة. انحنى جوليوس إلى الأمام، وعندما فعل هذا، سقط ضوء الباب المفتوح على وجهه، فأطلق رجل آخر من خلف ويتنجتون، يقف على قمة الدرج صيحة تعجب، لقد انكشف أمرهم.

صاح جوليوس: "انطلق يا جورج".

ضغط السائق دواسة الوقود بقوة، فاندفعت السيارة بسرعة كبيرة.

أطلق الرجل على قمة الدرج سبابًا، واندفعت يده نحو جيبه. بعد ذلك لمع ضوء مبهر وصوت عال، ومرت الرصاصة على بعد بوصة واحدة من الفتاة الأطول.

صاح جوليوس: "انحني يا جاين. اهبطي إلى قاع السيارة"، دفعها بقوة إلى الأسفل، ثم وقف وصوب بدقة وأطلق النار.

صاحت توبينس: "هل أصبته؟".

أجابها جوليوس: "بالتأكيد، ولكني لم أقتله. إن هذا المجرم لن يموت بسهولة. هل أنت بخير يا توبينس؟".

قالت توبينس: "بالطبع. أين تومي؟ ومن هذا الرجل؟"، قالتها وهي تشير إلى كرامينين المرتجف.

قال جوليوس: "لقد سافر تومي إلى الأرجنتين. لقد اعتقد أنك قد مت. اخترق البوابة يا جورج، أحسنت. سيستغرق الأمر خمس دقائق قبل أن يبدأوا في مطاردتنا. أعتقد أنهم سيستخدمون الهاتف، لذا احترس من وضع الشراك أمامك - ولا تسر في طريق مستقيم. كنت تقولين من هذا يا توبينس، أليس كذلك؟ دعيني أعرفك على السيد كرامينين. لقد أقنعته بالقيام بهذه الرحلة من

أجل الاستشفاء".

ظل الروسي صامتًا وهو يرتعد في خوف.

سألته توبينس بشك: "ولكن ما الذي جعلهم يطلقون سراحنا؟".

قال جوليوس: "أعتقد أن السيد كرامينين قد طلب منهم هذا بأدب جم، فلم يتمكنوا من رفض طلبه".

كان هذا أكثر مما يتحمل الرجل الروسي الذي قال فجأة:

"اللعنة عليك - اللعنة عليك. إنهم يعلمون الآن أنني قد خنتهم. لن يمكنني أن آمن على حياتي لساعة واحدة في هذا البلد".

وافقه جوليوس قائلاً: "هذا صحيح. أنصحك بالعودة إلى روسيا على الفور".

صاح الروسي: "دعني أذهب إذن. لقد قمت بما طلبته مني. لماذا تحتجزني؟".

قال جوليوس: "ليس لأني أستمتع بصحبتك. أعتقد أنه يمكنك الذهاب الآن إذا أردت، ولكني كنت أفضل اصطحابك إلى لندن".

قال الروسي: "إنك لن تصل أبدًا إلى لندن، دعني أذهب الآن".

قال جوليوس: "بالتأكيد. توقف يا جورج. إن الرجل لا يرغب في العودة معنا. إذا ما ذهبت إلى روسيا يا سيد كرامينين، أتوقع أن تستقبلني بحرارة و ــــ".

ولكن قبل أن ينهي جوليوس جملته، وقبل حتى أن تتوقف السيارة تمامًا، كان الرجل قد ألقى بنفسه منها واختفى في الظلام.

قال جوليوس عندما انطلقت السيارة مرة أخرى:

"لقد كان يتوق للمغادرة. كما أنه لم يودع السيدتين بأدب. جاين، يمكنك النهوض الآن".

تحدثت جاين للمرة الأولى قائلة:

"كيف تمكنت من إقناعه؟".

ربت جوليوس على مسدسه وقال:

"يعود الفضل إلى هذا المسدس".

صاحت الفتاة وقد أشرب وجهها بحمرة الخجل وهي تنظر إلى جوليوس بإعجاب:

"رائع".

قالت توبينس: "لم نكن أنا وآنيت نعلم ما سيحدث لنا. لقد أسرع ويتنجتون بإخراجنا، فاعتقدنا أنها النهاية".

قال جوليوس: "آنيت، هل هذا ما تطلقينه عليها؟".

بدا أن عقله يحاول استيعاب الفكرة الجديدة.

قالت توبينس وهي تفتح عينيها عن آخرهما:

"هذا اسمها".

قال جوليوس: "اللعنة. ربما تعتقد أن هذا اسمها لأنها فقدت ذاكرتها، الفتاة المسكينة، ولكننا حررنا جاين فين الحقيقية هذه".

صاحت توبينس: "ماذا ـــــ؟"

ولكنها قطعت حديثها، وبصوت غاضب، انغرست رصاصة في مقعد السيارة خلف رأسها.

صاح جوليوس: "أخفضا رأسيكما، إنه كمين. إن هؤلاء الأشخاص يتصرفون بسرعة كبيرة. أسرع يا جورج".

انطلقت السيارة بسرعة كبيرة إلى الأمام، وسُمع دوي ثلاث رصاصات أخرى، ولكنها لم تصب السيارة، فنهض جوليوس، وانحنى على جانب السيارة وقال:

"لا يوجد من أطلق النار عليه، ولكني أعتقد أنه سيكون هناك كمين آخر في القريب العاجل".

رفع جوليوس يده ليضعها على وجنته فقالت آنيت بسرعة:

"هل أصبت؟".

قال جوليوس: "مجرد خدش بسيط".

نهضت الفتاة على قدميها وقالت:

"دعني أخرج، دعني أخرج، أوقف السيارة. إنهم يبحثون عني. يجب ألا تفقدوا حياتكم بسببي. دعوني أرحل"، كانت الفتاة تحاول فتح باب السيارة.

أمسكها جوليوس من ذراعيها ونظر في عينيها، فقد كانت تتحدث دون لكنتها الأجنبية، وقال بلطف:

"اجلسي يا عزيزتي. أعتقد أنه لا يوجد خطب ما بذاكرتك. لقد كنت تخدعينهم طوال هذا الوقت، أليس كذلك؟".

نظرت له الفتاة، وأومأت برأسها، ثم انفجرت باكية، فربت جوليوس كتفها وقال:

"اهدئي، اهدئي - فقط اجلسي. إننا لن نتركك".

قالت الفتاة وسط دموعها:

"إنك من أمريكا. يمكنني أن أخمن هذا من لكنتك. هذا يشعرني بالحنين للوطن".

قال جوليوس: "بالطبع أنا من الوطن. أنا ابن خالك - جوليوس هيرشايمر. لقد جئت إلى أوروبا من أجل العثور عليك - ويا له من حظ سعيد أنني تمكنت من هذا".

هدأت سرعة السيارة، وقال جورج:

"لقد وصلنا إلى مفترق طرق، وأنا لا أعرف إلى أي طريق أتوجه".

أبطأت السيارة كثيرًا لدرجة أنها كانت على وشك التوقف، عندما تسلق شخص ما السيارة وأدخل رأسه إلى داخلها، وكان تومي الذي قال:

"آسف".

نظر له الجميع بدهشة، فقال:

"لقد كنت بين الشجيرات التي تحيط بالطريق في المنزل، وتمسكت بالسيارة من الخلف، ولم يكن من الممكن أن أجعلكم تعلمون بوجودي قبل أن تخف سرعة السيارة. كل ما أمكنني فعله هو التمسك بالسيارة. والآن، اخرجا أيتها الفتاتان من السيارة".

قالت توبينس: "نخرج؟".

قال تومي: "نعم، هناك محطة قطار في هذا الاتجاه. سيصل القطار بعد ثلاث دقائق، ستتمكنان من اللحاق به إن أسرعتما".

سأله جوليوس: "ما الذي تهدف إليه بحق السماء؟ هل تعتقد أنهم سينخدعون بتركهما السيارة؟".

قال تومي: "أنا وأنت لن نترك السيارة، فقط الفتاتان".

قال جوليوس: "هل جننت يا بيريسفورد. لا يمكنك أن تترك الفتاتين في الخارج بمفردهما، ستكون هذه هي النهاية".

التفت تومي إلى توبينس وقال:

"اخرجي على الفور يا توبينس. خذيها معك، وافعلي كما أقول لك. لن يتمكن أحد من إيذائك، إنك في أمان. استقلي القطار إلى لندن، واذهبي مباشرة إلى السير جايمس بيل إدجارتون. إن السيد كارتر خارج المدينة ولكنك ستكونين في أمان معه".

صاح جوليوس: "اللعنة عليك، هل جننت؟ جاين ابقي مكانك".

وبحركة سريعة، اختطف تومي المسدس من جوليوس وصوبه نحوه وقال:

"ستصدق الآن أنني لم أجن؟ اخرجا، وافعلا ما قلته لكما - وإلا سأطلق النار".

خرجت توبينس من السيارة مسرعة، وهي تجذب جاين التي لا حول لها ولا قوة خلفها، قائلة:

"هيا، لا بأس، مادام تومي واثقًا مما يقول - فكل شيء على ما يرام. أسرعي سيفوتنا القطار".

بدأت الفتاتان في العدو.

صاح جوليوس في غضب: "ما الذي تفعله بحق ـــــ"

قاطعه تومي قائلاً:

"اهدأ. هناك أمر أرغب في التحدث معك بشأنه يا سيد جوليوس هيرشايمر".

الخامس والعشرون

قصة جاين

وصلت توبينس إلى محطة القطار وهي تتأبط ذراع جاين ساحبة إياها على طول الطريق، والتقطت أذناها صوت القطار وهو يقترب.

قالت توبينس وهي تلهث:

"أسرعي وإلا سيفوتنا القطار".

وصلتا إلى رصيف المحطة في اللحظة نفسها التي توقف القطار فيها. فتحت توبينس باب إحدى مقصورات الدرجة الأولى الفارغة، وألقت الفتاتان نفسيهما على المقاعد المبطنة.

نظر رجل داخل المقصورة، ثم انتقل إلى المقصورة التالية، ولكن جاين قفزت من مكانها بعصبية، وكان الرعب يملأ عينيها، ونظرت متسائلة إلى توبينس وقالت:

"هل هو أحد أفراد العصابة؟ هل تعتقدين ذلك؟".

هزت توبينس رأسها نفيًا، ثم قالت:

"لا، لا، كل شيء على خير ما يرام"، ثم أمسكت بيدي جاين بين يديها وقالت:

"لم يكن تومي ليطلب منا فعل ذلك إن لم يكن متأكدًا مما يفعل".

قالت جاين: "ولكنه لا يعرفهم مثلما أعرفهم أنا"، وارتجفت الفتاة ثم قالت:

"أنت لا تفهمين. خمس سنوات - خمس سنوات طوال. كنت أشعر أحيانًا بأني سأُجن".

قالت توبينس: "لا عليك، لقد انتهى الأمر".

قالت جاين: "حقًا؟".

بدأ القطار في التحرك، وبدأت سرعته في التزايد تحت ستار الليل، وفجأة قفزت جاين من مكانها وقالت:

"ماذا كان هذا؟ أعتقد بأني رأيت وجهًا - ينظر من خلال النافذة".

قالت توبينس: "لا، لا يوجد أي شيء، انظري"، ثم حلت الرباط الذي يربط النافذة الزجاجية وفتحتها على مصراعيها.

قالت جاين: "هل أنت واثقة؟".

قالت توبينس: "تمام الثقة".

شعرت جاين بأنها بحاجة إلى تبرير ما فعلته، فقالت:

"أعتقد أني أتصرف كما لو كنت أرنبًا خائفًا، ولكن الأمر ليس بيدي، فإذا ما أمسكوا بي الآن فسوف ـــــ"، واتسعت عيناها في ذعر.

توسلت لها توبينس قائلة:

"لا تفعلي. اتكئي للخلف ولا تفكري في الأمر. لم يكن تومي ليجعلنا نقوم بهذا الأمر إن لم يكن آمنًا".

قالت جاين: "ولكن ابن خالي لم يكن يعتقد أن الأمر آمن. لم يكن يريدنا أن نرحل".

قالت توبينس وهي تشعر بالإحراج:

"لا".

قالت جاين بحدة: "ما الذي تفكرين به؟".

قالت توبينس: "لماذا؟".

قالت جاين: "لقد كانت هناك نبرة غريبة في صوتك".

قالت توبينس: "كنت أفكر في أمر ما، ولكني لا أرغب في أن أخبرك به في الوقت الحالي. قد أكون مخطئة، ولكني لا أعتقد هذا. إنها مجرد فكرة مرت بخاطري منذ قوت طويل مضى. أعتقد أن تومي أدرك الأمر هو أيضًا - أثق بهذا. لكن، لا تقلقي - سيتوافر لنا الكثير من الوقت فيما بعد لنتحدث عن الأمر، وربما نكون مخطئين. والآن، افعلي ما أقوله لك - اتكئي للخلف ولا تفكري في أي شيء".

انخفضت الرموش الطويلة على عيني جاين الخضراوين وهي تقول:

"سأحاول".

جلست توبينس متيقظة بشدة - كانت تشبه في هذا الوضع، كلب الحراسة. لم تتمكن من منع نفسها من الشعور بالعصبية. كانت عيناها تتنقلان بسرعة بين النافذتين. كانت قد حددت موضع مقبض الطوارئ. لم تكن توبينس قادرة على التعبير عما تخشاه بالكلمات، ولكنها كانت في نفسها بعيدة كل البعد عن الثقة التي كانت تظهر في كلماتها. ليس لأنها لم تكن واثقة في تومي، بل لأنها كانت تشك أحيانًا في قدرة شخص بسيط وشريف مثل تومي على مواجهة العقلية الإجرامية الفذة لذلك المجرم العتيد.

إذا ما تمكنتا من الوصول إلى السير جايمس بيل إدجارتون بأمان، فسيكون كل شيء على خير ما يرام. ولكن هل ستتمكنان من الوصول إليه؟ ألم تبدأ القوى الخفية التابعة للسيد براون في التجمع للحيلولة دون ذلك؟ حتى ذلك المشهد الأخير الذي رأت فيه تومي وهو يقبض على المسدس لم تجعلها تشعر بالراحة. ربما تمكنوا من التغلب عليه الآن بفضل كثرة أعدادهم... وضعت توبينس خطتها للنجاح في مسعاها.

عندما أبطأ القطار من سرعته باقترابه من محطة شايرينج كروس، وقفت جاين فين مفزوعة وقالت:

"هل وصلنا؟".

قالت توبينس: "نعم، لقد وصلنا إلى لندن بدون أية مشكلات. إذا ما كان سيحدث أمر ما لنا، أعتقد أن هذا سيبدأ الآن. أسرعي، اخرجي من القطار. سنستقل واحدة من سيارات الأجرة".

بعد دقيقة، كانتا تعبران حاجز المحطة بعد أن دفعتا الرسوم المطلوبة، وقفزتا في سيارة أجرة.

قالت توبينس للسائق: "إلى محطة كينجز كروس"، ثم شعرت بالفزع، فقد نظر رجل ما عبر نافذة السيارة في أثناء الاستعداد للانطلاق، وكانت توبينس واثقة من أنه الرجل نفسه الذي دخل المقصورة التي كانت تجاورهما في القطار. كانت تشعر بأن هناك من يراقبها من جميع الاتجاهات.

قالت توبينس لـ جاين: "اسمعي. إذا ما كانوا يعتقدون أننا ذاهبتان إلى السير جايمس، فإنهم سيفقدون أثرنا، والآن قد يتصورون أننا ذاهبتان إلى السيد كارتر. إن منزله الريفي يقع في مكان ما في شمال لندن".

عندما وصلت السيارة إلى كروسينج هولبورن، كان هناك زحام شديد وتوقفت السيارة تمامًا. كان هذا ما تنظره توبينس التي قالت لـ جاين:

"أسرعي. افتحي الباب من ناحيتك".

خرجت الفتاتان من السيارة إلى الزحام، وبعد دقيقتين كانتا تستقلان سيارة أجرة أخرى وتعودان إلى طريقهما الرئيسي، هذه المرة نحو منزل كارلتون هاوس تيراس.

قالت توبينس وصوتها يحمل الكثير من الرضا:

"حسنًا، هذا من شأنه أن يشتتهم. لا يمكنني التوقف عن التفكير في مدى مهارتي. أعتقد أن سائق السيارة الأخرى يصب علينا اللعنات حاليًا، ولكني دونت رقم لوحات سيارته، وسأرسل له أجرته بالبريد غدًا، وبهذا لن يكون قد خسر ماله. ماذا يفعل ذلك السائق - أوه".

كان هناك صوت ضوضاء عالية وصدمة. لقد اصطدمت بهم سيارة أجرة أخرى.

في لمح البصر، خرجت توبينس من السيارة، وكان هناك شرطي يقترب من موقع الحادث. قبل أن يصل الشرطي، كانت توبينس تعطي سائق السيارة خمس شلنات، واختفت هي وجاين وسط الزحام.

قالت توبينس وهي تلهث:

"لقد اقتربنا كثيرًا"، كان الحادث قد وقع في ميدان ترافلجار.

قالت جاين: "هل تعتقدين أن الحادث قد وقع بشكل عرضي، أم متعمد؟".

قالت توبينس: "لا أعلم. الاحتمالان قائمان".

أسرعت الفتاتان الخطى وأيديهما متشابكتان.

قالت توبينس فجأة: "ربما كنت أتخيل، ولكني أشعر بأن هناك من يتبعنا".

غمغمت جاين: "أسرعي، أسرعي".

كانتا قد وصلتا إلى ناصية الشارع الذي يقع به منزل كارلتون هاوس تيراس، وشعرتا بأن معنوياتهما في عنان السماء، ولكن فجأة، اعترض طريقهما رجل ضخم يبدو عليه عدم الاتزان قائلاً:

"مساء الخير سيداتي، إلى أين تذهبان بهذه السرعة؟".

قالت توبينس بشكل آخر: "دعنا نمر من فضلك".

قال الرجل: "أريد أن أقول كلمة لصديقتك الجميلة هذه"، ومد يده المرتعشة وأمسك جاين من كتفيها. سمعت توبينس صوت أقدام أخرى قادمة من الخلف. لم تتوقف توبينس لتحاول أن تعرف ما إذا كان القادمون أصدقاء أم أعداء، أحنت رأسها على الفور، منفذة مناورة تعلمتها أيام الطفولة، وضربت الرجل الذي يعترض طريقهما بقوة في بطنه الكبير. نجحت مناورة توبينس على الفور، واستقر المقام بالرجل جالسًا يتألم على الرصيف، وبدأت كل من توبينس وجاين في العدو بأقصى ما أوتيتا من قوة. كان صوت خطوات الأقدام يتعالى من خلفهما، وكانتا تلهثان بشدة عندما وصلتا إلى باب منزل السير جايمس. ضغطت توبينس بشكل مستمر جرس الباب، في حين واصلت جاين الطرق على الباب.

وصل الرجل الذي كان يعترض طريقهما إلى الدرج المؤدي للمنزل، ولكنه تردد للحظة، وفي الوقت ذاته انفتح الباب، فدفعت الفتاتان نفسيهما إلى الداخل. خرج السير جايمس من غرفة المكتبة وهو يقول:

"مرحبًا. ما الأمر؟".

توجه السير جايمس نحوهما وأحاط جاين بذراعه حيث إنها كانت تترنح بشدة، واتكأت عليه جاين حتى وصلت إلى المكتبة، حيث أرقدها السير جايمس على واحدة من الأرائك. قام بعد ذلك بصب بعض من الشراب الذي كان على الطاولة في كأس وقدمه لها، بل وأجبرها على تناوله. جلست بعد ذلك وهي تتنهد في راحة، على الرغم من الرعب الظاهر في عينيها.

قال السير جايمس: "لا بأس. لا تخافي يا صغيرتي، لقد أصبحت بأمان الآن".

بدأت جاين تهدأ وينتظم تنفسها، وتعود الحمرة إلى وجنتيها، فنظر السير جايمس إلى توبينس في حيرة وقال:

"أنت لم تموتي إذن يا آنسة توبينس، كما كانت الحال مع صديقك تومي".

قالت توبينس: "إن شباب المغامرين لا يمكن قتلهم بسهولة".

قال السير جايمس باقتضاب: "يبدو هذا صحيحًا. هل أنا محق عندما أقول إن مغامرتكما المشتركة قد كُللت بالنجاح، وإن هذه هي الآنسة جاين فين؟".

نهضت جاين جالسة وقالت:

"نعم، أنا جاين فين، وهناك الكثير لأقصه عليك".

قال السير جايمس: "قصي قصتك عندما تستعيدين قوتك ـــــ"

ارتفع صوتها قليلاً وهي تقول:

"لا - الآن. سأشعر بالأمان أكثر عندما أبوح بما أخفيه".

قال المحامي: "كما ترغبين".

جلس السير جايمس على أحد المقاعد المواجهة للأريكة، في حين بدأت جاين في سرد قصتها بصوت منخفض قائلة:

"لقد صعدت على متن سفينة *لوزيتانيا* من أجل العمل في باريس. لقد كنت أعارض الحرب بشدة وكنت أتوق لأن أقدم المساعدة بطريقة أو بأخرى. كنت أدرس اللغة الفرنسية، وقال معلمي إنهم بحاجة للمساعدة في أحد المستشفيات في باريس، لذا أرسلت خطابًا للمستشفى عارضة خدماتي، وقد قبلوها. لم يتبق أحد من عائلتي، لذا كان من السهل عليَّ ترتيب أمور سفري.

عندما ضرب الطوربيد سفينة *لوزيتانيا*، اقترب رجل مني. كنت قد رأيته أكثر من مرة خلال الرحلة - وقد استقر في مخيلتي أنه خائف من شيء ما أو شخص ما. سألني إن كنت أمريكية وطنية، وأخبرني بأنه يحمل وثائق مهمة للغاية بالنسبة للحلفاء، وطلب مني أن آخذها. كان عليَّ أن أنتظر ظهور إعلان في جريدة التايمز، وإذا لم يُنشر الإعلان، كان عليَّ الذهاب إلى السفير الأمريكي.

كان أغلب ما حدث بعد ذلك يشبه الكابوس الذي يراودني في أثناء نومي في بعض الأحيان... لا حاجة بنا لذكر هذا الأمر. أخبرني السيد دانفرز أن أتوخى الحذر. ربما كان هناك من يراقبه منذ خروجه من نيويورك، ولكنه لم يكن يعتقد ذلك. في البداية، لم تراودني أية شكوك، ولكني شعرت بالقلق في القارب المتوجه إلى هوليهيد. كانت هناك امرأة معينة تهتم بي بشدة، وكانت تحاول أن تقيم علاقة صداقة معي - السيدة فانديماير. في البداية كنت أشعر بالامتنان لاهتمامها بي، ولكني كنت أشعر طوال الوقت بأن هناك أمرًا ما ينفرني منها، وبعد ذلك، عندما كنا على متن القارب الأيرلندي، رأيتها تتحدث مع رجل غريب الشكل، ومن الطريقة التي كانا ينظران بها نحوي، أدركت أنهما يتحدثان عني. تذكرت أنها كانت تقف بالقرب مني عندما أعطاني السيد دانفرز الوثائق، وقبل هذا، كانت تحاول أن تتحدث معه لمرة أو مرتين. بدأت أشعر بالخوف، ولكني لم أكن أدري ما يجب عليَّ أن أفعل.

كانت تراودني فكرة ملحة للتوقف في هوليهيد، وعدم الذهاب إلى لندن في ذلك اليوم، ولكني سرعان ما أدركت أن هذا سيكون عملاً أحمق. كان الحل الوحيد هو أن أتصرف كما لو كنت لم ألحظ أي شيء، وأن آمل في حدوث الأفضل. لم أكن أتخيل أنهم قادرون على النيل مني إذا ما توخيت الحذر. هناك أمر واحد

فعلته كإجراء احترازي، وهو أني فتحت لفافة القماش المشمع وأخرجت الوثائق ووضعت بدلاً منها أوراقًا فارغة، ثم خطتها مرة أخرى كما كانت، بحيث إذا تمكن أي شخص من سرقتها مني، فإن الأمر لن يكون مهمًا.

كان مـا يقلقنـي، هو ما الـذي سأفعله بالوثائق الحقيقية. فـي النهاية، فتحت الوثائـق - وكانـت عبارة عن ورقتين فقـط - ووضعتهما بين صفحتي إعلانات في إحـدى المجلات، وقمـت بلصق الصفحتين معًا ببعض الغـراء الذي أخرجته من أظرف الخطابات. ووضعت المجلة بدون اكتراث في جيب معطفي.

فـي هوليهيـد، حاولـت أن أدخـل مقصورة مـع أناس يبدون عاديين، ولكن بدا أن هنـاك مجموعـة من الأشخاص تحيـط بي طوال الوقـت وتدفعني في الاتجاه الـذي لا أرغـب فـي التوجه إليه. كان هنـاك أمر غريب ومخيـف حيال ما يحدث. فـي النهايـة، وجدت نفسي في مقصورة واحدة مع السيدة فانديماير. خرجت إلى الممـر، ولكـن جميع المقصورات الأخـرى كانت مليئة بالـركاب، لذلك اضطررت لأن أعـود وأجلـس معهـا. طمأنت نفسي لحقيقـة وجود أشخاص آخرين معنا في المقصـورة - كان هنـاك رجـل وسيـم وزوجتـه يجلسـان فـي المقعـد المقابل لي. شعـرت بالسعـادة لوجودهمـا حتـى وصلنا إلى مشـارف لندن، حيث اتـكأت للخلف وأغمضـت عينـي. أعتقد أنهم ظنوا أنني نمت، ولكن عيني كانتا نصف مفتوحتين، وفجأة رأيت الرجل الوسيم يخرج شيئًا ما من حقيبته ويعطيه للسيدة فانديماير، وغمز لها وهو يفعل ذلك ...

لا يمكننـي أن أعبـر لكما عن كيف أن هذه الغمـزة قد جمدت الدم في عروقي. كان كل مـا يـدور فـي عقلـي هو الخـروج إلى الممـر بأسرع وقت ممكن. تظاهرت بالاستيقـاظ محاولـة أن أبـدو طبيعية ومرتاحـة لأقصى حد. ربما كانـوا قد رأوا شيئًـا مـا باديًـا على وجهي - لا أعلـم - ولكن السيدة فانديمايـر قالت فجأة: الآن. ووضعت شيئًا ما على أنفي وفمي عندما حاولت أن أصرخ، وفي الوقت ذاته شعرت بضربة قوية على مؤخرة رأسي..."

ارتجفت قليلاً وهي تتحدث، فغمغم السير جايمس ببعض الكلمات المتعاطفة، وسرعان ما عادت لتواصل روايتها قائلة:

لا أعلـم كـم من الوقت فقدت الوعي، ولكن عندما أفقت كنت أشعر بأني لست علـى ما يـرام. كنت راقدة في فراش قذر، وكان مغطى بستـارة، ولكني تمكنت من سمـاع شخصيـن يتحدثـان في الغرفـة، وكانت السيـدة فانديماير واحـدة منهما. حاولـت أن أتسمـع مـا يُقـال، ولكني لـم أتمكن من ذلـك في البدايـة. عندما بدأت أستوعب ما يجري - شعرت بالهلع. وأتعجب من عدم صراخي في ذلك الوقت.

لـم يتمكنوا مـن العثور على الوثائق. لقد حصلوا على لفافة القماش المشمع التـي كان بداخلهـا الورق الفارغ، وكانوا يشعرون بغضب شديد. لم يكونوا يعلمون ما إذا كنت قد استبدلت الأوراق أم أن دانفرز كان يحمل رسالة زائفة، في حين يتم إرسـال الرسالة الحقيقيـة بطريقة أخرى. كانوا يتحدثـون عـن"، وأغلقت عينيها وهي تقول: "تعذيبي حتى أقر بمكان الوثائق.

لـم أكـن قـد شعرت بالخـوف - الخـوف الحقيقي - مـن قبل. عندمـا حضروا ليلقـوا نظـرة علـي، أغمضـت عينـيَّ متظاهرة بأنـي مازلـت فاقدة الوعـي، ولكني كنـت خائفـة مـن أن يسمعوا صـوت خفقان قلبـي، ولكنهـم ابتعدوا مجـددًا. بدأت فـي التفكيـر بسرعة الصاروخ. ما الـذي يمكنني فعله؟ كنت أعلـم أنني لن أتحمل التعذيب لوقت طويل.

وفجـأة، طـرأت علـيَّ فكرة فقدان الذاكرة. لطالما كان هذا الأمر يقع في نطاق اهتماماتـي، وكنت قرأت كثيرًا عنه. كانـت جميع الظروف مواتية للتظاهر بذلك، وإذا مـا تمكنـت مـن التظاهـر بمهارة، فقد ينقذنـي ذلك من التعذيـب. دعوت الله وسحبت نفسًا عميقًا، ثم فتحت عينيَّ وبدأت في التحدث بالفرنسية.

"جـاءت السيـدة فانديماير من خلـف الستارة على الفـور. كان الشر يطل من عينيهـا لدرجـة أني كدت أموت من الخوف، ولكنـي ابتسمت لها وقلت بالفرنسية: أين أنا.

تمكنـت مـن رؤية الحيـرة تملأ وجهها. نادت الرجل الـذي كانت تتحدث معه. وقـف إلـى جانـب الستـارة مبقيًا وجهه فـي الظل، وتحـدث معـي بالفرنسية. كان صوتـه عاديًـا وهادئـا ولكنـه بالرغـم مـن هـذا أخافني، ولكنـي واصلـت التظاهر. سألتهمـا مـرة أخرى عن أين أكون، ثم قلت إن هناك أمرًا ما عليَّ تذكره، يجب أن

أتذكره، إلا أنني تظاهرت بأن ذاكرتي بأكملها كانت قد مُحيت. سألني عن اسمي، فقلت لا أعلم - فقد كنت أتظاهر بأني لا أتذكر أي شيء على الإطلاق.

أمسك الرجل فجأة بمعصمي وبدأ في ليه. كان الألم فظيعًا، فصرخت ولكنه واصل ليَّ معصمي. صرخت وصرخت، ولكني لم أتحدث إلا بالفرنسية. لم أكن أعلم إلى متى كنت سأتمكن من التحمل، ولكن لحسن الحظ، فقدت الوعي. كان آخر ما سمعته صوتًا يقول: إنها لا تخدعنا. على أية حال، فتاة في مثل سنها لم تكن لتعلم الكثير عن فقدان الذاكرة. أعتقد أنه نسي أن الفتيات الأمريكيات يمتلكن عقولًا أكثر خبرة من الإنجليزيات، وأنهن يهتممن أكثر بالموضوعات العلمية.

عندما كنت مع السيدة فانديماير، كانت تعاملني بلطف شديد. أعتقد أن هذه كانت الأوامر التي تلقتها. كانت تتحدث معي بالفرنسية وتخبرني بأني قد تعرضت لصدمة وبأني مريضة للغاية، وأني سأتحسن في القريب العاجل. تظاهرت بالحيرة - وغمغمت بشيء عن الطبيب الذي آذى معصمي. وكانت تبدو مرتاحة بسماع هذه الكلمات.

كانت السيدة فانديماير تخرج من الغرفة بين حين وآخر. كنت ما زلت متشككة، لذا كنت أظل راقدة في الفراش لوقت طويل. في النهاية، نهضت وبدأت في التجول في الغرفة مستكشفة إياها. بدا لي حينها أني إن فعلت ذلك، فإن أي شخص قد يكون يراقب الغرفة، ربما يعتقد أن هذا أمر طبيعي. كان المكان قذرًا ومتسخًا. لم تكن هناك نوافذ في الغرفة، الأمر الذي بدا لي غريبًا. خمنت أن الباب سيكون مغلقًا رغم أني لم أحاول فتحه. كانت هناك بعض الصور القديمة الرثة التي تعرض بعض المشاهد من فيلم فاوست".

قال كل من السير جايمس وتوبينس في الوقت ذاته:

"آه".

قالت جاين: "نعم - لقد كان هذا المنزل في ضاحية سوهو، حيث تم اختطاف السيد بيريسفورد. لاشك أنني في ذلك الوقت لم أكن أعلم حتى أني موجودة في لندن. كان هناك أمر واحد يقلقني، ولكني شعرت بالراحة عندما رأيت معطفي

ملقى بإهمال على ظهر أحد المقاعد. *وكانت المجلة ما زالت على وضعها في* جيبه.

كنت أتمنى أن أتأكد مما إذا كان هناك من يراقبني، لذا بدأت في فحص الحوائط بعناية. لم تكن هناك أية فتحة مراقبة - ولكني كنت أشعر بأنه لابد من وجود واحدة. جلست فجأة على أحد المقاعد حول الطاولة ووضعت وجهي بين يدي وبدأت أقول بالفرنسية وأنا أبكي: يا إلهي، يا إلهي. بفضل سمعي الحاد، سمعت صوت حفيف فستان، وصوتًا خفيفًا لتصدع الخشب. كان هذا كافيًا بالنسبة لي. لقد كنت مراقبة.

رقدت في الفراش مرة أخرى، ومن حين لآخر، كانت السيدة فانديماير تحضر لي الطعام. كانت لا تزال لطيفة كما أمروها. أعتقد أنهم أمروها بأن تكتسب ثقتي. في إحدى المرات، أخرجت لفافة القماش المشمع وسألتني عما إذا كانت مألوفة بالنسبة لي، وكانت تراقبني بعينين حادتين طوال الوقت.

أخذتها وقلبتها متظاهرة بالحيرة، ثم هززت رأسي نفيًا، وقلت لها إنني شعرت بأن هناك أمرًا ما بشأن هذه اللفافة يجب أن أتذكره، وبدا كما لو كنت سأتذكر ولكن الذكرى انسلت بعيدًا قبل أن أتمكن منها. بعد ذلك، أخبرتني بأني ابنة أخيها وأن عليَّ أن أدعوها بعمتي ريتا. أطعتها، وقالت لي ألا أقلق - قد أستعيد ذاكرتي في القريب.

مرت تلك الليلة بصعوبة، فقد كنت أعد خطتي في أثناء انتظار وصولها. إن الوثائق في أمان حتى الآن، ولكن لا يمكنني المخاطرة ببقائها في هذا المكان لوقت طويل. ربما يلقون المجلة في القمامة في أية لحظة. ظللت مستلقية على الفراش دون أن أنام حتى شعرت بأن الساعة حوالي الثانية صباحًا، ثم نهضت متسللة بهدوء، وتلمست طريقي في الظلام نحو الحائط على يسار الغرفة. أزلت واحدة من اللوحات بهدوء من مكانها - لوحة مارجريت وصندوق المجوهرات. ثم زحفت نحو معطفي وأخذت المجلة، وظرفًا أو اثنين ثم وضعت المجلة بداخلها، ثم توجهت نحو حوض الغسيل، ونزعت الورقة البنية التي تغلف اللوحة من الخلف حتى أصبحت قادرة على نزعها بالكامل. كنت قد نزعت الورقتين اللتين

لصقتهما بعضهما بالأخرى من المجلة، ووضعتهما بعناية وداخلهما المحتوى الثمين بين اللوحة والبطانة البنية. مع قليل من الغراء من أظرف الخطابات، تمكنت من لصق البطانة البنية مرة أخرى في مكانها. لن يتخيل أحد في أي وقت ما تحتويه تلك اللوحة في داخلها. أعدت وضع اللوحة في مكانها والمجلة إلى معطفي وعدت لأستلقي في الفراش. كنت سعيدة بالمكان الذي خبأت فيه الوثائق. لن يفكروا أبدًا في كسر واحدة من لوحاتهم. كنت آمل أن يتوصلوا إلى استنتاج أن دانفرز كان يحمل رسالة وهمية وأن يسمحوا لي في النهاية بالرحيل.

في حقيقة الأمر، أعتقد أن هذا ما فكروا فيه في البداية، الأمر الذي يمثل خطرًا على حياتي. علمت فيما بعد أنهم كادوا يقتلونني وأنه لا توجد أية فرصة لإطلاق سراحي - ولكن زعيمهم فضل أن يواصلوا حبسي تحسبًا لأن أكون أنا من خبأ الوثائق، وأنني قد أخبرهم بمكانها بمجرد أن أستعيد ذاكرتي. ظلوا يراقبونني بشكل متواصل طيلة أسابيع، وكانوا في بعض الأحيان يطرحون عليّ بعض الأسئلة - أعتقد أنهم كانوا يعرفون جميع طرق التعذيب - ولكنني تمكنت من تمالك نفسي، على الرغم من أن الأمر أرهقني كثيرًا...

عادوا بي مرة أخرى إلى أيرلندا، وقمنا بالرحلة ذاتها مرة أخرى تحسبًا لأن أكون قد خبأت الوثائق في مكان ما على الطريق. لم تتركني السيدة فانديماير وسيدة أخرى للحظة. كانوا يتحدثون عني على أنني واحدة من قريبات السيدة فانديماير، والتي أصيب عقلها بصدمة جراء حادثة سفينة *لوزيتانيا*. لم يكن هناك أي شخص يمكنني أن أطلب منه المساعدة دون أن أكشف نفسي لهم، وماذا لو حاولت وفشلت. كما أن السيدة فانديماير كانت تبدو ثرية وأنيقة المظهر، وشعرت بأن الناس سيصدقون كلامها بدلا من كلامي، وقد يظنون أن جزءًا من مشكلتي العقلية أنني أعتقد أنني مضطهدة - شعرت بأن الأهوال التي قد أواجهها إذا ما اكتشفوا أنني كنت أخدعهم ستكون هائلة".

أومأ السير جايمس برأسه في فهم وقال:

"كانت السيدة فانديماير امرأة ذات شخصية قوية، ومع وضعها الاجتماعي كان من السهل عليها أن تفرض وجهة نظرها مقابل وجهة نظرك. لم يكن اتهامك لها سيلاقي قبولاً بين الناس".

قالت جاين: "هذا ما اعتقدته، وانتهى الأمر بإرسالي إلى مصحة في بورتسموث. لم أتمكن في البداية من تبين ما إذا كانت مصحة حقيقية أم زائفة. كانت هناك ممرضة مكلفة برعايتي، فقد كنت مريضة مهمة. لقد حمتني الرعاية الإلهية من الوقوع في الفخ، في إحدى المرات كان باب غرفتي نصف مفتوح، وسمعت الممرضة تتحدث مع شخص ما في الممر، لقد كانت واحدة منهم. كانوا ما زالوا يعتقدون أني أخدعهم، وكانت قد كُلفت بمهمة التأكد من ذلك. بعد هذا، قررت ألا أثق بأي أحد كان.

أعتقد أنني نومت نفسي مغناطيسيًا، فبعد بعض الوقت، نسيت أني جاين فين في الحقيقة. لقد واصلت لعب دور آنيت فانديماير حتى بدأت أعصابي تعتاد الأمر. بعد ذلك، أصبت بالمرض حقيقة - طوال أشهر، كنت أغرق في الغيبوبة. كنت أشعر بأني سأموت قريبًا. يُقال إن الشخص العاقل الذي يُحتجز في مصحة عقلية، ينتهي به الأمر بالجنون. أعتقد أن هذه كانت هي الحال معي. لقد أصبح الدور الذي ألعبه، شخصيتي الثانية. في النهاية، لم أكن أشعر بالتعاسة، بل كنت غير مبالية. لم يكن يهمني شيء، ومرت الأعوام.

بعد ذلك، بدا فجأة أن الأمور في طريقها إلى التغير، فقد حضرت السيدة فانديماير من لندن، وطرحت عليّ هي والطبيب عددًا من الأسئلة واختبرا الكثير من أساليب العلاج. كانا يتحدثان عن إرسالي إلى طبيب متخصص في حالتي في باريس، ولكنهما لم يجرؤا على فعل ذلك في النهاية. سمعت بعض الأشياء عن أن بعض الناس - الأصدقاء - يبحثون عني. علمت فيما بعد أن الممرضة التي كانت مخولة برعايتي سافرت إلى باريس لاستشارة الطبيب المتخصص، حيث قدمت نفسها على أنها أنا. أخضعها الطبيب لبعض الاختبارات، وتبين في النهاية أنها كانت تتظاهر بفقدان الذاكرة، ولكنها حصلت على مذكرة بأساليبه العلاجية وبدأت في تطبيقها عليّ. يمكنني أن أقول إنني لم أكن سأتمكن من خداع الطبيب المتخصص للحظة واحدة - إن الرجل الذي يقضي حياته بأكملها في دراسة شيء ما، يصبح شخصًا استثنائيًا فيه - ولكنني تمكنت مرة أخرى من تمالك نفسي في التعامل معهم. كانت حقيقة أنني لم أكن أفكر في نفسي على أنني جاين فين لفترة طويلة قد جعلت الأمر أكثر سهولة.

في إحدى الليالي، تم نقلي إلى لندن بعد أن حصلوا على تعليمات بذلك، واصطحبوني مرة أخرى إلى المنزل في ضاحية سوهو. بمجرد أن خرجت من المصحة، شعرت بأني شخص مختلف - كما لو كان هناك شيء في داخلي كان مدفونًا لوقت طويل وبدأ في الاستيقاظ من جديد.

أرسلوني لخدمة السيد بيريسفورد (إنه يشك في أنني لم أكن أعلم اسمه في ذلك الحين). ولكني كنت متشككة - كنت أعتقد أنه فخ جديد أعد من أجلي، ولكنه بدا صادقًا للغاية، ولكني لم أتمكن من تصديقه بسهولة. كنت أتحدث معه بحذر شديد، فقد كنت أعلم أنه يتم التنصت على ما نقوله، فقد كانت هناك فتحة صغيرة في أعلى أحد الحوائط.

ولكن بعد ظهر يوم الأحد، وصلت رسالة إلى المنزل. كانوا جميعًا يشعرون بالقلق، واستمعت لما يدور بينهم دون أن يدركوا هذا. لقد وصلتهم الأوامر بأنه يجب قتله. لا حاجة بي لأن أقص الجزء المتبقي، لأنكما تعرفانه جيدًا. اعتقدت أن هناك وقتًا كافيًا لأن أسرع وأحضر الأوراق من المكان الذي خبأتها فيه، ولكنهم كانوا في إثري، لذا بدأت أصرخ قائلة إنه قد هرب، وقلت إنني أرغب في العودة إلى مارجريت. كررت الاسم بصوت عالٍ ثلاث مرات، وكنت أعلم أن الباقين سيظنون أنني أقصد السيدة فانديماير، ولكني كنت أرجو أن يدرك السيد بيريسفورد أني أقصد اللوحة. كان قد أزال واحدة من اللوحات من مكانها في وقت سابق، الأمر الذي جعلني أتردد في الوثوق به".

توقفت عن الحديث فقال السير جايمس ببطء:

"هل لا تزال الوثائق في مكانها في ظهر تلك اللوحة؟".

قالت جاين وهي ترقد مرة أخرى على الأريكة مرهقة من رواية قصتها الطويلة:

"نعم".

نهض السير جايمس واقفًا، ونظر في ساعته وقال:

"هيا، يجب أن نذهب على الفور".

سألته توبينس بدهشة: "الليلة؟".

قال السير جايمس بحدة: "ربما يكون قد فات الأوان غدًا، إلى جانب أنه إن ذهبنا الليلة فقد تواتينا الفرصة للقبض على العقل المدبر للعملية والمجرم الخطير - السيد براون".

خيم صمت رهيب عليهم، في حين واصل السير جايمس حديثه قائلاً:

"كان هناك من تتبعكما وصولاً إلى هنا دون أدنى شك، وعندما نغادر المنزل، سيكون هناك من يتتبعنا مرة أخرى، ولكن لن يعترض طريقنا أحد، حيث إن خطة السيد براون هي أن نكون نحن من يقوده للوثائق، ولكن يخضع المنزل في سوهو لمراقبة الشرطة ليلاً ونهارًا. هناك الكثير من الرجال يراقبونه، وعندما ندخل المنزل، لن يتراجع السيد براون - سيخاطر بكل شيء في سبيل الحصول على ما يأمل في الحصول عليه. كما أنه لن يعتقد أن الخطر سيكون عظيمًا - حيث إنه سيدخل المنزل متخفيًا في صورة أحد الأصدقاء".

احمر وجه توبينس وفتحت فمها لتقول:

"ولكن هناك أمرًا ما لا تعلمه - لأننا لم نخبرك به"، ثم نظرت إلى جاين في حيرة.

سألها السير جايمس بحدة: "ما هو؟ لا تترددي يا آنسة توبينس، يجب أن نكون واثقين مما سنقدم عليه".

ولكن بدا لوهلة أن توبينس غير قادرة على الحديث.

ثم قالت: "إنه أمر صعب، إذا ما كنت مخطئة، فسيكون خطأ جسيمًا"، ثم عبست وهي تنظر إلى جاين فاقدة الوعي وقالت: "إنها لن تسامحني أبدًا".

قال السير جايمس: "هل ترغبين في أن أساعدك؟".

قالت توبينس: "نعم، من فضلك. أنت تعلم من هو السيد براون، أليس كذلك؟".

قال السير جايمس: "نعم، لقد تمكنت من هذا أخيرًا".

سألته توبينس في دهشة: "أخيرًا؟ أوه، ولكني اعتقدت أن -"، ثم قطعت حديثها.

قال السير جايمس: "إن اعتقادك في محله يا آنسة توبينس. لقد كنت أعلم من هو منذ بعض الوقت - منذ الليلة التي توفيت فيها السيدة فانديماير".

قالت توبينس: "آه".

قال السير جايمس: "لذا فإننا بصدد تحليل مجموعة من الحقائق المنطقية. هناك حلان فقط للمعضلة، إما أن تكون قد تناولت الكلورال بنفسها، الأمر الذي أرفضه، أو ـــــ"

قالت توبينس: "ماذا؟".

قال السير جايمس: "أو أنه قد تم وضعه في الشراب الذي أعطيتها إياه. هناك ثلاثة أشخاص فقط تعاملوا مع هذا الشراب - وأنا وأنت والسيد هيرشايمر".

نهضت جاين فين جالسة عندما سمعت ما يقال وقد اتسعت عيناها عن آخرهما.

قال السير جايمس: "في البداية، بدا الأمر مستحيلاً، فقد كان السيد هيرشايمر، كأحد أبناء المليونيرات الكبار في أمريكا، شخصية معروفة. بدا لي الأمر مستحيلاً أن يكون هو والسيد براون الشخص ذاته، ولكن لا يمكن لأحد أن يهرب من المنطق أو الحقائق، وحيث إن الحقائق تشير إلى هذا - فيجب قبولها. تذكري الذعر المفاجئ والشديد الذي أصاب السيدة فانديماير. هذا إثبات آخر، إذا ما كانت هناك حاجة لإثبات.

"لقد اغتنمت الفرصة لأعطيك تلميحًا عن الأمر، ومن بعض الكلمات التي قالها السيد هيرشايمر عندما كنا في مانشستر، اعتقدت أنك قد أدركت الأمر وتصرفت بناءً عليه. ثم بدأت العمل من أجل إثبات المستحيل. اتصل بي السيد بيريسفورد وأخبرني بما كنت أشك به، وهو أن صورة الآنسة جاين فين لم يأخذها أحد من السيد هيرشايمر ـــــ"

قاطعته جاين وهي تقف على قدميها وتصرخ قائلة:

"ما الذي تعنيه؟ ما الذي تقوله؟ هل تقول إن السيد براون هو جوليوس؟ جوليوس ابن خالي".

قال السير جايمس فجأة: "لا يا آنسة فين. إنه ليس ابن خالك. إن الرجل الذي يُطلق على نفسه جوليوس هيرشايمر لا يمت لك بأية صلة قرابة".

السادس والعشرون

السيد براون

كان لكلمات السير جايمس وقع كالصاعقة على مستمعتيه اللتين نظرتا لبعضهما في حيرة. توجه المحامي نحو مكتبه، وعاد وهو يحمل ورقة صغيرة مقصوصة من إحدى الصحف وأعطاها جاين. قرأت توبينس محتواها من فوق كتفها. كان السيد كارتر سيلاحظ هذا الأمر. كان الموضوع يتحدث عن وجود جثة مجهولة لرجل في مدينة نيويورك.

تابع المحامي حديثه قائلاً:

"كما كنت أقول يا آنسة توبينس. لقد بدأت العمل من أجل إثبات المستحيل. كانت العقبة الكبيرة التي تواجهني هي أن اسم جوليوس هيرشايمر ليس اسمًا مستعارًا. عندما حصلت على هذا الموضوع، حُلت جميع مشكلاتي. كان جوليوس هيرشايمر قد بدأ البحث بالفعل عما حدث لابنة عمته، فتوجه إلى الغرب الأمريكي وحصل على صورة لها لتساعده في بحثه عنها. في الليلة التي كان سيغادر فيها نيويورك، تم اختطافه وقتله، ووضع جثته داخل ثياب رثة وتم تشويه ملامح وجهه حتى لا يمكن التعرف على الجثة، وحل السيد براون محله. أبحر السيد براون على الفور إلى إنجلترا. لم يرَ أي من أصدقاء أو أقارب هيرشايمر

الرجل قبل أن يستقل السفينة - على الرغم من أن الأمر لم يكن ليؤثر كثيرًا إذا ما فعلوا، فقد كان تنكره محكمًا. منذ ذلك الحين، وهو يشارك من أقسموا بالقبض عليه كل خطوة، كانت جميع أسرارهم مكشوفة له. كانت هناك مرة واحدة فقط اقترب فيها من انكشاف أمره، فقد كانت السيدة فانديماير تعرف سره. لم يكن من ضمن مخططه أن يتم إعطاؤها مبلغًا كبيرًا من المال مقابل الكشف عن هويته، ولكن بفضل التغيير في الخطط الذي قامت به الآنسة توبينس، كانت السيدة فانديماير ستفر بعيدًا قبل أن نصل إليها. كان على وشك انكشاف أمره، فقام بخطوة يائسة، وكان يثق في أن شخصيته المزعومة ستبعده عن دائرة الشبهات. وكاد ينجح - ولكنه لم ينجح تمامًا".

غمغمت جاين: "لا يمكنني تصديق هذا. لقد بدا شخصًا رائعًا".

قال السير جايمس: "كان جوليوس هيرشايمر الحقيقي شخصًا رائعًا، والسيد براون ممثل بارع، ولكن اسألي الآنسة توبينس عما إذا لم تكن ترتاب في أمره هي الأخرى".

التفتت جاين إلى توبينس التي أومأت برأسها وقالت:

"لم أكن أرغب في أن أقول لك هذا يا جاين - كنت أعلم أن هذا كان سيجرحك، كما أنني لم أكن واثقة من هذا، ومازلت لا أفهم لماذا، إذن، قام السيد براون، بإنقاذنا".

قال السير جايمس: "هل كان جوليوس هيرشايمر هو من ساعدكما على الهرب؟".

قصت توبينس على السير جايمس الأحداث المثيرة التي وقعت الليلة واختتمت حديثها قائلة:

"ولكني لا أعلم لماذا".

قال السير جايمس: "حقًا؟ أنا أعلم لماذا. وكذلك يعلم بيريسفورد. كأمل أخير بالنسبة للسيد براون، كان سيترك جاين تهرب - ويجب أن تتم عملية الهرب بطريقة لا تجعلها تشك بأنها مفتعلة. لم يستبعدوا أن يكون بيريسفورد متواجدًا بالقرب من المنزل، وربما يكون قد تواصل معك أيضًا. كانوا سيحاولون

إزاحته عن طريقهم في اللحظة المناسبة. ثم يهب جوليوس هيرشايمر لنجدتك بطريقة مسرحية رائعة. تتناثر طلقات الرصاص ولكن دون أن تصيب أحدًا. ماذا سيحدث بعد ذلك؟ كنتم ستذهبون مباشرة إلى المنزل في ضاحية سوهو حيث تعطي الآنسة فين الوثائق لابن خالها الذي تثق به ليعتني بها. أو ربما كان سيذهب للحصول على الوثائق من المكان الذي خبئت به ويقول إنه لم يجدها. هناك الكثير من الطرق التي يمكنه التعامل مع الموقف بها، ولكن ستكون النتيجة دائمًا ذاتها. كما أعتقد أنه كان سيدبر وقوع حادث لكما. إنكما تعلمان قدرًا كبيرًا من المعلومات. إنها خطة ماكرة لم أتنبه لها، ولكن شخصًا آخر فعل".

قالت توبينس بهدوء: "تومي".

قال السير جايمس: "نعم. عندما حانت اللحظة للتخلص منه، كان صعب المراس ولم يتمكنوا منه، ولكني لست مرتاحًا لما قد يحدث له".

قالت توبينس: "لماذا؟".

قال السير جايمس: "لأن جوليوس هيرشايمر هو السيد براون، ويتطلب الأمر أكثر من رجل واحد يحمل مسدسًا للتغلب عليه ...".

شحب وجه توبينس وقالت:

"ما الذي يمكننا فعله؟".

قال السير جايمس: "لا شيء حتى نحصل على الوثائق من المنزل في سوهو. إذا ما كان بيريسفورد لا يزال متحكمًا في الوضع، فلا خوف عليه. أما إذا حدث العكس، فإن عدونا سيهب للحاق بنا، ولكننا سنكون على أتم استعداد لمواجهته"، وفتح درج مكتبه وأخرج مسدسًا ووضعه في جيبه وقال: "إننا على استعداد الآن. لا أعتقد أنك ستوافقين على أن نذهب بدونك يا آنسة توبينس ——".

قالت توبينس: "بالتأكيد".

قال السير جايمس: "ولكني أقترح أن تظل الآنسة فين هنا. ستكون في أمان هنا، وأعتقد أنها مرهقة جراء كل ما مرت به".

ولكن لدهشة توبينس، هزت جاين رأسها وقالت:

"لا، أعتقد أنني سأذهب أنا أيضًا. إن هذه الوثائق مسئوليتي. يجب أن أتم مهمتي. أنا أشعر بأني في حال أفضل على أية حال".

أمر السير جايمس الخدم بإحضار السيارة أمام المنزل. خلال المسافة القصيرة نحو المنزل في سوهو، كان قلب توبينس يخفق بعنف. على الرغم من القلق الشديد الذي كانت تشعر به بشأن تومي، فإنها لم تتمكن من منع نفسها من الشعور بالابتهاج. إنهم في طريقهم لتحقيق النصر.

اقتربت السيارة من ناصية الميدان وترجلوا منها جميعًا. اقترب السير جايمس من رجل يرتدي ملابس مدنية والذي كان يقوم بمراقبة المنزل مع مجموعة كبيرة من الرجال، وتحدث معه قليلاً، ثم عاد إلى الفتاتين وقال: "لم يدخل أحد المنزل حتى الآن. إنهم يراقبون المنزل من الخلف أيضًا، لذا فهم واثقون من هذا. أي شخص سيحاول أن يدخل المنزل بعد أن ندخله سيتم القبض عليه على الفور. هل ندخل الآن؟".

أخرج رجل الشرطة مفتاح المنزل، فقد كانوا جميعًا يعرفون من هو السير جايمس جيدًا، كما كانوا قد تلقوا أوامر بخصوص توبينس. فقط الفتاة الأخرى هي التي لم يكونوا يعرفون من هي. دخل ثلاثتهم المنزل وأغلقوا الباب من خلفهم، وسرعان ما كانوا يصعدون الدرج المتداعي. في الطابق العلوي كانت هناك الستارة التي تحجب المخبأ الذي توارى فيه تومي. كانت توبينس قد سمعت القصة على لسان جاين التي كانت تتقمص شخصية آنيت. نظرت توبينس إلى الستارة المخملية المهترئة باهتمام. حتى الآن، يمكنها أن تقسم بأنها تتحرك - كما لو كان هناك شخص ما يختبئ خلفها. يا لها من تخيلات قوية تلك التي تراودها... ماذا لو كان السيد براون - جوليوس - مختبئًا خلفها ينتظر وصولهم...

مستحيل، دون شك. كانت على وشك العودة لترفع الستارة لترى ما خلفها...

والآن، هم يدخلون غرفة الحبس. لا يوجد بها أي مكان يصلح للاختباء، فتنهدت توبينس في راحة، ثم أنبت نفسها بشدة على جبنها. يجب ألا تسمح لهذه التخيلات السخيفة باحتلال عقلها - هذا الشعور الملح بأن السيد براون داخل

المنزل... كراك!، ماذا كان هذا؟ هل هذا صوت خطوات تتسلل على الدرج؟ هناك شخص ما في المنزل. مستحيل. كانت قد بدأت تتصرف بهستيرية.

توجهت جاين مباشرة نحو لوحة مارجريت، وحملتها من مكانها بثبات. كان الغبار يكسو اللوحة بكثافة، وكانت هناك بعض من خيوط العنكبوت بينها وبين الحائط. أعطاها السير جايمس مدية جيب صغيرة، فقامت بتمزيق البطانة البنية... فسقطت صفحة الدعاية من المجلة على الأرض. أمسكتها جاين، وفتحت حافتيها الملتصقتين معًا وأخرجت ورقتين رفيعتين مليئتين بالكلمات.

لم تكن وثائق زائفة هذه المرة، بل كانت الحقيقية.

قالت توبينس: "لقد حصلنا عليها أخيرًا".

كانت تلك اللحظة تمتلئ بمشاعر تحبس الأنفاس. كانت توبينس قد نسيت أمر الأصوات الخافتة التي سمعتها منذ قليل. لم يكن أي منهم قادرًا على النظر إلى أي شيء سوى الورقتين اللتين تمسك بهما جاين.

أخذهما السير جايمس منها وبدأ يقرؤهما وقال:

"نعم، إنها مسودة المعاهدة المشئومة".

قالت توبينس: "لقد نجحنا"، كان صوتها يحمل نبرات البهجة وعدم التصديق.

قال السير جايمس مثلما قالت وهو يطوي الورقتين ويضعهما داخل مفكرته، ثم نظر باهتمام حوله داخل الغرفة الكئيبة وقال:

"هل هذا هو المكان الذي تم حبس صديقك داخله لفترة طويلة؟ إنها غرفة سيئة بحق، ألا ترين عدم وجود أية نوافذ، وذلك الباب الثقيل. أيًا كان ما يحدث داخل هذه الغرفة، لن يمكن سماعه من الخارج".

ارتجفت توبينس، فقد أيقظت كلماته فكرة ما مرت بخلدها. ماذا لو كان هناك شخص ما يختفي داخل المنزل؟ شخص ما قد يغلق هذا الباب عليهم من الخارج، وأن يتركهم ليموتوا كالفئران في المصيدة؟ ثم أدركت استحالة فكرتها. إن المنزل محاط بالشرطة من كل جانب والتي، في حالة عدم ظهورهم مرة

أخرى، لن تتورع عن اقتحام المنزل للبحث عنهم. ابتسمت توبينس من سخافتها - ثم نظرت لأعلى فجأة لترى أن السير جايمس يحدق ويومئ لها قائلاً:

"صحيح يا آنسة توبينس، لقد شعرت بالخطر مثلما أشعر به أنا والآنسة فين".

قالت جاين: "نعم. إنه مستحيل، ولكن لا يمكنني أن أمنع نفسي من الشعور به".

أومأ السير جايمس برأسه مرة أخرى وقال: "أنت تشعرين - مثلما نشعر جميعًا - بوجود السيد براون. نعم" - في الوقت ذاته كانت توبينس قد بدأت تتحرك - "إن السيد براون هنا...".

قالت توبينس: "في المنزل؟".

قال السير جايمس: "بل في هذه الغرفة... ألم تدركي الأمر بعد؟ أنا السيد براون...".

حدقت الفتاتان به حائرتين غير مصدقتين. تغيرت ملامح وجهه تمامًا بحيث أصبح رجلًا مختلفًا يقف أمامهما. ابتسم لهما ابتسامة قاسية وقال:

"لن يغادر أي منكما هذه الغرفة حيًا. لقد قلت للتو إننا نجحنا. لقد نجحت أنا. لقد حصلت على مسودة المعاهدة"، اتسعت ابتسامته وهو ينظر إلى توبينس وقال:

"هل أخبرك بما سيحدث؟ إن آجلاً أو عاجلاً، ستقتحم الشرطة المكان، وستجد ثلاث ضحايا للسيد براون، ثلاثًا وليس اثنتين، هل تفهمين، ولكن لحسن الحظ، الضحية الثالثة لن تكون ميتة، بل مجروحة فقط، وستتمكن من وصف الهجوم بأدق التفاصيل. وماذا عن المعاهدة؟ لقد حصل عليها السيد براون، لذا لن يفكر أحد في البحث عنها في جيب السير جايمس بيل إدجارتون".

ثم التفت إلى جاين قائلاً: "لقد تمكنت من خداعي، أقر بهذا، ولكنك لن تفعلي هذا مرة أخرى".

كان هناك صوت خافت يصدر من خلفه، ولكن زهوه بنصره لم يجعله يلتفت للخلف، بل وضع يده في جيبه وهو يقول:

"لقد انتهى الأمر يا شباب المغامرين"، ثم أخرج من جيبه مسدسه الآلي الضخم.

ولكن عندما فعل ذلك، شعر بمن يطوقه من الخلف بقبضة من حديد، وضُرب المسدس من يده وسُمع صوت جوليوس هيرشايمر يقول:

"أعتقد أنه قد تم القبض عليك متلبسًا".

احتقن وجه مستشار الملك بشدة، ولكنه تمالك نفسه في سرعة، عندما نظر إلى الوجهين اللذين يحيطان به.

نظر إلى تومي قائلاً بصوت خافت:

"أنت، أنت، كان يجب أن أعلم".

عندما شعرا بأنه لم يقاوم، أرخيا تقييدهما له قليلاً، فقام بلمح البصر برفع يده اليسرى التي يرتدي بها خاتمه نحو فمه... ثم قال وهو لا يزال ينظر نحو تومي:

"أيها القيصر، نحن من سنموت من أجلك. نحييك".

بعد ذلك، تغيرت ملامح وجهه، ثم انكفأ على وجهه برجفة أخيرة، في الوقت ذاته عبأت رائحة اللوز المكان.

السابع والعشرون

حفل عشاء في سافوي

لن تنسى أوساط التعهد بالحفلات حفلة العشاء التي أقامها السيد جوليوس هيرشايمر في مساء يوم الثلاثين لقلة من أصدقائه. أقيمت الحفلة في غرفة خاصة، وكانت أوامر السيد هيرشايمر مقتضبة ومباشرة. لقد أعطى المطعم تفويضًا مطلقًا، وعندما يعطي أحد المليونيرات تفويضًا مطلقًا فإنه يحصل على ما يريد.

تم إحضار جميع فواتح الشهية حتى تلك التي لم يحن موسمها. كان الندل يحملون زجاجات الشراب الفاخرة بعناية تامة. كانت الغرفة مزينة بأجمل الزهور حتى التي لم يحن موسم تفتحها، تجاورت الفاكهة من جميع أنحاء العالم ومن مختلف مواسم العام جنبًا إلى جنب في الأطباق نفسها. كانت قائمة المدعوين صغيرة ومنتقاة: السفير الأمريكي والسيد كارتر، الذي قال، إنه سمح لنفسه باصطحاب صديق قديم له إلى الحفل وهو السير ويليام بيريسفورد، رجل الدين كاولي - الطبيب هول، المغامرين الشابين - الآنسة برودنس كاولي والسيد توماس بيريسفورد - وأخيرًا وليس آخرًا، ضيفة الشرف، الآنسة جاين فين.

لم يوفر جوليوس جهدًا لجعل مظهر جاين رائعًا. كانت هناك طرقات على باب الشقة التي تقطن بها توبينس مع الفتاة الأمريكية، دفعتها للتوجه لتفتح الباب. كان الطارق جوليوس الذي كان يحمل شيكًا في يده وقال:

"توبينس، هل تقومين بأمر ما من أجلي؟ خذي هذا الشيك، واذهبي لشراء أجمل الملابس لـ جاين من أجل حفل الليلة. ستأتون جميعًا لتناول العشاء معي في سافوي. لا توفري أية أموال، هل تفهمين؟".

قالت توبينس: "بالتأكيد. سنستمتع كثيرًا. سأسعد للغاية باختيار الملابس من أجل جاين. إنها أجمل فتاة رأيتها في حياتي".

وافقها جوليوس قائلاً:

"بالفعل".

جعل طلب جوليوس عيني توبينس تلمعان وهي تقول:

"بالمناسبة يا جوليوس، أنا لم أجبك على طلبك بعد".

قال جوليوس وقد شحب وجهه:

"أية أجابة؟".

قالت توبينس: "أنت تعلم - عندما طلبت مني - أن أتزوجك"، ثم خفضت عينيها في خجل وقالت: "ولم أجبك. لقد فكرت في الأمر ــــ".

ظهر العرق على جبهة جوليوس وهو يقول:

"وماذا بعد؟".

رقت توبينس لحاله فجأة وقالت:

"أيها الأحمق. ما الذي جعلك تفعل هذا؟ يمكنني أن أرى الآن أنك لا تكن لي أية مشاعر على الإطلاق".

قال جوليوس: "على الإطلاق. لقد كنت - ومازلت - أكن لك أعلى درجات الاحترام والتقدير والإعجاب".

قالت توبينس: "هذه من نوعية المشاعر التي يُضرب بها عرض الحائط بمجرد الشعور بالنوعية الأخرى من المشاعر، أليس كذلك؟".

قال جوليوس وقد احمر وجهه بشدة:

"لا أفهم ما تقصدينه".

قالت توبينس: "أحمق"، ثم ضحكت وأغلقت الباب، ثم فتحته مرة أخرى وقالت بوقار: "من الناحية الأخلاقية، لطالما سأشعر بأنك نبذتني".

سألت جاين توبينس عندما عادت إليها: "ما الأمر؟".

قالت توبينس: "إنه جوليوس".

قالت جاين: "ماذا كان يريد؟".

قالت توبينس: "أعتقد أنه كان يرغب في رؤيتك، ولكني لم أكن سأتركه يفعل - ليس قبل الليلة، عندما تطلين عليهم مثل الملكة المتوجة. هيا، سنذهب للتسوق".

بالنسبة لأغلب الناس، مر يوم التاسع والعشرين، عيد العمال، مثل أي يوم آخر، حيث تم إلقاء الخطب في المتنزه وميدان ترافلجار. انطلقت المسيرات التي تنشد أغنية العلم الأحمر في جميع الشوارع بشكل عشوائي، وأُجبرت الصحف التي لمحت إلى حدوث إضراب عام وتولي مملكة الرعب مقاليد الحكم على دفن رؤوسها في الرمال، في حين ادعت الصحف الأكثر جرأة وذكاءً أن السلام الذي عم أرجاء البلاد كان بفضل اتباع الناس نصائحها القيمة. نُشر في صحيفة الأحد خبر الوفاة المفاجئة للسير جايمس بيل إدجارتون، مستشار الملك الشهير، ونُشرت في صحف يوم الاثنين مقالات تمجد مسيرة الرجل المتوفى المهنية. أما سبب موت السير جايمس المفاجئ فلم يتم الإعلان عنه.

كان تومي محقًا في تقديره للموقف. لقد كان النجاح في الأمر برمته يعود إليه. بعد أن حُرمت المنظمة من رئيسها، تفككت، فعاد كرامينين إلى روسيا تاركًا إنجلترا في وقت مبكر من صباح الأحد، وفرت العصابة من منزل أستلي بريورز مذعورة، تاركة خلفها وثائق خطيرة كان من شأنها إدانة أفراد العصابة بشدة. مع هذه الأدلة الدامغة على وجود مؤامرة، بالإضافة إلى المفكرة التي تم الحصول عليها من جيب السير جايمس والتي كانت تحتوي على ملخص شامل لتفاصيل المؤامرة، دعت الحكومة إلى اجتماع طارئ. أدرك قادة حزب العمال

أنه تم استخدامهم كواجهة للمؤامرة. قامت الحكومة بعرض بعض الامتيازات الإضافية التي تمت الموافقة عليها بحماس، والتي كانت تهدف إلى السلام لا الحرب.

ولكن علم مجلس الوزراء أنهم تمكنوا من النجاة بأعجوبة من كارثة محققة. كان السيد كارتر يتذكر مشهدًا من الليلة السابقة وقع في المنزل بضاحية سوهو.

كان السيد كارتر قد دخل الغرفة الحقيرة ليعثر على الرجل العظيم، صديق عمره، ميتًا - وقد كُشف أمره، حيث أخرج من جيبه مفكرة وجد بداخلها مسودة المعاهدة المشئومة، وقام بحرقها في حضور الثلاثة الآخرين... لقد تم إنقاذ إنجلترا.

والآن، في تلك الغرفة الخاصة في سافوي، كان السيد جوليوس هيرشايمر يستقبل ضيوفه.

كان السيد كارتر أول الحاضرين، وكان معه رجل نبيل كبير السن شاحب الوجه، بمجرد أن رآه تومي، احمر وجهه وتوجه نحوه.

قال الرجل النبيل المسن وهو ينظر لـ تومي معتذرًا:

"أنت إذن ابن أخي، أليس كذلك؟ لا تبدو غريبًا عني - ولكن يبدو أنك قمت بعمل رائع. يبدو أن والدتك قد ربتك جيدًا. هل ننسى ما مضى؟ أنت وريثي كما تعلم، وفي المستقبل سأقدم لك جزءًا من ثروتي - ويمكنك أن تعتبر منزل تشالمرز بارك منزلك".

قال تومي: "شكرًا جزيلاً لك سيدي، إنه للطف بالغ منك".

قال السير ويليام: "أين تلك الفتاة التي سمعت عنها الكثير؟".

قدم تومي توبينس له، فقال السير ويليام وهو ينظر لها:

"لم تعد الفتيات مثلما كن أيام شبابي".

قالت توبينس: "بالفعل يا سيدي، ربما اختلفت الملابس، ولكن لم يتغير جوهرهن".

قال السير ويليام: "ربما كنت على حق. حمقاوات في الماضي - حمقاوات في الحاضر".

قالت توبينس: "بالفعل، أنا عن نفسي حمقاء".

قال السير ويليام وهو يضحك ويقرص أذنها مداعبًا:

"أصدقك في هذا". كانت الكثير من النساء يخفن من "الدب العجوز" كما كن يطلقن عليه، ولكن جرأة توبينس أعجبت الرجل كثيرًا.

بعد ذلك حضر رجل الدين الخجول، والذي شعر بالحيرة من الجمع الذي وجد نفسه بينه، كان سعيدًا بأن ابنته تمكنت من إثبات نفسها في العالم، ولكنه لم يتمكن من منع نفسه من التحديق فيها من وقت لآخر بعصبية. ولكن تعاملت معه توبينس بحب، حيث امتنعت عن وضع ساق فوق الأخرى وأمسكت لسانها وامتنعت عن التدخين.

حضر بعد ذلك الطبيب هول، وتلاه السفير الأمريكي.

قال جوليوس بعد أن عرف ضيوفه بعضهم على الآخر:

"هل يمكن أن نجلس. توبينس، هل يمكنك أن ــــــ"

أشار لها جوليوس بأن تجلس في مقعد ضيف الشرف.

ولكن توبينس هزت رأسها نفيًا وقالت:

"لا، هذا مكان جاين. عندما يفكر المرء في جميع سنوات المعاناة التي عاشتها، يقرر أنها من يستحق أن تكون ملكة حفل الليلة".

رمقها جوليوس بنظرة تقدير، وتقدمت جاين بحياء وجلست على المقعد. كانت جميلة مثلما كانت من قبل، بل كانت أكثر جمالاً مع تزينها بطريقة رائعة، فقد قامت توبينس بدورها على الوجه الأكمل. كان الثوب الذي ترتديه من تصميم مصمم أزياء شهير وقد أطلق عليه اسم "الزنبق البري". كان الثوب يحمل الألوان الذهبية والحمراء والبنية، وكان يظهر منه عنق الفتاة المرمري، وخصلات شعرها البرونزي التي تتوج رأسها. كان الجميع ينظرون إليها بإعجاب عندما جلست في مقعدها.

سرعان ما بدأ الحفل، وأُجبر تومي على أن يقدم تفسيرًا كاملاً لما حدث.

قال جوليوس:

"لقد كنت تتحرى الكثير من السرية فيما يتعلق بخطوتك التالية. لقد جعلتني أعتقد أنك سافرت إلى الأرجنتين - إلا أنني أعتقد أن هناك أسبابًا جعلتك تفعل هذا. إن فكرة أنك وتوبينس أعتقدتما أني السيد براون تضحكني حتى الموت".

قال السيد كارتر: "لم تكن تلك الفكرة فكرتهما. لقد تم اقتراحها عليهما، وتم غرسها في عقليهما بمهارة، من خلال سيد الجريمة. لقد جعله الخبر الذي نُشر في صحف نيويورك يضع خطته، وبدأ في تضييق الخناق عليك بشكل كبير".

قال جوليوس: "إنه لم يعجبني أبدًا. لقد شعرت منذ الوهلة الأولى بأن هناك خطبًا ما بشأنه، ولطالما شككت في أنه من قام بقتل السيدة فانديماير، ولكني لم أتأكد من الأمر إلا بعدما علمت أن الأمر بقتل تومي جاء بعد أن قابلناه في أحد أيام الأحد، واعتقدت أنه قد يكون الزعيم نفسه".

اعترفت توبينس قائلة: "أنا لم أشك فيه على الإطلاق. لطالما اعتقدت أني أكثر مهارة من تومي - ولكن يبدو أنه أكثر مني مهارة بمراحل".

وافقها جوليوس قائلاً: "لقد كان تومي البطل. وبدلاً من أن يظل جالسًا في صمت مثل السمكة الحمقاء، دعوه يقص علينا ما حدث بنفسه".

قالت توبينس: "هيا، اسمعوا".

قال تومي في خجل: "لا يوجد ما يقال. لقد كنت ساذجًا - حتى عثرت على صورة آنيت في درج مكتب جوليوس، وأدركت أنها هي جاين فين. تذكرت حينها كيف أنها ظلت تصرخ باسم مارجريت عدة مرات - ففكرت في اللوحة - وهذا كل ما في الأمر. بعد ذلك، راجعت الأمر بأكمله لأكتشف أين جعلت من نفسي أحمق".

قال السيد كارتر: "أكمل"، ولكن بدا أن تومي يرتاح أكثر إلى الصمت ولكنه قال: "لقد أقلقني ما حدث مع السيدة فانديماير عندما أخبرني به جوليوس.

كان باديًا أنه إما هو أو السير جايمس من قام بقتلها، ولكني لم أعلم من منهما. عندما وجدت الصورة بعد ذلك في درج المكتب، بعد أن قص علينا كيف أن المحقق براون قد حصل عليها، بدأت أرتاب في أمر جوليوس. ثم تذكرت أن السير جايمس هو من قادنا إلى جاين فين المزيفة. في النهاية لم أتمكن من أن أقرر أي شيء - ولكني قررت ألا أحاول أن أجرب حظي مع أي منهما. تركت رسالة إلى جوليوس، في حال كان هو السيد براون، قلت فيها إنني سافرت إلى الأرجنتين، وتركت رسالة السير جايمس بجانب المكتب على الأرض حتى يشعر بأنها سقطت مني بشكل عفوي. ثم كتبت خطابًا للسيد كارتر واتصلت بالسير جايمس، فقد كان جعله يثق بي هو أفضل ما يمكنني القيام به، وأخبرته بكل ما سأفعله عدا مكان وجود الوثائق. كادت الطريقة التي ساعدني بها لاقتفاء أثر توبينس وآنيت تعجزني، ولكن ليس تمامًا. كنت أرتاب في أمرهما كليهما. بعد ذلك، وصلتني الرسالة المزيفة من توبينس - حينها اتخذت قراري".

قالت توبينس: "ولكن كيف؟".

أخرج تومي الرسالة المشار إليها من جيبه ومررها عليهم جميعًا وقال:

"إنه خط يدها بالفعل، ولكني علمت أنها ليست منها بسبب التوقيع. إنها لا تكتب اسمها بهذه الطريقة: تووبينس، ولكن أي شخص لم يكن قد رأى اسمها مكتوبًا من قبل قد يكتبه بهذه الطريقة. كان جوليوس قد رأى اسمها مكتوبًا من قبل - كان قد عرض عليَّ رسالة منها موجهة له من قبل - ولكن السير جايمس لم يكن قد رآه من قبل. بعد ذلك، سار كل شيء بسلاسة، حيث أرسلت ألبرت إلى السيد كارتر، وتظاهرت بالمغادرة ولكني عدت مرة أخرى، وعندما جاء جوليوس بسيارته إلى المنزل، أدركت أن هذا ليس جزءًا من خطة السيد براون - وأنه ربما تحدث مشكلة. إذا لم يتورط السير جايمس بنفسه في الأمر، لم يكن السيد كارتر ليصدق كلامي ــــــ".

قال السيد كارتر: "لم أكن سأفعل".

قال تومي: "لهذا السبب أرسلت الفتيات إلى السير جايمس. كنت على يقين من أنهم سيذهبون إلى المنزل في سوهو إن آجلاً أو عاجلاً. هددت جوليوس

بالمسدس، لأنني أردت من توبينس أن تقول هذا للسير جايمس، بحيث لا يشك بأمرنا. في اللحظة التي توارت فيها الفتاتان عن الأنظار طلبت من جوليوس أن يقود السيارة بأقصى سرعة نحو لندن، وفي أثناء ذلك، أخبرته بالقصة بأكملها. سرعان ما وصلنا إلى المنزل في سوهو وقابلنا السيد كارتر خارجه، وبعد أن رتبنا الأمر معه، دخلنا المنزل واختبأنا خلف الستارة التي تخفي المخبأ. ألقيت الأوامر لرجال الشرطة بأن يقولوا، إذا ما تم سؤالهم، أنه لا أحد دخل المنزل. هذا كل ما في الأمر".

توقف تومي عن الحديث فجأة.

فقال جوليوس: "بالمناسبة. لقد كنتم جميعًا مخطئين بشأن صورة جاين. لقد تم أخذها مني بالفعل، ولكني وجدتها مرة أخرى".

قالت توبينس: "أين؟".

قال جوليوس: "في الخزانة الصغيرة في غرفة السيدة فانديماير".

قالت توبينس: "كنت أعلم أنك وجدت شيئًا ما. في حقيقة الأمر، هذا ما جعلني أرتاب في أمرك. لماذا لم تخبرنا بالأمر؟".

قال جوليوس: "أعتقد أني كنت متشككًا أيضًا. لقد تم أخذها مني مرة، وقررت ألا أفشي أمر العثور عليها حتى ينسخ منها المصور نسخًا عديدة".

قالت توبينس: "لقد أخفينا جميعًا عن بعضنا البعض بعض الأمور. أعتقد أن العمل في الخدمة السرية يحتم عليك ذلك".

بعد أن صمتوا جميعًا، أخرج السيد كارتر من جيبه مفكرة بنية اللون وقال:

"لقد قال بيريسفورد منذ قليل إنني لم أكن سأصدق تورط السير جايمس بيل إدجارتون إلا إذا ضبطته متلبسًا. هذا صحيح. لم أقتنع بهذا إلا عندما قرأت ما كتبه في مفكرته عن الأمر. سيتم إرسال هذه المفكرة إلى إسكوتلانديارد، ولكن لن يتم نشرها على العامة أبدًا. إن صلة السير جايمس الطويلة بالقانون تحتم علينا ذلك، ولكن بالنسبة لكم، فأنتم تعلمون الحقيقة، لذا سأقرأ عليكم جزءًا منها يبين عقلية هذا الرجل العظيم الاستثنائية".

فتح المفكرة وقلب الأوراق وبدأ يقرأ قائلاً:

"... من الجنون أن أحتفظ بهذا الكتاب. أعلم هذا. إنه دليل دامغ ضدي، ولكني لم أخش أبدًا الإقدام على المخاطر. كما أني أشعر بحاجة ملحة لشيء ما يعبر عما يعتمل في داخلي... إن هذا الكتاب لن يُعثر عليه إلا مع جثتي...

"... منذ نعومة أظفاري، أدركت أني أمتلك قدرات استثنائية. الأحمق فقط هو من يقلل من قدراته. لقد كانت قدراتي العقلية أعلى من المعتاد. أعلم أن النجاح مقدر لي. لطالما كان مظهري هو ما يعمل ضدي، فقد كنت قبيح المظهر بشكل كبير...

"عندما كنت صبيًا صغيرًا، كنت أستمع إلى واحدة من محاكمات جرائم القتل الشهيرة. كنت منبهرًا بشدة بقوة محامي الدفاع وبلاغته. كانت تلك المرة الأولى التي أفكر فيها أن أستغل مهاراتي في هذا المجال... ثم درست شخصية القاتل داخل قفص الاتهام... لقد كان أحمق - كان غبيًا للغاية. حتى بلاغة محاميه لم تكن ستنقذه... لقد شعرت بالازدراء الشديد نحوه... ثم فكرت في أنه لا يوجد مجرمون أكفاء، فقد كان المشردون والفاشلون والرعاع هم من يتوجهون للجريمة... أمر غريب ألا يفكر الأذكياء في الفرص الذهبية التي قد تتوافر لهم في عالم الجريمة... بدأت الفكرة تختمر في عقلي... يا له من عالم رائع - مليء بعدد لا يحصى من الاحتمالات. لقد جعل عقلي يعمل بدون توقف...

"... قرأت الكثير من الأعمال الشهيرة عن الجريمة والمجرمين، والتي أكدت رأيي. إن الانحراف مرض لا يمكن أن يصيب المسيرة المهنية لرجل ذي بصيرة نافذة عن قصد منه، ثم فكرت، ماذا لو تمكنت من تحقيق أقصى طموحاتي - أن تتم دعوتي إلى إحدى المقاهي، وأن أصل إلى قمة مسيرتي المهنية؟ ماذا لو دخلت عالم السياسة - أو ربما أصبحت رئيس وزراء إنجلترا؟ ماذا بعد؟ هل هذه هي القوة التي أبتغيها؟ أن يراقبني رفاقي في كل لفتة أقوم بها، أن أُقيد بأغلال النظام الديمقراطي الذي سأكون ممثلاً له. لا - كانت القوة التي أحلم بها هي القوة المطلقة. الحاكم المطلق، الديكتاتور. مثل هذه القوة لن تتحقق إلا بالعمل ضد القانون. اللعب على أوتار مناطق ضعف الطبيعة البشرية، ثم

مناطق ضعف الأمم - أن نتحد ونسيطر على تنظيم ضخم، وفي النهاية نتمكن من عزل النظام الحاكم، وأن نحكم نحن. لقد أعجبتني الفكرة كثيرًا...

"... أدركت أنه يجب عليَّ أن أحيا حياتين. إن رجلاً في مثل مكانتي من السهل أن يلفت الأنظار. يجب أن أحقق مسيرة مهنية ناجحة تغطي أنشطتي الحقيقية... كما يجب عليَّ أن أحتل مكانة كبيرة في المجتمع. لقد هيأت نفسي لأكون أحد مستشاري الملك المشهورين، فقد حاكيت صفاتهم وجاذبيتهم. لو ما كنت قد اخترت أن أصبح ممثلاً، لكنت أعظم ممثلي العصر. بدون تنكر - بدون أدوات تجميل - بدون لحى مستعارة، بل شخصية كاملة. تقمصتها كما أرتدي قفازي. عندما أتقمص تلك الشخصية، كنت أصبح على حالتي الحقيقية، هادئًا، غير بارز، رجلاً مثل أي رجل آخر، وأطلقت على نفسي السيد براون. هناك مئات الرجال يسمون براون - وهناك المئات من الرجال يشبهونني...

"... لقد نجحت في مسيرتي المهنية الزائفة. لقد كان مقدرًا لي النجاح. سوف أنجح في مسيرتي المهنية الأخرى أيضًا، إن رجلاً مثلي لا يمكن أن يفشل...

"... لقد كنت أقرأ قصة حياة نابليون، يوجد لدينا الكثير من الأمور المشتركة...

"... لقد تدربت على الدفاع عن المجرمين، لأنه يجب على الرجل أن يعتني ببني جلدته...

"... لقد شعرت بالخوف مرة أو مرتين. المرة الأولى عندما كنت في إيطاليا. كنا في حفل عشاء، وكان الطبيب حاضرًا، وهو أحد أعظم أطباء النفس. كان الحديث يدور حول الجنون فقال: الكثير من الرجال العظماء مجانين، ولكن لا أحد يدرك هذا، حتى إنهم أنفسهم لا يدركون هذا. لا أعلم لما نظر إليَّ عندما قال هذا. كانت نظرته غريبة... ولم تعجبني...

"... جعلتني الحرب أشعر بالاضطراب... اعتقدت أنها ستؤجل مخططاتي. إن الألمان بارعون للغاية، كما أن جهاز استخباراتهم رائع هو الآخر. إن الشوارع تمتلئ بهؤلاء الفتية الذين يرتدون اللون الكاكي، وكانوا جميعًا من الشباب

الأحمق العاطل عن العمل... ولكني لا أعلم... لقد انتصروا في الحرب... لقد أزعجني هذا الأمر كثيرًا...

"... إن مخططاتي تسير على أكمل وجه... لقد تدخلت فيها فتاة ما - ولكني لا أعتقد أنها تعلم أي شيء... ولكن يجب أن نتخلى عن خطة إستونيا... يجب ألا نقدم على أية مخاطرة في الوقت الحالي...

"... كل شيء على خير ما يرام. إن فقدان الذاكرة حقيقي، لا يمكن أن يكون زائفًا. لا يمكن لأية فتاة أن تخدعني...

"... لقد حل يوم التاسع والعشرين... لقد اقترب الموعد كثيرًا..."، ثم توقف السيد كارتر عن القراءة، ثم قال بعد ذلك: "لن أقرأ تفاصيل الانقلاب المخطط، ولكن هناك مقطعين يشيران لثلاثتكم، وفي ضوء ما حدث، أعتقد أنهما مثيران للاهتمام.

"... عندما أقنعت الفتاة بأن تأتي لي طواعية، نجحت في أن أنزع أسنانها، ولكنها ذات حدس رائع قد يعرضنا للخطر... يجب أن تتم إزاحتها عن الطريق... لا يمكنني أن أفعل شيئًا للأمريكي، إنه يشك بي ولا يحبني، ولكن لن يمكنه أن يعلم أي شيء عني. أعتقد أن درعي منيعة للغاية. أعتقد أحيانًا أنني قد قللت من قدر الفتى الآخر. إنه ليس على قدر كبير من المهارة، ولكن لا يمكن لأحد أن يحجب الحقيقة عنه...".

أغلق السيد كارتر الكتاب وقال:

"رجل عظيم. عبقري أم مجنون، من يمكنه أن يحكم على هذا؟".

خيم الصمت على المكان، ثم نهض السيد كارتر وقال:

"سأقترح نخبًا. إلى شركة شباب المغامرين التي قدرت لنفسها النجاح الباهر".

صفق الجميع وهللوا في حين أكمل السيد كارتر حديثه قائلاً:

"هناك أمر آخر نرغب في سماعه"، ونظر إلى السفير الأمريكي وقال: "أنا أتحدث عنك أيضًا. سنطلب من الآنسة جاين فين أن تخبرنا بالقصة التي لم

يسمعها أي منا سوى الآنسة توبينس فقط - ولكن قبل هذا سنرفع نخبها - نخب واحدة من أشجع الفتيات اللواتي أنجبتهن أمريكا في تاريخها، الفتاة التي تدين لها دولتان عظيمتان بالشكر والعرفان".

الثامن و العشرون

والنهاية

قال السيد هيرشايمر بينما كان يقود سيارته وابنة عمته بجانبه عائدين إلى فندق الريتز:

"لقد كان نخبًا رائعًا ياجاين".

قالت جاين: "أتقصد نخب المغامرة المشتركة؟".

قال جوليوس: "لا - نخبك أنت. لا توجد فتاة في العالم قادرة على فعل ما فعلت أنت. لقد كنت رائعة".

أحنت جاين رأسها وقالت:

"أنا لا أشعر بأنني رائعة، بل أشعر في داخلي بالإرهاق والوحدة - والشوق للعودة لبلادي".

قال جوليوس: "يشجعني هذا على قول أمر ما كنت أرغب في الحديث معك عنه. لقد سمعت السفير يقول إن زوجته تأمل في أن تذهبي لهما في مقر السفارة على الفور. هذا أمر رائع، ولكني وضعت خطة أخرى. جاين - هل تتزوجينني. لا تشعري بالخوف وترفضي على الفور. لا يمكن أن تشعري بالحب نحوي على

الفور، هذا مستحيل، ولكني أحببتك منذ رأيت صورتك للمرة الأولى - والآن بعد أن رأيتك، أصبحت أحبك بجنون. إذا ما وافقت على الزواج مني، فلن أجعلك تقلقين من أي شيء - ستستمتعين بحياتك. ربما لا تشعرين بالحب نحوي أبدًا، وفي هذه الحالة سأعطيك حريتك. ولكني أطالبك بمنحي الحق في الاعتناء بك ورعايتك".

قالت جاين بحكمة: "هذا ما أرغبه. شخص ما يعاملني برفق. إنك لا تشعر بمدى الوحدة التي أشعر بها".

قال جوليوس: "لا شك في أني أشعر بك، وأعتقد أن كل هذا سينصلح، وسأذهب صباح الغد إلى رجل الدين من أجل الحصول على موافقته بالزواج منك".

قالت جاين: "جوليوس".

قال جوليوس: "حسنًا، أنا لا أرغب في جعلك تتسرعين بالقرار، ولكن لا يوجد ما يجعلنا ننتظر. لا تخافي - لا أتوقع أن تحبيني على الفور".

ولكنه وجدها تضع يدها الصغيرة بيده وتقول:

"أنا أحبك منذ الآن يا جوليوس. لقد أحببتك منذ أن كنا في السيارة واحتكت طلقة الرصاص بوجنتك...".

بعد خمس دقائق، غمغمت جاين بلطف قائلة:

"أنا لا أعرف شوارع لندن جيدًا يا جوليوس، ولكن يبدو أن المسافة بين مطعم سافوي وفندق الريتز كبيرة، أليس كذلك؟".

قال جوليوس: "يعتمد هذا على الطريق الذي تسلكينه. إننا نسلك طريق متنزه ريجينت".

قالت جاين: "جوليوس، ماذا سيعتقد السائق؟".

قال جوليوس: "طبقًا للراتب الذي يتقاضاه مني، لا أعتقد أنه سيفكر في أي شيء بمفرده. إن السبب الوحيد الذي أقمت من أجله حفل العشاء في سافوي هو أن أتمكن من أن أقلك لمحل إقامتك. إنني لم أكن أعلم كيف يمكنني أن أنفرد بك. لقد كنت أنت وتوبينس ملتصقتين بعضكما بالأخرى كالتوأم السيامي. أعتقد

أنكما لو كنتما بقيتما على هذه الحال ليوم آخر، لكنت أصبت أنا وبيريسفورد بالجنون".

قالت جاين: "هل هو ــــــ؟"

قال جوليوس: "بالطبع هو كذلك. إنه متيم بها".

قالت جاين: "لقد توقعت هذا".

قال جوليوس: "لماذا؟".

قالت جاين: "لقد تحدثت توبينس معي في كل شيء عدا هذا".

قال جوليوس: "لقد تغلبت عليَّ في هذا الأمر".

ولكن كل ما فعلته جاين هو أن ضحكت.

في الوقت ذاته، كان فريق شباب المغامرين يجلسان منتصبين، ومتصلبين وغير مرتاحين في سيارة أجرة عادية كانت تقلهما أيضًا إلى فندق الريتز عبر متنزه ريجينت.

كان يبدو أن هناك الكثير من الارتباك يسود بينهما. بدون أن يعلما ما حدث، بدا أن كل شيء قد تغير بينهما. كانا غير قادرين على الحديث - كما لو كانا مشلولين. لقد انتهت الصداقة بينهما.

لم تتمكن توبينس من التفكير في أي شيء لتقوله.

وكانت حال تومي مماثلة لحالها.

في النهاية، قالت توبينس بعد بذل جهد كبير:

"لقد كان الحفل مسليًا، أليس كذلك؟".

قال تومي: "بالفعل".

ثم خيم الصمت مرة أخرى.

قالت توبينس مرة أخرى:

"يعجبني جوليوس".

دبت الحياة في تومي فجأة وقال:

"إنك لن تتزوجيه، هل سمعت؟"، ثم قال بدكتاتورية: "أنا لست موافقًا على هذا".

قالت توبينس بخضوع: "أوه".

قال تومي: "لن يحدث هذا، هل تفهمين؟".

قالت توبينس: "إنه لا يرغب في الزواج مني - لقد طلب مني الزواج بدافع الشفقة".

قال تومي: "هذا احتمال بعيد".

قالت توبينس: "بل هذا صحيح، إنه غارق في حب جاين. أعتقد أنه يطلب يدها للزواج الآن".

قال تومي: "أعتقد أنها ستوافق".

قالت توبينس: "ألا تعتقد أنها ألطف مخلوقة وقعت عيناك عليها؟".

قال تومي: "بالفعل، هي كذلك".

قالت توبينس: "ولكني أعتقد أنك تفضل الفتيات الثريات".

قال تومي: "توبينس، أنت تعلمين أن الأموال لا تهمني".

قالت توبينس بسرعة مغيرة مسار الحديث:

"يعجبني عملك يا تومي. بالمناسبة، ما الذي ستفعله، هل ستقبل بالوظيفة الحكومية التي عرضها عليك السيد كارتر، أم ستقبل عرض جوليوس وتذهب للعمل معه في مزرعته في أمريكا؟".

قال تومي: "أعتقد أني سأبقى في بلادي، على الرغم من العرض السخي من هيرشايمر، ولكني أميل أكثر للبقاء في لندن".

قالت توبينس: "لا أرى أن لي دخلًا بالأمر".

قال تومي: "بل لكِ دخل".

نظرت له توبينس بجانب عينها وقالت:

"ستكون هناك أموال أيضًا".

قال تومي: "أية أموال؟".

قالت توبينس: "سيحصل كل منا على شيك، لقد أخبرني السيد كارتر بهذا".

سألها تومي بسخرية: "هل سألته عن المبلغ؟".

قالت توبينس: "نعم، ولكني لن أخبرك".

قال تومي: "إنك مزعجة يا توبينس".

قالت توبينس: "لقد كانت مغامرة ممتعة، أليس كذلك يا تومي؟ أتمنى أن نقوم بالمزيد من المغامرات".

قال تومي: "إنك نهمة للمغامرات يا توبينس، لقد اكتفيت من المغامرات في الوقت الحالي".

قالت توبينس: "حسنًا، أعتقد أن التسوق يكفي حاليًا. أفكر في شراء بعض الأثاث القديم، والسجاجيد اللامعة، والستائر الحريرية ذات التصميمات المستقبلية، وطاولة طعام لامعة وأريكة ذات وسائد كثيرة ـــــ".

قال تومي: "مهلاً، لماذا كل هذا؟".

قالت توبينس: "ربما من أجل منزل، ولكني أفكر في شقة".

قال تومي: "شقة من؟".

قالت توبينس: "هل تعتقد أني سأمتنع عن قولها، ولكني لست كذلك. شقتنا".

صاح تومي وهو يحيطها بذراعيه:

"حبيبتي. لقد كنت أرغب في أن أجعلك تقولينها بنفسك. لطالما أحببتك على الرغم من الطريقة القاسية التي تعاملت بها معي عندما حاولت أن أخبرك بمشاعري".

رفعت توبينس عينيها وأخذت تنظر في عينيه، في حين كانت سيارة الأجرة تواصل طريقها عابرة الجزء الشمالي من متنزه ريجينت.

قالت توبينس: "إنك لم تتقدم لتتزوجني بالفعل في الوقت الحالي، ليس بالطريقة القديمة، ولكن بعد الاستماع إلى العرض السيئ من جوليوس، فإنني ألتمس لك العذر".

قال تومي: "لن يمكنك أن تتخلصي من زواجك مني، لذا، ألن تفكري قليلاً؟".

قالت توبينس: "وما المرح في ذلك. إن الزواج يُطلق عليه الكثير من الأسماء: الجنة، الملاذ، والمجد العظيم، وحالة من العبودية، والكثير من الأسماء الأخرى، ولكن هل تعلم ما أطلقه أنا عليه؟".

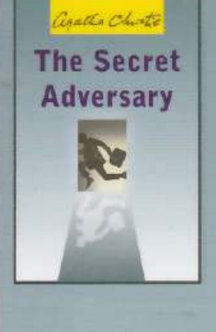
قال تومي: "ماذا؟".

قالت توبينس: "رياضة".

قال تومي: "رياضة رائعة أيضًا".

تمت بحمد الله تعالي

العدو الخفي



لغز تومـي وتوبينس الأول، مع مقدمة جديـدة تمامًـا مـن تأليـف الخبـير بأعمال أجاثا كريستي جون كوران.

تومـي وتوبينـس، زوجـان شـابان مفلسان خسـرا عملهما بعد الحرب، لا يملان السـعي وراء الإثارة. بدآ في إنشـاء شـركة جريئة - شركة شباب المغامريـن المحـدودة - «مسـتعدون لفعل أي شيء في أي مكان».

ولكـن، مهمتهما الأولى، لصـالح السـيد ويتنجتون المشئوم، ورطتهما في مؤامرات سياسـية شـيطانية. وتحت سمع وبصر السـيد براون المخادع، وجدا نفسـيهما معرضين لخطر يفوق تخيلهما.

«علـى أي كاتـب روايات ألغاز يرغـب في تعلم كيفية صـياغة الحبكة الروائية أن يقضي بعض الأيام في قراءة أعمال أجاثا كريستي، حيث إنها ستعلمك كل ما ترغب في تعلمه».

ــ دونا ليـون، مؤلفة الروايـات الأكثر مبيعًـا في العالم تحت عنوان Commissario Guido Brunetti.

- إعلان عن جريمة
- أوراق لعب على الطاولة
- القتل السهل
- خداع المرايا
- الجواد الأشهب
- لغز القطار الأزرق
- الأفيال تستطيع أن تتذكر
- الشاهد الصامت
- الستار
- بعد الجنازة
- شر تحت الشمس
- الجريمة النائمة
- العدو الخفي
- قطة بين الحمام
- الموت على ضفاف النيل

«أجاثا كريسـتي مؤلفة الروايات البوليسـية الأكثر مبيعًـا على مدار التاريخ؛ حيث لم تتمكن أية أعمال أخرى من تخطي مبيعاتها سـوى أعمال شكسـبير، فقد بيع أكثر من مليار نسخة من أعمالها باللغة الإنجليزية، إلى جانب مليار نسخة أخرى مترجمة إلى مائة لغة. توفيت أجاثا كريستي عام ١٩٧٦».




ISBN 628-107207963-5
6 281072 079635
282205775

